موسوعة المرأة والجاسوسية

الدكتور صالح زهر الدين

الجزء الرابع

مركز الشرق الأوسط الثقافي

موسوعة
المرأة والجاسوسية

الدكتور صالح زهر الدين

الجزء الرابع

مركز الشرق الأوسط الثقافي

الطبعة الأولى

مركز الشرق الأوسط الثقافي
للطباعة والنشر والترجمة والتوزيع

Middle East Cultural Center
For Printing, Publishing, Translating & Distributing

الإدارة العامة:

بيروت ـ الحدث، هاتف: ٨٨٨ ـ ٤٦١٧٧٧ ـ ٥ ـ ٩٦١ ـ فاكس: ٤٦١٩٩٩ ـ ٥ ـ ٩٦١ ـ خليوي: ٦٤٠٤٩٠ ـ ٣ ـ ٩٦١
مصر ـ الدقي، هاتف: ٠٠٢٠٢٣٣٦٥١٥٢ ـ خليوي: ٠٠٢٠١٢٦٥١٠٥٦١
سوريا ـ دمشق، هاتف: ٠٣٠ ـ ٠٢٠ ـ ٠٠٩٦٣١١٤٦٤٤٠١٠ ـ خليوي: ٩٦٣٩٤٩٩٧٧٦٤

General Management:

Beirut - Hadath, Tel: 961-5-461777 - 888 - Fax: 961-5-461999, Mobile: 961-3-640490
Cairo - Dokki, 002023365152 - Mobile: 0020126510561
Syria - Damascus, 00963114644010 - 020 - 030 - Mobile: 96394997764
Web site: www.lccpublishers.tk E-mail: lcc_ pub @ yahoo.com

حرف الراء

1 ـ رولا حسن، وخديجة مروّة.

2 ـ ريبيكا سومر.

3 ـ ريتا كاتس.

رولا حسن، وخديجة مروة(*)

(Rola Hasan & Khadija Mrouweh)

(1971 - ‏)، (1933 - ‏)

هما من عميلات العدو الصهيوني في جنوب لبنان.

رولا علي حسن:

كانت رولا تحلم ـ كأية فتاة أخرى ـ بفارس.... ينتزعها من بستان أهلها ليزرعها في رياض فوّاحة بالتفاؤل المستديم والنجاح العميم، غير أن فارس أحلامها أجلسها إلى جانبه في قفص الاتهام ليواجها معاً تهمة تقشعر لها الأبدان، هي تهمة الخيانة.

فقد تزوجت رولا علي حسن (والدتها عفاف حاموش، مواليد كفرحتى قضاء صيدا في العام 1971. رقم السجل 29 شمع، قضاء صور) من المعاون أول في الجيش اللبناني حسين علي عليان في العام 1991، وقطنت معه في منزل في بلدة الزرارية. غير أنه بعد مرور سنة ونصف على هذا الزواج الميمون بدأت رولا تشعر بأن تصرفات

(*) **المرجع**: علي الموسوي «شبكات الوهن ـ عملاء إسرائيل في قبضة القضاء». الجزء الأول. دار الهادي. الطبعة الأولى: بيروت 2001. ص 99 ـ 112.
ود. سليمان المدني «تركيا اليهودية». دار الأنوار. دمشق. الطبعة الثانية 1998. ص 45 ـ 72.

زوجها غير طبيعية، لأنه كان أثناء نيله مأذونية من خدمته يدخل إلى غرفة الصالون ويقفل الباب خلفه وذلك قرابة الساعة الواحدة، بحجّة أنه يرغب في النوم ولا يحلو له الاستمتاع بالنوم إلا في هذه الغرفة. ولمّا تكرّر هذا المشهد مرات عدة بدأت رولا تشك بقيامه بعمل أمني من دون أن تعرف فحواه أو الغاية منه، وكانت تسأله باستمرار عن مكوثه طوال هذه المدة في الغرفة، فيتهرّب من الإجابة مما زاد من نسبة الشكوك في بالها ولم تجد ما يطفىء نيرانها الملتهبة ويقيّد فضوليتها سوى أن تسترق النظر من ثقب مفتاح الصالون، لكن ذلك لم يوصلها إلى اكتشاف الأفعال الإرهابية التي كان زوجها يطرّزها بملء إرادته وقناعته، وهي حتماً، مخيّبة للآمال.

وفي أواخر العام 1993 اتفقت رولا مع حسين على دهن المنزل وطلبت منه لهذه الغاية، نزع رفّ خشبي مثبت في غرفة الصالون، فرفض هذا الطرح جملة وتفصيلاً، ومرة حاولت وضع ماء ساخن بداخل حافظ للحرارة موجود على رفّ المطبخ مدوّن عليه «إن الله على كل شيء قدير» فمنعها من أن تقوم بذلك بذريعة أنه هدية نفيسة من شقيقه المتوفّي كمال عليان، وأنه مثقوب من الأسفل ولا يصلح للاستعمال. وذهب أبعد من ذلك بأن اشترى لها حافظاً للحرارة جديداً لكي تنسى الأول نهائياً.

ولفت نظر رولا أنه في كل مرة كان يدخل فيها إلى الصالون لينام ـ كما كان يدّعي أمامها ـ كان يصطحب معه ورقة وقلماً، فساورتها الظنون حول أفعاله أكثر فأكثر. حتى أوائل العام 1994 حيث غاب لمدة يومين عن البيت من دون أن يخبرها عن مكان وجوده. ولما عاد عاتبته على غيابه المضني من دون «حسّ ولا خبر» كما يقال، فأسرّ لها بأنه يعمل لمصلحة العدو الإسرائيلي، وبأنه كان

خلال اليومين المنصرمين في فلسطين المحتلة، وبأنه أخبر الصهاينة بمسألة شكها فطلبوا منه إعلامها بالأمر، واقتادها إلى غرفة الصالون وفتح الرفّ الخشبي لترى بداخله مجموعة إلكترونية صغيرة استفسرت عنها فأفادها بأن هذا جهاز إرسال يستعمله في إرسال المعلومات إلى الإسرائيليين، وبأنه يتلقى المعلومات منهم عبر جهاز الراديو الذي كان يضعه على الرفّ وهو من نوع «توشيبا». وبعدما «اطمأنت» إلى سير عمله، عاد حسين إلى أسلوبه المتبع في الدخول ليلاً إلى غرفة الصالون والقيام بواجبه تجاه إنماء إسرائيل الكبرى، ولكن هذه المرة على مرأى ومسمع من رولا التي لم تكن تعرف بمضمون البرقيات. وبعد نحو أسبوعين أعطاها رسالة من الإسرائيليين، كما قال لها، للإجابة عليها، وتتضمن تعهداً بعدم إفشاء سرّ زوجها لأي شخص خوفاً على حياته فدوّنت رسالة بذلك ووقّعتها وسلمها حسين للإسرائيليين.

بعد نحو سنتين كانت رولا برفقة زوجها حسين بداخل سيارة من نوع «فولفو» لون رصاصي متوجهين نحو بلدة كفرحتى لزيارة أهلها، وقبل مرورهما في بلدة الغازية باتجاه كفرحتى طلب حسين منها تدوين أرقام السيارات الموجودة تحت مبنى يشغله مسؤول في «حزب الله» لم يذكر اسمه لها، وأعلمها بأن الإسرائيليين طلبوا منه ذلك. وبوصولهما إلى قرب المبنى دوّنت أرقام السيارات وسلّمتها لزوجها الذي أفهمها أنه في حال تقدّم أي شخص منهما أثناء تدوين الأرقام فإنه سيوهمه بأن السيارة معطّلة ثم أكملا طريقهما إلى بيت أهلها.

وفي أواخر العام 1996 تجرّأ حسين وأخبر رولا بأنه سيسافر إلى هولندا لمقابلة الإسرائيليين حيث غاب مدة شهر تقريباً، ولما عاد قصّ عليها نبأ رحلته واجتماعه بالإسرائيليين من دون أن يدخل في

تفاصيل هذا الاجتماع. وبعد خمسة أشهر حضر حسين ووالدته خديجة مروّة إلى المنزل مصطحبين سريراً للأطفال وعلاّقة للثياب تسمى «الزاوية» لونهما أبيض، علمت رولا لاحقاً بأن «الزاوية» تحتوي من الأسفل على جهاز إرسال لاسلكي مخبأ بشكل سري لا يمكن لأحد أن يكشفه بسهولة، وراح حسين يعمل على هذا الجهاز بحضورها. وأخبرها بأن حقيبة عدّة الحلاقة التي يملكها تحوي مخبأ سرياً لوضع المعلومات الأمنية فيه، وبأن حقيبة الجيب تضمّ مخبأ سرياً أيضاً، وبأن المنفخ الموجود لديه هو عبارة عن جهاز إرسال لاسلكي كان يستخدمه في التواصل مع الإسرائيليين قبل أن يتلف هذا الجهاز لدواع أمنية.

وقبل أيام قليلة من اعتقال حسين، أعلمها بأنه مطلوب إلى وزارة الدفاع الوطني. فذهب وانتظرته لغاية الليل من أجل أن تقف على أخباره. ومرّ يومان من دون أن يعود إلى عائلته، فأدركت تماماً بأنه موقوف، عندها عمدت إلى نزع جهاز الإرسال من علاّقة الثياب ورمته في «جورة» المجارير الصحية الواقعة في حديقة المنزل وأحرقت بعض الأوراق وصور «نيغاتيف» كانت موضّبة إلى جانب الجهاز في أسفل «الزاوية»، أي علاّقة الثياب، وأخرى كانت مخبّأة في حافظ الحرارة. وعندما حضرت حماتها خديجة أخبرتها بحادثة توقيف حسين، كيف لا، وقلبها دليلها، فطلبت الأخيرة منها أن تعطيها «الراديو كاسيت» والسمّاعة وحقيبة عدّة الحلاقة ففعلت ووضعتها في كيس خبّأته في منزل ابنها مصطفى الذي يقطن بالقرب من منزل شقيقه حسين عليان بينما خبّأت رولا حقيبة الجيب لدى شقيقتها رنا في بلدة كفرحتى على سبيل الأمانة من دون أن تخبرها بحقيقة الموضوع.

خديجة حسين مروة

الأم. . . صندوق بريد متنقِّل.

وقعت خديجة حسين مروة (والدتها فاطمة حمادة، مواليد كفرحتى في العام 1933، رقم السجل 29 شمع، متأهلة من علي مصطفى عليان، أمّية، وربّة منزل) ضحية غشّ ولديها العميلين حسن وحسين عليان اللذين استغفلاها واستغلا جهلها للقراءة والكتابة وتضاربها مع المعرفة والعلم، وصنعا منها صندوقاً بريدياً متنقلاً لإخفاء رسائل عشق الأخير إلى حبيبته الدولة العبرية، وتمرير خلاصات رقابته الشرهة لمن امتهنوا بإيمان وعزم من مقاومين أشاوس، حسّ تنغيص استمرار وجود كيان إسرائيلي على أرض فلسطين المحتلة منذ النكبة المفجعة في العام 1948.

وقد بدأت «خيانة» الولدين لأمهما في العام 1993، عندما حمّلها حسن حقيبة يد «جزدان» وضع فيه بطريقة مخفية أوراقاً تعرف حتماً مضمونها، وطلب منها تسليم الجزدان إلى حسين، ففعلت برضى تام من دون أن تعتريها الظنون خصوصاً أن عاطفتها الجياشة تجاه ولديها تحجب عن ناظريها رؤية السوء خارجاً منهما. وراح العميل حسن كل أربعة أو خمسة شهور يحشي جزدانها بالأوراق غير المالية طبعاً، وكرّت السبحة وأرسل معها كيس فحم يزن خمسين كيلوغراماً ألأنَّ الفحم مفقود في المناطق المحررة؟ وصفيحة زيت، وسرير أطفال أبيض اللون، وعلاّقة ثياب «زاوية»، وحافظاً للحرارة أوصلتها كلها في مواقيتها للعميل حسين من دون أن تعرف ما تحتويه أو الغاية من هذه المساعدة الأخوية على الرغم من أنها تدرك ملياً أن ابنها حسن يعمل لمصلحة العدو الإسرائيلي.

وبعدما سمعت ألسنة الناس ووسائل الإعلام تتداول بقضية توقيف ابنها حسين لدى مديرية المخابرات في الجيش اللبناني بسبب عمله أمنياً لمصلحة العدو، أخذت خديجة من كنّتها رولا «راديو كاسيت» ومحفظة خاصة بعدّة الحلاقة وأودعتهما في منزل ابنها الآخر مصطفى، لكنها ما لبثت أن عمدت إلى تحطيم الراديو وإحراقه مع المحفظة تحسّباً لاعتقال ابنها مصطفى بجرم لم يقترفه ولا علاقة له به لا من قريب ولا من بعيد.

أدوات الجريمة

بتاريخ يوم الجمعة في 20 آب (أغسطس) من العام 1999، دهمت مديرية المخابرات في الجيش اللبناني، منزل العميل عليان في بلدة الزرارية، وفتشته تفتيشاً دقيقاً وعثرت على علاّقة الثياب «الزاوية» في غرفة النوم من دون أن تجد الجهاز اللاسلكي المخبأ في أسفلها، وجهاز إرسال مخبأ داخل صندوق خشبي، ومسمّى بجهاز «الرف» في حديقة المنزل قرب غرفة الصالون، ويحتوي الصندوق أيضاً على بعض الأوراق والمستندات الأمنية، إبريق الشاي الحافظ للحرارة في غرفة «المونة»، حقيبة عدَّة الحلاقة وبداخلها مخبأ سري في خزانة الثياب، حقيبة جيب بداخلها مخبأ سري في جارور حمّام غرفة النوم. وكان العميل عليان قد أتلف سابقاً أقلام حبر سري وجهاز الإرسال المسمى بـ «المنفخ» الذي حطّمه ورماه بين النفايات. كما أن والدته خديجة أحرقت راديو كاسيت ومحفظة عدّة الحلاقة.

وبتاريخ يوم الاثنين في 23 آب (أغسطس) من العام نفسه، ضبطت المديرية من شقيقة رولا المدعوة رنا في منزل ذويها في بلدة كفرحتى، محفظة الجيب السوداء التي يوجد بداخلها مخبأ سري

وعثرت فيها على مبلغ ثمانمائة دولار أميركي، كما ضبطت دفتري توفير الأول من مصرف «لبنان والمهجر» برصيد خمسمائة يورو أوروبي، والثاني من «جمال ترست بنك» برصيد ثلاثين مليون ليرة لبنانية، وسئل عنهما العميل عليان فقال إنه وفّرهما من المبالغ التي كان يقبضها من العدو الإسرائيلي.

كلمة العدالة

بتاريخ الجمعة الواقع فيه 28 كانون الثاني (يناير) من العام 2000 أصدرت المحكمة العسكرية الدائمة برئاسة العميد الركن ماهر صفي الدين وحضور المستشار المدني القاضي فايز مطر والعقداء الركن سعيد عيد، رزق رزق، ومحمود الجمل حكمها بحق هذه الشبكة العائلية وذلك على الشكل التالي:

الجمهورية اللبنانية	رقم الدعوى: 3703/ 1999
وزارة الدفاع الوطني	رقم الحكم: 358/ 2000
المحكمة العسكرية	

باسم الشعب اللبناني

إن المحكمة العسكرية الدائمة في بيروت والمؤلفة من:

الرئيس العميد الركن: ماهر صفي الدين.

المستشار المدني: القاضي فايز مطر.

المستشار: العقيد الركن سعيد عيد.

المستشار: العقيد الركن رزق رزق.

المستشار: العقيد الركن محمود الجمل.

لدى التدقيق بقضية المدعو:

1 ـ المعاون الأول حسين علي عليان (والدته خديجة، مواليد 1962 شمع، لبناني)، وكيله الأستاذ رياض مطر.

2 ـ رولا علي حسن، (والدتها عفاف، مواليد 1971 كفرحتّى، لبنانية) وكيلاها الأستاذان رياض مطر وحياة عبد الحق.

3 ـ خديجة حسين مروة، (والدتها فاطمة، مواليد 1933 كفرحتّى، لبنانية) وكيلاها الأستاذان فضل الحاج ورياض مطر.

4 ـ حسن علي عليان، (والدته خديجة، مواليد 1964، شمع، لبناني).

5 ـ علي مصطفى عليان (والدته مريم، مواليد 1931، شمع، لبناني).

6 ـ يوسف موسى السبليني، (والدته نايفة، مواليد 1959، الناقورة، لبناني).

المسند إليهم أنهم في الأراضي اللبنانية وبتاريخ لم يمر عليه الزمن، أقدم الأول على إجراء اتصال بالعدو وعملائه وإفشاء معلومات أمنية وعسكرية لمصلحته كان يجب أن تبقى مكتومة، وعلى دسّ الدسائس لدى العدو ومعاونته على فوز قواته، وعلى التدخل بجرم قتل واغتيال بعض قادة المقاومة عمداً من قبل العدو، وعلى دخول بلاد العدو دون إذن عدة مرات، وأقدم الثاني على التعامل مع عملاء العدو وإفشاء معلومات لمصلحته كان يجب أن تبقى مكتومة وعلى التدخل بجرم قتل أحد قادة المقاومة عمداً. المغدور خضر

سلامة ومرافقيه من قبل العدو. وأقدم الثالث والرابع والخامس والسادس على إجراء اتصال بالعدو وإفشاء معلومات لمصلحته.

وبعد استماع كل من الشهود والخبراء بمفرده وتحليف كل منهم اليمين القانونية بجلسة علنية للمرافعة وسرية للاستجوابات.

وبعد استماع مطالعة مفوض الحكومة (القاضي ميسّر شكر)، الرامية إلى تطبيق مواد قرار الاتهام وإنزال العقوبة القصوى بهم.

وبعد استماع دفاع المدعى عليهم الرامي إلى:

طلب الأستاذ رياض مطر لموكلته إعلان براءتها لعدم النية الجرمية وإلا للشك واعتبار أفعال المتهم حسين عليان منطبقة على المادة 285 و 278 ع، وإعفاءه من العقوبة سنداً للمادة 227 ع. واستطراداً منحه أوسع الأسباب التخفيفية.

طلب الأستاذ فضل الحاج لموكلته خديجة البراءة كونها لم تتعامل مع العدو ولا تنطبق عليها المادة 278 ع والبراءة من المادة 284 ع لعدم توفر شروطها واستطراداً كلياً أوسع الأسباب التخفيفية كونها كانت تجهل طبيعة أعمالها والاكتفاء بمدة توقيفها نظراً لمرضها وعجزها.

طلبت الأستاذة عبد الحق لموكلتها رولا منحها البراءة لعدم صحة التهم المنسوبة إليها وعدم قانونيتها واستطراداً للشك وإذا رأت المحكمة غير ذلك منحها أوسع الأسباب التخفيفية والاكتفاء بمدة توقيفها وإعفائها من العقاب للأسباب التي ذكرت وإطلاق سراحها فوراً وتقدمت بتقارير طبية ضمّت الملف.

طلب المتهم حسين عليان لنفسه الرحمة. طلب كل من المتهمين رولا وخديجة لنفسيهما البراءة.

طرحت الأسئلة التالية وهي:

أولاً: ....

ثانياً: هل أنه في الأراضي اللبنانية وخارجها وبتاريخ لم يمر عليه الزمن أقدم:

1 ـ المدعى عليه المعاون الأول حسين علي عليان.

أ ـ على دسّ الدسائس لدى العدو الإسرائيلي ومعاونته على فوز قواته.

ب ـ على إجراء اتصال بالعدو الإسرائيلي وعملائه.

ج ـ على إفشاء معلومات أمنية وعسكرية لمصلحة العدو الإسرائيلي كان يجب أن تبقى مكتومة.

د ـ على التدخل بقتل واغتيال بعض قادة المقاومة عمداً من قبل العدو عن طريق تزويده بمعلومات وإرشادات ساعدت وهيأت حصول الجريمة.

هـ ـ على دخول بلاد العدو دون إذن.

2 ـ المدعى عليها رولا علي حسن.

أ ـ على التعامل مع عملاء العدو الإسرائيلي.

ب ـ على إفشاء معلومات لمصلحة العدو الإسرائيلي كان يجب أن تبقى مكتومة.

ج ـ على التدخل في قتل أحد قادة المقاومة عمداً المغدور خضر سلامة ومرافقيه من قبل العدو عن طريق تزويده بأرقام ونوع ولون سياراته.

3 ـ المدعى عليها خديجة حسين مروة.

أ ـ على إجراء اتصال بالعدو الإسرائيلي.

ب ـ على إفشاء معلومات لمصلحة العدو الإسرائيلي.

4 ـ المدعى عليه حسن علي عليان.

أ ـ على إجراء اتصال بالعدو الإسرائيلي وعملائه.

ب ـ على إفشاء معلومات لمصلحة العدو الإسرائيلي.

5 ـ المدعى عليه علي مصطفى عليان.

أ ـ على إجراء اتصال بالعدو الإسرائيلي.

ب ـ على إفشاء معلومات لمصلحة العدو الإسرائيلي.

6 ـ المدعى عليه يوسف موسى السبليني.

أ ـ على إجراء اتصال بالعدو الإسرائيلي.

ب ـ على إفشاء معلومات لمصلحة العدو الإسرائيلي.

ثالثاً: ... ... **رابعاً**: ... ...

خامساً: ... ...

سادساً: وهل أن في القضية أسباباً توجب امتناع الإسناد (أسباب التبرير)؟.

سابعاً: هل أن في القضية أعذاراً محلة؟.

ثامناً: هل أن في القضية ظروفاً مشددة؟.

تاسعاً: هل أن في القضية أعذاراً مخففة؟.

عاشراً: هل أن في القضية ظروفاً مخففة؟.

وبعد الإجابة على الأسئلة المبيّنة آنفاً كما يلي:

على السؤال الأول: ... ...

على السؤال الثاني:

1 ـ أ ـ نعم بالإجماع. ب ـ نعم بالإجماع. ج ـ نعم بالإجماع. د ـ كلا بالإجماع. هـ ـ نعم بالإجماع.

2 ـ أ ـ نعم بالإجماع. ب ـ كلا بالإجماع. ج ـ كلا بالإجماع.

3 ـ أ ـ نعم بالإجماع. ب ـ كلا بالإجماع.

4 ـ أ ـ نعم بالإجماع. ب ـ نعم بالإجماع.

5 ـ أ ـ نعم بالإجماع. ب ـ نعم بالإجماع.

6 ـ أ ـ نعم بالإجماع. ب ـ نعم بالإجماع.

على السؤال الثالث: ... ... على السؤال الرابع: ... ... على السؤال الخامس: ... ... على السؤال السادس: كلا بالإجماع.

على السؤال السابع: كلا بالإجماع.

على السؤال الثامن: كلا بالإجماع.

على السؤال التاسع: كلا بالإجماع.

على السؤال العاشر: نعم بالإجماع.

وبعد المذاكرة وبما أنه تبين أنه:

أسند للمتهمين المعاون الأول حسين علي عليان وورولا علي

حسن وخديجة حسين مروة وحسن علي عليان وعلي مصطفى عليان ويوسف موسى السبليني أنّه في الأراضي اللبنانية وبتاريخ لم يمر عليه الزمن أقدم المتهم المعاون الأول حسين علي عليان على دسّ الدسائس لدى العدو الإسرائيلي ومعاونته على فوز قواته وعلى إجراء اتصال بالعدو الإسرائيلي وعملائه، وعلى إفشاء معلومات أمنية عسكرية لمصلحة العدو الإسرائيلي كان يجب أن تبقى مكتومة وعلى التدخل بقتل واغتيال بعض قادة المقاومة عمداً من قبل العدو عن طريق تزويده بمعلومات وإرشادات ساعدت وهيَّأت حصول الجريمة وعلى دخول بلاد العدو دون إذن. وأقدمت المتهمة رولا حسن على التعامل مع عملاء العدو الإسرائيلي وعلى إفشاء معلومات لمصلحة العدو كان يجب أن تبقى مكتومة وعلى التدخل في قتل أحد قادة المقاومة عمداً المغدور خضر سلامة ومرافقيه من قبل العدو الإسرائيلي عن طريق تزويده بأرقام ونوع ولون سياراته وأقدم كل من المتهمين خديجة حسين مروة وحسن علي عليان وعلي مصطفى عليان ويوسف موسى السبليني على إجراء اتصال بالعدو الإسرائيلي وعلى إفشاء معلومات لمصلحة العدو الإسرائيلي.

حيث إن المحكمة ترى أن الأدلة متوفرة بحق المتهم المعاون الأول حسين عليان لجهة المواد 275 و 278 و 283/ 284 و 285 عقوبات ويقتضي إدانته بمقتضى هذه المواد المذكورة.

وحيث إنه لم تقم أدلة كافية يرتاح إليها وجدان المحكمة لإدانة المتهم المعاون الأول حسين عليان بمقتضى المادة 549/ 219 عقوبات ويقتضي بالتالي إعلان براءته من هذه المادة المذكورة للشك وعدم كفاية الدليل.

وحيث إن المحكمة ترى أن الأدلة متوفرة بحق المتهمة رولا حسن لجهة التعامل مع عملاء العدو ويقتضي إدانتها بمقتضى المادة 278 عقوبات.

وحيث إنه لم تقم أدلة كافية يرتاح إليها وجدان المحكمة لإدانة المتهمة رولا حسن بمقتضى المادتين 283/ 284 و 549/ 219 عقوبات ويقتضي بالتالي إعلان براءتها من المواد المذكورة للشك وعدم كفاية الدليل.

وحيث إن المحكمة ترى أن الأدلة متوفرة بحق المتهمة خديجة مروة لجهة إجراء اتصال بالعدو الإسرائيلي ويقتضي إدانتها بمقتضى المادة 278 عقوبات.

وحيث إن المحكمة ترى منح المتهمة خديجة مروة أقصى الأسباب المخففة المنصوص عنها في الفقرة الأخيرة من المادة 253 عقوبات بالنظر لكبر سنها.

وحيث إنه لم تقم أدلة كافية يرتاح إليها وجدان المحكمة لإدانة المتهمة خديجة حسين مروة بجرم المادة 283/ 284 عقوبات ويقتضي بالتالي إعلان براءتها من هذه المادة للشك وعدم كفاية الدليل.

وحيث إن المحكمة ترى أن الأدلة متوفرة بحق كل من المتهمين حسن علي عليان وعلي مصطفى عليان ويوسف موسى السبليني ويقتضي إدانة كل منهم بما أسند إليه.

لذلك.

وسنداً للمواد 275 و 278 و 283/ 284 و 285 و 253 عقوبات.

قررت المحكمة بالإجماع:

أولاً: الحكم على المتهم المعاون الأول حسين علي عليان بالإعدام لجهة المادة 275 عقوبات، وبالأشغال الشاقة لمدة خمس عشرة سنة لجهة المادة 278 عقوبات، وبالأشغال الشاقة لمدة عشرين سنة لجهة المادة 283/ 284 عقوبات، وبالحبس مدة سنتين ومليونيْ ليرة لبنانية غرامة لجهة المادة 285 عقوبات، وإدغام هذه العقوبات معاً بحيث تنفذ بحقه العقوبة الأولى وحدها لأنها الأشد أي الإعدام وبإعلان براءته من المادة 549/ 219 عقوبات للشك وعدم كفاية الدليل.

ثانياً: الحكم على المتهمة رولا علي حسن بالأشغال الشاقة لمدة ثلاث سنوات لجهة المادة 278 عقوبات وإنزالها تخفيفاً إلى الأشغال الشاقة لمدة سنتين، وبإعلان براءتها من المادتين 283/ 284 و 549/ 219 عقوبات للشك وعدم كفاية الدليل، وعلى أن تحسب لها مدة التوقيف الاحتياطي.

ثالثاً: الحكم على المتهمة خديجة حسين مروة بالأشغال الشاقة لمدة ثلاث سنوات لجهة المادة 278 عقوبات وإنزالها تخفيفاً إلى سنة واحدة حبساً، وبإعلان براءتها من المادة 283/ 284 عقوبات للشك وعدم كفاية الدليل، وعلى أن تحسب لها مدة التوقيف الاحتياطي.

رابعاً: الحكم على كل من المتهمين حسن علي عليان وعلي مصطفى عليان ويوسف موسى السبليني بالأشغال الشاقة لمدة خمس عشرة سنة لجهة المادة 278 عقوبات وبالأشغال الشاقة لمدة عشرين سنة لجهة المادة 283/ 284 عقوبات وإدغام هاتين العقوبتين معاً بحيث تنفذ بحق كل منهم العقوبة الأشد أي الأشغال الشاقة لمدة عشرين سنة.

خامساً: مصادرة المضبوط.

وتضمينهم الرسوم والمصاريف القانونية.

حكماً غيابياً بحق حسن عليان وعلي عليان ويوسف السبليني، ووجاهياً بحق الآخرين، أعطي وأفهم علناً بحضور مفوض الحكومة وكاتب الضبط والمتهمين المعاون الأول حسين عليان ورولا حسن وخديجة مروة والحرس تحت السلاح بتاريخ صدوره في 28 ـ 1 ـ 2000.

الحكم النهائي:

ويوم الثلاثاء الواقع فيه 24 نيسان (أبريل) من العام 2001 أصدرت محكمة التمييز العسكرية حكمها بحقّ هذه الشبكة العائلية وجاء فيه:

الجمهورية اللبنانية	رقم الأساس 72/ 2000
وزارة الدفاع الوطني	رقم القرار 89/ 2001
محكمة النقض العسكرية	

باسم الشعب اللبناني

انعقدت محكمة النقض العسكرية بالصورة العلنية في الجمهورية اللبنانية والمؤلفة من:

الرئيس: القاضي طربيه رحمه.

المستشار: العميد الركن الطيّار إلياس الخوري.

المستشار: العقيد الركن الطيّار نهاد ذبيان.

المستشار: العقيد الركن شربل برق.

المستشار: العقيد الركن أمين حطيط.

1 ـ للنظر بقضية: المدعى عليه المعاون الأول حسين علي عليّان والدته خديجة مواليد 1962، جنسيته لبناني، مهنته معاون أول في الجيش اللبناني، محل إقامته البياضة، وكيله المحامي رفيق جبور.

2 ـ المدعى عليها رولا علي حسن والدتها عفاف مواليد 1971، جنسيتها لبنانية، مهنتها ربَّة منزل، محل إقامتها الزرارية، وكيلتها المحامية حياة عبد الحق.

3 ـ المدعى عليها خديجة حسين مروة والدتها فاطمة مواليد 1933، جنسيتها لبنانية، مهنتها ربَّة منزل، محل إقامتها البياضة، وكيلها المحامي وفيق جبور.

المسند إليهم أنهم على الأراضي اللبنانية وخارجها وبتاريخ لم يمر عليه الزمن أقدموا: الأول على دسّ الدسائس لدى العدو الإسرائيلي ومعاونته على فوز قواته، وعلى إجراء اتصال بالعدو وعملائه، وعلى إفشاء معلومات أمنية وعسكرية لمصلحة العدو المذكور، كان يجب أن تبقى مكتومة وعلى دخول بلاد هذا العدو بدون إذن. والثانية: على التعامل مع عملاء العدو، والثالثة: على إجراء اتصال بالعدو المحكي عنه، وعلى التدخل بجرائم قتل واغتيال بعض قادة المقاومة عمداً.

وبعد تلاوة قرار النقض والاتهام، والتحقيقات كافة الأولية والابتدائية، وتلك الحاصلة أمام المحكمة العسكرية الدائمة وسائر أوراق ومستندات الدعوى، ووضعها قيد المناقشة العلنية.

وبعد استماع مطالعة مفوض الحكومة الرامية إلى: تجريم وإدانة المتهمين بالجنايات المسندة إلى كل منهم وبالجنحة المسندة إلى المتهم حسين عليان.

وبعد استماع دفاع وكيلة المدعى عليها رولا حسن الرامي إلى إعلان براءة موكلتها من الأفعال الجرمية المسندة إليها واستطراداً إعفاءها من العقاب لوقوعها تحت تأثير حالة الإكراه المادي والمعنوي، واستطراداً منحها أوسع الأسباب التخفيفية والاكتفاء بمدة توقيفها الاحتياطي، وإلى دفاع وكيل المدعى عليه حسين عليان الرامي إلى طلب إبطال التحقيقات الأولية والابتدائية لعلة الإكراه، وإعلان براءة موكله من الجناية المنصوص عنها في المادة 275 عقوبات لعدم اكتمال عناصرها وإلى طلب إعفائه من العقاب لجهة جناية الاتصال بالعدو لوقوعه تحت تأثير حالة الإكراه المادي والمعنوي وإبطال التعقبات لجهة الجناية الملحوظة في المادة 283/ 284 عقوبات لعدم اكتمال عناصرها وإعلان براءته من جنحة دخول إسرائيل بدون إذن، وإعلان براءته من جناية التدخل في القتل لعدم ثبوتها وعدم كفاية الدليل، ولجهة المتهمة خديجة طلب إعلان براءتها مما أسند إليها.

طرحت الأسئلة التالية وهي:

أولاً: هل أنه: على الأراضي اللبنانية وخارجها وبتاريخ لم يمر عليه الزمن أقدم:

1 ـ المدعى عليه: المعاون الأول حسين علي عليان.

أ ـ على دسّ الدسائس لدى العدو الإسرائيلي ومعاونته على فوز قواته.

ب ـ على إجراء اتصال بالعدو الإسرائيلي وعملائه.

ج ـ على إفشاء معلومات أمنية وعسكرية لمصلحة العدو الإسرائيلي كان يجب أن تبقى مكتومة.

د ـ على التدخل بجرائم قتل واغتيال بعض قادة المقاومة الوطنية.

هـ ـ على دخول بلاد العدو دون إذن.

2 ـ المدعى عليها: رولا علي حسن.

أ ـ على التعامل مع عملاء العدو الإسرائيلي.

ب ـ على إفشاء معلومات لمصلحة العدو الإسرائيلي كان يجب أن تبقى مكتومة.

ج ـ على التدخل في قتل أحد قادة المقاومة عمداً المغدور خضر سلامة ومرافقيه من قبل العدو عن طريق تزويده بأرقام ونوع ولون سياراته.

3 ـ المدعى عليها: خديجة حسين مروَّة.

أ ـ على إجراء اتصال بالعدو الإسرائيلي.

ب ـ على إفشاء معلومات لمصلحة العدو الإسرائيلي.

ثانياً: ... ... **ثالثاً**: ... ...

رابعاً: هل أن في القضية أسباباً توجب امتناع الإسناد (أسباب التبرير)؟.

خامساً: هل أن في القضية أعذاراً محلة؟.

سادساً: هل أن في القضية ظروفاً مشددة؟.

سابعاً: هل أن في القضية أعذاراً مخففة؟.

ثامناً: هل أن في القضية ظروفاً مخففة؟.

وبعد الإجابة على الأسئلة المبينة آنفاً كما يلي:

على السؤال الأول:

1 ـ المدعى عليه: المعاون الأول حسين علي عليّان:

أ ـ كلا بالإجماع. ب ـ نعم بالإجماع. ج ـ كلا بالإجماع. د ـ نعم بالأكثرية. هـ ـ نعم بالإجماع.

2 ـ المدعى عليها: رولا علي حسن:

أ ـ نعم بالإجماع. ب ـ كلا بالإجماع. ج ـ كلا بالإجماع.

3 ـ المدعى عليها: خديجة حسن مروّة:

أ ـ نعم بالإجماع. ب ـ كلا بالإجماع.

على السؤال الثاني: ... ... على السؤال الثالث: ... ...

على السؤال الرابع: كلا بالإجماع.

على السؤال الخامس: كلا بالإجماع.

على السؤال السادس: كلا بالإجماع.

على السؤال السابع: كلا بالإجماع.

على السؤال الثامن: كلا بالإجماع.

على السؤال التاسع: نعم بالإجماع باستثناء المتهم حسين عليان.

وبعد المذاكرة، تبين أنه أسند إلى المتهمين المذكورين إقدامهم على الأراضي اللبنانية وخارجها وبتاريخ لم يمر عليه الزمن، الأول على دسّ الدسائس لدى العدو الإسرائيلي ومعاونته على فوز قواته، وعلى إجراء اتصال بالعدو الإسرائيلي وعملائه، وعلى إفشاء معلومات أمنية وعسكرية لمصلحة العدو كان يجب أن تبقى مكتومة، وعلى التدخل بجرائم قتل واغتيال بعض قادة المقاومة الوطنية وعلى دخول بلاد العدو المحكي عنه دون إذن، والثانية على التعامل مع العدو الإسرائيلي، والثالثة على إجراء اتصال بالعدو المذكور.

بناءًا عليه،

وحيث إن هذه المحكمة رأت أن عناصر الجناية المنصوص والمعاقب عليها في المادة 275، عقوبات، غير مكتملة في هذه القضية باعتبار أن المعلومات المفشاة، لم يكن من شأنها فوز قوات العدو في سياق عملية جرمية.

وحيث إن عناصر الجناية الملحوظة في المادة 283 عقوبات غير مكتملة بدورها لأن هذه الجناية تفترض الحصول على المعلومات بالدخول أو بمحاولة الدخول إلى مكان محظور، كما تفترض بقاء تلك المعلومات مكتومة حرصاً على سلامة الدولة، الأمران غير المتوفرين في هذه الدعوى.

وحيث إن هذه المحكمة بأكثرية قضاتها وبما لها من سلطان تقديري مطلق، اقتنعت بأن عناصر جناية التدخل في القتل المسندة إلى المتهم حسين عليان، مكتملة وأن الأدلة على ارتكابه لها، متوفرة باعترافيه في مرحلتي التحقيق الأولي والابتدائي وبمجمل التحقيقات وأن تدخله لم يكن من النوع الذي لولاه لما ارتكبت أعمال القتل

حيال بعض رجال المقاومة الوطنية بل من قبيل المساعدة في تنفيذ تلك الأعمال.

وحيث إن جرمي اتصاله بالعدو وعملائه ودخوله بلاد العدو دون إذن مكتملا العناصر وثابتان باعترافيه المشار إليهما.

وحيث إنها رأت أن جناية التدخل في القتل المسندة إلى المتهمة رولا حسن، غير مكتملة العناصر، لعدم ثبوت علمها لأن الأفعال التي طلب إليها زوجها القيام بها ترمي إلى تسهيل القتل.

وحيث إن جناية اتصالها واتصال المتهمة خديجة مروّة بعملاء العدو مكتملة العناصر وثابتة بحق كل منهما.

وحيث إنها رأت أن أفعال المتهمين، قد رافقتها ظروف مخففة بالنظر لعلاقة كل منهما بالمتهم حسين عليّان.

وحيث إن أحد مستشاري هذه المحكمة العقيد الركن الطيّار نهاد ذبيان خالف رأي الأكثرية معتبراً أنه لولا تدخل المتهم لما ارْتُكِبت جرائم القتل وبالتالي فإن العقوبة المستحقة هي الإعدام.

لذلك.

وسنداً للمواد: 549 معطوفة على المادتين 219 و 220 و 278 و 285 و 253 و 205 عقوبات.

قررت المحكمة بالأكثرية:

أولاً: إبطال التعقبات بحق المتهم المعاون الأول حسين علي عليان في الجنايتين المنصوص والمعاقب عليها في المادتين: 275 و 283 عقوبات، لعدم اكتمال عناصرهما الجرمية، وتجريمه بجناية التدخل في القتل العمد، وإنزال عقوبة الإعدام به وتخفيضها للتدخل

إلى الأشغال الشاقة المؤبَّدة، وتجريمه بجناية الاتصال بالعدو الإسرائيلي وبعملائه وإنزاله عقوبة الأشغال الشاقة به لمدة عشر سنوات، وإدانته بجنحة دخول إسرائيل بدون إذن وحبسه مدة سنتين وتغريمه مليون ليرة لبنانية، وإدغام هذه العقوبات بحيث تنفّذ به العقوبة الأولى وحدها باعتبارها الأشدّ أي الأشغال الشاقة المؤبدة.

ثانياً: إبطال التعقبات بحق المتهمة رولا علي حسن من جناية التدخل في القتل لعدم اكتمال عناصرها الجرمية، كذلك إبطال التعقبات بحقها من جناية إفشاء المعلومات التي ينبغي أن تبقى مكتومة حرصاً على سلامة الدولة لعدم اكتمال عناصرها الجرمية، وتجريمها بجناية الاتصال بعملاء العدو الإسرائيلي وإنزال عقوبة الأشغال الشاقة بها لمدة ثلاث سنوات وتنزيلها تخفيفاً إلى الأشغال الشاقة لمدة سنة ونصف السنة.

ثالثاً: إبطال التعقبات بحق المتهمة خديجة حسين مروة من جناية إفشاء المعلومات لعدم اكتمال عناصرها، وتجريمها بجناية الاتصال بعملاء العدو، وإنزال عقوبة الأشغال الشاقة بها لمدة ثلاث سنوات وإبدالها تخفيفاً بالحبس لمدة سنة واحدة، واحتساب مدة توقيف المحكوم عليهم الاحتياطي.

وتضمينهم الرسوم والمصاريف القانونية، حكماً وجاهياً أعطي وأفهم علناً بحضور مفوض الحكومة وكاتب الضبط والحرس تحت السلاح وبحضور المحكوم عليهم بتاريخ صدوره في الرابع والعشرين من شهر نيسان سنة ألفين وواحد.

ريبيكا سومر(*)
(Rebbeca Soomer
(1892 -   )

هي من أبرز نساء الجاسوسية الألمانية التي تخصصت في تهريب الخونة الفرنسيين إلى فرنسا.

ولدت ريبيكا في العام 1892 في فرنكفورت في بيئة رفيعة ودرست في جامعة فريبورغ، ولكنها هجرت عائلتها ودروسها لتلهو وتعب من بحر اللذائذ الزاخر. وتعرفت في العام 1914، على يد شاب يدعى كونيغر كان موظفاً في دائرة التجسس الألمانية، بسيغمولر. وأدركت هذه أنها تستطيع استخدام الفتاة والإفادة منها فائدة عظمى.

وأصبحت ريبيكا سومر منذ العام 1915 رئيسة منطقة جاسوسية يعاونها كونيغر وزميل له يدعى كارل ليسنمنغر. ونظم الثلاثة شبكة تجسس واستخدموا طائفة من المجندين الفرنسيين الهاربين من الجندية. وكان كونيغر مكلفاً توظيف العملاء والأعوان. وأقام في جنيف حيث فتح مصنعاً للأحذية في شارع بريفو ـ مارتن. وبث عيونه وأرصاده على طول الحدود فلا يهرب جندي حتى تسارع العصابة إلى

(*) **المرجع**: جان بردان «جاسوسات ألمانيات»... ص 136 ـ 143.

العناية به وتوظيفه. وبعد فحصه وعجم عوده على يد اختصاصي يدعى ميشيل كايرباريوز، يعرض عليه، إذا أظهر مقدرة وذكاء، الاشتغال بالتجسس. فإذا قبل أدخله ليسنمنغر إلى مدرسة الجاسوسية في فريبورغ ـ آن ـ بريسغو وأعاده بعد شهر من التدريب والتعليم إلى جنيف لتستخدمه الرو كين (أي ريبيكا سومر).

كان عدد الفرنسيين الذي اشتغلوا مع ريبيكا سومر يقارب الستين. وزعمت الجاسوسة أنها استخدمت مائتين وسبعة عشر شخصاً ضد فرنسا ومائة وثمانية ضد إيطاليا. وقد فضحت دائرة المكافحة الفرنسية معظم هؤلاء الأشقياء فإذا هم طائفة من حثالة الناس والرعاع، منهم الإخوان جان وماريوس ريبير، وايلي مورا، وغاسبار، وبيران، وفينيون، وموره، وشابيرون والمرأتان غارنيه وشادك. كانت دائرة الاستعلامات الفرنسية تعرف قهوة أمودرو التي كانت ملتقى كونيغر وأعوانه وطالبي الانتساب إلى دائرته. ولم يخف عليها أن ميشيل كايرباريوز الخبير المشهور بشؤون التجسس والرقابة، فتح مع عشيقته «بويغله» دكاناً للبقالة على رصيف حي «شيفال بلان» كانت ريبيكا تتردد عليه من حين إلى آخر. ولكن كان من العسير إحصاء جميع حركات هذه العصبة الكبيرة.

وقد اعتقلت بعض النساء التابعات للعصبة عند مرورهن بفرنسا، ولكن مهرة أفرادها استطاعوا أن ينجوا من قبضة مكافحي الجاسوسية، وظلوا في مأمن إلى أن أخبر جاسوس «يلعب على الحبلين» لقبه الألمان بـ «صاب» وكان اسمه الحقيقي كوربو وهو هارب من الجيش الفرنسي، الدائرة السرية الفرنسية بأن جاسوساً سيجتاز الحدود الفرنسية في السابع عشر من نيسان (أبريل) 1918 بطريق بلغارد.

كان الخبر صحيحاً وأدى إلى اعتقال الجاسوس ايلي مورا.

وأكره إيلي على الاعتراف بأسماء شركائه فقبض الفرنسيون على أيفون شادك وآن غارنيه، وأخبروا الشرطة السويسريةُ بأمر الباقين لتعتقلهم.

حكم على لوي اميل غاسبار بالإعدام وكذلك على كايرباريوز ولكن غيابياً لأنه بقي في سويسرا ونجا من قبضة الشرطة وتابع عمله في خدمة الألمان. واستطاع ايلي مورا المحكوم بالسجن مدى الحياة أن يهرب من محبسه. وفي العام 1942 كان في مرسيليا يتجسس لحساب الألمان ولشرطة فيشي. أما آن غارنيه وايفون شادك فقد حكم عليهما بالنفي إلى منطقة حصينة ثم أفرج عنهما. واشتغلت غارنيه للفرنسيين محاولة أن تكفر عن خيانتها. ولكن ايفون شادك عادت إلى خدمة الألمان وماتت في العام 1940 وهي تخدمهم.

غدت ريبيكا سومر في العام 1918 بفضل العصبة التي ألفتها الساعد الأيمن لآن ماري ليسر والكولونيل نيكولاي. وكان لها أسلوب ممتاز في تهريب الخونة الفرنسيين إلى فرنسا. من ذلك أنها كانت تقدم لهم أوراق هوية بأسماء جنود فرنسيين ماتوا في ألمانيا ولم يخبر ذووهم بوفاتهم، وتطلعهم بمعونة مدرسة الجاسوسية التابعة لها على أسماء الفرق التي كان المتوفون ينتمون إليها والظروف التي أدت إلى وقوعهم في الأسر، ثم تدسهم في قافلة من الأسرى العائدين إلى بلادهم، أو ترسلهم إلى فرنسا على أنهم هاربون من الأسر...

التقت ريبيكا في السار «لابوفيه» وهي زوجة كولونيل فرنسي، فجذبتها إلى صفوف الجاسوسية الألمانية وكلفتها مهمة الدعوة للقضية الألمانية. وأصبحت هذه المرأة في العامين 1943 و 1944 مديرة دائرة الاستعلامات الألمانية في طولون وهيار، وأكبر عون للغستابو على الشاطىء اللازوردي.

ريتا كاتس(*)
(Ritta Katts)
(- 1964)

ريتا كاتس (39 عاماً) يهودية عراقية. والدها أُعدم في بغداد بعد إدانته بتهمة التجسس، فقررت الانتقام. وبعدما ترعرعت وتلقت ثقافتها في إسرائيل، سافرت إلى الولايات المتحدة وراحت تعمل في مكاتب التحقيق والبحث عن التنظيمات الإسلامية هناك. واخترقت عشرات التنظيمات وسجلت أحاديث سرية للعديد من المسؤولين فيها، وسرقت القمامة من بعضها الآخر واكتشفت فيها وثائق مهمة. وسلّمت كل ما لديها من معلومات للاستخبارات، وعندما تقاعدت كتبت كتاباً روت فيه قصتها كاملة.

«صائدة الإرهابيين»، هذا هو أحب الأسماء إليها. ومن شدّة إعجابها به وبنفسها اختارت أن يكون أيضاً عنواناً للكتاب الذي أصدرته أخيراً، في كل من واشنطن (الطبعة الإنكليزية) وتل أبيب (الطبعة العبرية). وتنتظر أن يعود عليها هذا الكتاب بأرباح طائلة، إذ

(*) **المرجع**: أمال شحادة في مقال لها نشر في مجلة «الوسط». العدد (597)، في 7 تموز (يوليو) 2003 ص 4 ـ 6. والعدد (599) في 21 تموز (يوليو) 2003، ص 8 ـ 9.

أن كل أسباب النجاح فيه متوافرة. فهو يتحدث عن مغامرات تجسسية. وموضوعه «الإرهاب الإسلامي» وهو أكثر المواضيع جاذبية في الغرب حالياً، وقصته تظهر المسلمين «إرهابيين أغبياء» تستطيع امرأة يهودية واحدة أن تجعلهم أضحوكة، وفوق كل هذا توجه خصومها إلى المحكمة مطالبينها بدفع تعويضات لهم بقيمة 80 مليون دولار. والمحاكم في هذه الحال هي أفضل وسيلة دعائية لنشر الكتاب وتعظيم شهرة صاحبته.

في البداية خشيت المرأة الإسرائيلية من كشف هويتها وشخصيتها، فقررت نشر الكتاب باسم «أنونيموس» (أي مجهولة). لكن خصومها الذين توجهوا إلى المحكمة أجبروها على الكشف عن اسمها الحقيقي، ففعلت ذلك بشعور من التحدي. وقالت، «ترددت كثيراً قبل أن أقبل العرض بكتابة هذا الكتاب. ولكنني حسمت أمري عندما اقتنعت بضرورة إرساله أيضاً إلى الشعب الأميركي. فأنا أعرف عن الأصوليين الإسلاميين أكثر مما يعرفون هم عن أنفسهم. ومهم جداً أن يعرف الأميركيون ما الذي يدور تحت أنوفهم. فالأصولية الإسلامية قائمة ليس فقط في أفغانستان، بل هنا في مساجد الولايات المتحدة. هنا يولد ويترعرع جيل جديد من «الجهاد الإسلامي» الهادف إلى ضرب أميركا من داخلها. جيل جديد من الشباب الذي ينشأ على ثقافة الكره والحقد ليس فقط لليهود والمسيحيين، بل أيضاً للأميركيين. إنني حذرة اليوم بعض الشيء في تحركاتي، ولكنني لا أخافهم. لقد كان هدفهم من كشف هويتي بالأساس، حتى يعرفني بقية المسلمين في المساجد والتنظيمات المختلفة فلا يعودون يستقبلونني ويثقون بي. لكن هذا الأمر سخيف. فحتى بعدما كشفوا هويتي، ما زال العديد من المسلمين يتصلون بي، وتوجد لدي

الوسائل المناسبة لمعرفة ماذا يدور لديهم».

اسمها ريتا كاتس. ولدت سنة 1964 في البصرة لعائلة عراقية يهودية ثرية جداً. والدها فؤاد جباي، كان تاجراً معروفاً ومقرباً من السلطة في عهد نوري السعيد وغيره. لكن مكانته تدهورت بعدما تسلّم حزب البعث الحكم. وفي سنة 1969، كان والدها واحداً من تسعة يهود عراقيين قام النظام بإعدامهم شنقاً، بعد إدانتهم بتهمة التجسس لمصلحة إسرائيل في محكمة عسكرية ميدانية.

ومع أن ريتا لم تحضر عملية الشنق وتبعاتها حيث كان عمرها خمس سنوات فقط في تلك الفترة، إلا أنها تقدم وصفاً دقيقاً وغير عادي للعملية: «كانت عملية الشنق في عز الظهيرة وساد جو في المدينة وساحتها المركزية وكأنه عيد قومي، يحضره نصف مليون من الرداحين. لقد أعفي الناس من دفع ثمن التذاكر في الباصات والقطارات فتقاطروا من جميع أنحاء البلاد باتجاه بغداد لمشاهدة مراسم القتل في الساحة العامة المركزية. الأعلام ترفرف. والموسيقى تصدح. والراقصات يتمايلن بخصورهن، تحت الجثث، بينما حرص التلفزيون على تغطية الحدث وإعادة بثه مرات عدة. فقط في الرابعة عصراً أتيح للجمهور أن يتفرق، وسمحوا له بسحب الجثث وجرجرتها في الشوارع».

ويتضح أن ريتا لم تكن تعرف شيئاً عن والدها إلا من خلال الهمس في البداية ثم استقرت الأوضاع فعرفت قصته من بعض المعارف والأصدقاء. فتولد لديها شعور قوي بالانتقام، خصوصاً عندما أصبحت في سن التجنيد في الجيش. فأخبرتها والدتها ماذا حدث لهم بعد مقتل الوالد: الهرب عبر جبال كردستان على رغم

المخاطر ثم التسلل إلى الأراضي الإيرانية ومن هناك في رحلة عذاب إلى إسرائيل.

وتقول رحلة العذاب لأنها افتقدت إلى الحياة الرغيدة التي عاشتها في البصرة وبغداد. فقد كانت حياتها عادية في إسرائيل. سكنت في مدينة بات يام مع والدتها وأخوتها، مثل معظم المهاجرين من العراق في تلك الفترة. غالبية الأملاك بقيت في مكانها. والبيت لم يستطيعوا بيعه خوفاً من اكتشاف مخطط الهرب. الأكراد الذين قاموا بتهريبهم حصلوا على مبلغ من المال كبير نسبياً. وفي إسرائيل لم يجدوا من يعيدهم إلى حياة الرخاء والثراء.

الصدمة

لم تجد ريتا في إسرائيل ما يضمن لها المستقبل الذي تطمح إليه. كانت حياتها روتينية: المدرسة، الجيش، صديق، دراسة جامعية، وظيفة.

وخلال دراستها وبحثها عثرت على مقالات منشورة عن والدها وقصة إعدامه. فرغبت في معرفة المزيد. وصلت إلى تقرير داخلي كتبه أحد عملاء «الموساد» في الخارج يزعم فيه أن والدها كان بريئاً من الاتهامات التي أعدم على أساسها، وأن المحاكمة كانت صورية وبعيدة عن النزاهة.

ضايقها التقرير مرتين، أولاً، لأنه لم يعتبر والدها ذلك «اليهودي الصهيوني البطل الذي عمل في خدمة الدولة العبرية قبل أن يصل إليها، وذلك في ظروف قاسية للغاية أدت إلى فقدانه حياته»، وثانياً لأن والدها تعرض للإهانة البشعة حتى بعد إعدامه. لكن هذا

الضيق تضاعف، عندما شعرت أن أحداً في إسرائيل لا يكترث لقصتها أو مشاعرها. فصدمت من هذا الإهمال واعتبرته إهانة أخرى. فقررت المغادرة، وتوجهت إلى الولايات المتحدة، بواسطة أحد أصدقاء العائلة من العراقيين.

كان هدفها الأول في الولايات المتحدة الحصول على وظيفة تضمن لها العيش والسكن. فقام أصدقاء والدها من ذوي النفوذ في المؤسسات اليهودية بتوظيفها في معهد دراسات الشرق الأوسط في واشنطن. وهناك عرضت خدماتها المميزة. فهي تتقن اللغة العربية باللهجة العراقية. وتخصصها هو الاستشراق في الشرق الأوسط، وهو موضوع يتيح لها الوصول إلى الكثير من المعلومات القيمة.

لكن الحظ كان صاحب الدور الأكبر في نجاحها في اختبار الوظيفة. فقد أعطوها تقريراً باللغة الإنكليزية عن «صندوق الأرض المقدسة» في الولايات المتحدة وطلبوا منها أن تحلل مضمونه. ولأنها لم تكن تثق بلغتها الإنكليزية كما يجب، اتصلت بإدارة الصندوق وطلبت التقرير باللغة العربية. وحصلت عليه. فوجدت أن التقرير بالعربية أكبر من التقرير بالإنكليزية. فراحت تقارن بين النصين. ووجدت في النص العربي قائمة بأسماء جمعيات كثيرة ذات علاقة. وتوصلت إلى قناعة بأن إخفاء هذه القائمة بالنص الإنكليزي لم يكن صدفة وأن وراءه أهدافاً سياسية. وقررت أن العلاقات بين الصندوق وبين الجمعيات مشبوهة. فحملتها وتوجهت بها إلى الاستخبارات الأميركية، وهناك طلبوا منها مزيداً من المعلومات. فراحت تحقق وتبحث. وأصبحت متطوعة في خدمة الاستخبارات. وفي الوقت نفسه أخذت تعرض خدماتها على دوائر بحث مدنية وجامعية وصحف أميركية مثل «نيويورك تايمز» و «وول ستريت جورنال».

وارتفعت أسهمها بشكل خاص في الولايات المتحدة بعد التفجيرات في نيويورك وواشنطن في 11 أيلول/ سبتمبر 2001، إذ توجهت إليها وزارة المال الأميركية طالبة خدماتها. وتقول في هذا الخصوص: «يؤسفني أن وزارة المال هي التي أخذت على عاتقها التحقيق الجدي في الموضوع وليس الاستخبارات، فقد كانوا يفتشون عن طرق تمويل التنظيمات الإرهابية. ووجدوني عوناً لهم. فيما الاستخبارات بحثت عن الجانب الأمني البحت. ومع ذلك، تعاونت الاستخبارات مع وزارة المال فيما بعد وأصبح نشاطهما مشتركاً».

الاختراق

وتروي ريتا كاتس كيف بدأت نشاطها التجسسي المباشر واخترقت تلك التنظيمات، فكتبت: «أرسلوني لحضور مؤتمر «جمعية فلسطين الإسلامية» في شيكاغو في أواخر سنة 1999، والجمعية توحد تحت سقف واحد بضعة صناديق وجمعيات خيرية، تشكل غطاء للنشاط الإرهابي. فقمت بارتداء الجلباب الإسلامي الأسود، حتى لا يكتشفوا هويتي الحقيقية كيهودية وإسرائيلية سابقة. وكنت حاملاً. وفي هذا صفة أخرى تساعد على الاختراق».

«أخفيت جهاز التسجيل تحت الجلباب الفضفاض، إذ طلبوا مني أن أقوم بالتقاط أكبر حجم من الأصوات والمعلومات لمصلحة الـ «اف بي اي» (مكتب التحقيقات الفيديرالية الأميركية). وصلت إلى فندق «رمادا بلازا» ظهر يوم الجمعة. عبرت حاجز الشرطة وانخرطت في صفوف المدعوين. ثم توجهت إلى كشك لفت نظري وقد كتب عليه الشعار «مؤسسة الأرض المقدسة».

تقدم مني شاب سمين ذو بشرة بيضاء وسألني بالعربية إن كنت

أعرف هذا التنظيم. كان بداخلي يصرخ صوت مجلجل يقول إنني أعرف عنهم أكثر مما يعرفون عن أنفسهم. لكنني ضبطت نفسي وحاولت الظهور ببراءة فقلت: «أعرف القليل». فسألني: لماذا تهتمين أنت العراقية بالقضية الفلسطينية؟ فقلت: «كلنا مسلمون. والجهاد لا يعرف حدوداً قومية».

أحب كل كلمة تفوهت بها. وأضفت: «إضافة إلى ذلك، فإن زوجي فلسطيني». وكان بادياً عليه أنه ليس أكثر فلسطينية من زوجي، فعلاً. قام بتعريفي على تنظيمه وشرح لي أهمية إرسال المال إلى فلسطين. وروى أن أحد أهم مشاريع الجمعية هو تبنّي الأطفال. ففي مقابل 50 دولاراً في الشهر يمكن لي أن أتبنّى طفلاً فلسطينياً حسب اختياري: «والآن بالذات عشية شهر رمضان المبارك، توجد أهمية خاصة لهذا المال، كي يستقبل الأطفال العيد ببسمة وفرحة».

شعرت أن شيئاً ما يتم طبخه هنا: «هل تستطيع أن تخبرني بالمزيد من المعلومات»؟ سألته. فراح يخبرني. وأخرج ملفاً يحتوي على صور أطفال أيتام، كل واحدة مرفقة بمعلومات عن عمر الطفل ومكان سكنه وكيف أصبح يتيماً. أمعنت النظر في الملف. ووجدت أن القسم الأكبر منهم هم أبناء الشهداء: «الإرهابيون الانتحاريون وما شابه». ففهمت أن هذا المشروع لا يهدف إلا لتشجيع الانتحاريين وهم في طريقهم إلى الجنة: لا تخافوا على أولادكم، فهناك من يتولى أمر معيشتهم من بعدكم».

ـ أتعرف ـ قلت للشاب ـ لا شك أن دعم طفل فلسطيني هو هدف نبيل. ولكنني أريد أن أذهب إلى النهاية. أن أتبنى أحد أبناء الشهداء».

بدا عليه الفرح الشديد. ولكنه قطب حاجبيه وقال فجأة: «قد يكون في هذا مشكلة يا أختي العزيزة، أنت تفهمين. لا يوجد عندي شيء كهذا الآن. فهم أول الأولاد الذين يتم تبنّيهم». فأجبته بعناد: «أنا أم أولاد أيضاً. وأنا أعرف ما معنى اليتيم. ولم أكذب في هذا. وقلت له إنني سأكون مرتاحة أكثر إذا نجح في ترتيب طفل من أبناء الشهداء».

«وحقق هذا العناد هدفه. فالرجل وثق بي. واهتم بأن أبقى في المؤتمر حتى نهايته لكي يقوم بتدبير شيء ما خاص. في هذه المرحلة بدأت أفهم ما هو هدف هذا المؤتمر. لقد جرت المحاضرة المركزية في قاعة المؤتمرات الكبرى. لكن الأمور الأهم قيلت في الحلقات التي عقدت داخل الغرف وليس في المحاضرات».

وراحت كاتس تروي كيف تجمع المشاركون في القاعة المركزية لإقامة صلاة الجمعة، وكيف كادت تختنق ويغمى عليها بسبب الازدحام. وإنها خشيت فعلاً أن تغيب عن الوعي، فيكتشفون جهاز التسجيل وينفضح أمرها. لذلك لم تسمح أن يغمى عليها!

البحث في القمامة

وتروي ريتا كاتس في كتابها المزيد عن مغامراتها لكشف «الدور الإرهابي» للتنظيمات الإسلامية في الولايات المتحدة، كما تقول، وتتباهى بأن ما نشر في وسائل الإعلام الأميركية ضد خليجيين يستند إلى «المعلومات القيّمة» التي كشفتها هي. وتقول إنها، خلال تحقيقاتها، وجدت أن إحدى العائلات الخليجية الغنيّة أنشأت مجموعة من الشركات أو الجمعيات في عمارة واحدة ضخمة في إحدى المدن الأميركية، فقررت أن تؤكد هذه المعلومات فاختارت أن تنظم

مجموعة شبان مع شاحنة، جمعوا كل النفايات من تلك العمارة في إحدى الليالي. وراحت تفتش فيها. فوجدت كمية مذهلة من الأوراق التي تحتوي على معلومات، قامت بتصنيفها، فدلّت أولاً على صحة المعلومات بأن عائلة واحدة تقف وراء كل تلك الشركات وأنها مرتبطة بشكل مباشر أو غير مباشر بالإرهاب.

وراحت تتحدث عن متعتها الشخصية وهي تشاهد في التلفزيون ثمار عملها: «فجأة، ترى شخصيات بارزة كانت حتى تلك اللحظة شخصيات مرموقة، تصطدم بها في البيت الأبيض وفي الكونغرس وفي العديد من المناسبات الرسمية، أناس محترمون لكل واحد منهم البوم صور كامل مع عشرات المسؤولين، فجأة تراهم يساقون إلى المعتقلات».

وتزعم ريتا أنها حصلت على معلومات تفيد بأن قيمة الأموال التي تم تحويلها إلى الفلسطينيين تزيد عن بليوني دولار «بهدف دعم الإرهاب». وتقول إن هناك منظمة باسم SAAR، تقود كل الجمعيات الأخرى. موازنة الدعم الذي قدمته بلغت 7,1 بليون دولار. وتقول إن هذه المنظمة ضبطت، بفضل جهودها، وهي تبيض 9 ملايين دولار.

كيف؟

في العام 2000 أعلنت المنظمة المذكورة في البورصة عن نيتها إغلاق إحدى شركاتها. وكانت لهذه الشركة أسهم بقيمة 11 مليون دولار. فعرضت الشركة للبيع. وتم شراؤها بقيمة مليوني دولار. وبعد التحقيق الذي قامت به تبين أن الشركة التي اشترت تلك الشركة، هي أيضاً تابعة للمجمّع نفسه. وبهذه الطريقة تكون قد وجدت طريقة شرعية للمبلغ المذكور (9 ملايين دولار). وهذا المبلغ يستطيعون التصرف به على هواهم... وهكذا.

وحسب ريتا كاتس، فإن معظم المواد التي تستند إليها وزارة المال ودائرة الجمارك الأميركية ضد التنظيمات الإسلامية في المحاكم مواد قامت بتجميعها هي لهم. وتقول إن الشرطة الأميركية مقتنعة تماماً بهذه الوثائق، والدليل إنها قدمتها للمحكمة كي تصدر أوامر التفتيش والاعتقال وإنه بفضلها تم تفتيش مقرات مائة جمعية وتنظيم إسلامي أميركي على الأقل، وفتحت ملفات تحقيق ضدها واعتقل عدد من المسؤولين فيها.

المهمة الفاشلة

«البطولات» التي تتحدث عنها ريتا كاتس، كثيرة، ولكن هناك الكثير من المهمات التي كانت تطمح إلى تحقيقها، ربما للانتقام من بعض الشخصيات، تدونها كفشل كبير في مهمتها، أبرزها عدم قدرتها على منع مفتي القدس والأراضي المقدسة الشيخ عكرمة صبري من المشاركة في مؤتمر الجمعيات الإسلامية في الولايات المتحدة.

فقد خصصت كاتس وقتاً من عملها لمراقبة الشيخ عكرمة صبري بعد إدراجه على قائمة الفلسطينيين الداعمين لـ «الإرهاب» والمحرضين على أميركا وإسرائيل، بعدما اعتبر الأميركيون والإسرائيليون بالطبع أن تصريحاته تشكل تحريضاً بالغ الخطورة وتشجيعاً على العمليات الاستشهادية.

وذكرت كاتس إنها وثقت خطابات مفتي القدس وتصريحاته التي كان يدلي بها للصحافة الفلسطينية، ومنها مقابلة مع التلفزيون الفلسطيني في 24 آب (أغسطس) 2001، قبل أسبوعين من أحداث 11 أيلول (سبتمبر). ونقلت إلى الاستخبارات الأميركية أقواله: «الله ينصر الأقصى. الله سيقضي على الاحتلال ومساعديه ومتعاونيه.

وسيقضي على أميركا ومساعديها والمتعاونين معها وعلى بريطانيا أيضاً والله سينصر المسلمين»، ثم في حديث آخر ذكرت أن تصريحاته كانت واضحة لدعمه «حماس» والعمليات الاستشهادية، وأهمية أن يصبح كل طفل فلسطيني استشهادياً.

هذه التصريحات حولت الشيخ عكرمة صبري إلى هدف لها وللاستخبارات الأميركية. وتقول إن إسرائيل اعتقلته بعد دخوله إلى لبنان بشكل غير قانوني ولقائه قادة «حزب الله»، الأمر الذي يعزز الشكوك حياله وخطورة مواقفه، باعتبار أن كل تصريح له يتحول إلى فتوى بنظر المسلمين، كما تقول.

وكان الشيخ عكرمة صبري خطط للمشاركة في المؤتمر السنوي الـ 36 للجمعية الإسلامية في شمال أميركا في تموز (يوليو) 2001، وقبل هذا الموعد بدأت كاتس محاولاتها للحصول على وثائق ومستندات تثبت للأميركيين خطورة نشاط هذا الرجل لمنعه من المشاركة في المؤتمر. ولتحقيق هذه المهمة ارتقت بعملها ليتجند إلى جانبها عدد من الشبان أصحاب الكفاءات للعمل في مجال التحقيقات. فتجند أكثر من عشرة لجمع المعلومات عن الشيخ عكرمة صبري، وحصلت هي بنفسها على تصريح له كان أدلى به للإذاعة الفلسطينية في العام 1997 واقتبست منه: «أَبِدْ يا الله أميركا، فهي الأخرى محكومة من قبل الصهاينة اليهود. والله سيحول البيت الأبيض إلى بيت أسود. لقد قال المسلمون لبريطانيا وفرنسا وكل الكافرين أن القدس عربية فالله ينتقم...».

هذه العبارات التي دونت في التقرير الذي وصل إلى الاستخبارات الأميركية وغيرها كانت مقدمة لوضع اسم عكرمة صبري

على لائحة الشخصيات المسلمة التي ستدرجها أميركا ضمن قائمة المطلوبين. وبعد مراجعة الأميركيين لملف عكرمة صبري جرى نقاش في كيفية التعامل معه، ما بين منعه من المشاركة في المؤتمر أو السماح له بذلك، ومراقبته عن كثب، إلى أن تقرر عدم اتخاذ أية إجراءات ضده، نظراً إلى الصفة التي يحملها «المفتي الأكبر في القدس والديار المقدسة»، ولمنع زيادة الوضع توتراً.

ولا يمكن لقارىء هذا الكتاب إلا أن يشعر بأن مؤلفته تعاني من نزعة ذاتية بعيدة جداً عن الموضوعية والبحث العلمي. فهي لا تحقق بالشكل العلمي الذي يوصلها إلى نتائج واقعية دقيقة، بل وضعت من البداية نتيجة التحقيق، وراحت تعمل كل ما في وسعها لإثبات أن تلك النتيجة صحيحة. فقررت من البداية أن جميع الحركات الإسلامية في العالم هي واحدة وتعتبر جزءاً لا يتجزأ من تنظيم «الإخوان المسلمين» الذي تأسس في مصر سنة 1928. وقررت من البداية أيضاً أن جميع «الإخوان المسلمين» يقفون وراء «الإرهاب الإسلامي»، وأنه لا يوجد أي فرق بين تنظيم «القاعدة» الذي يقوده أسامة بن لادن وبين «حزب الله» اللبناني أو «حماس» أو «الجهاد الإسلامي» في فلسطين. وتصل إلى الاستنتاج بأن كل الجمعيات الخيرية الإسلامية والصناديق الإسلامية في الولايات المتحدة وغيرها من دول العالم هي عبارة عن بنوك تزود «حماس» و «الجهاد» و «القاعدة» وغيرها بالمال، لكي تنجح في تنفيذ عملياتها الإرهابية. وهو، الموقف الذي يردده المسؤولون السياسيون والأمنيون في إسرائيل ويحاولون ترويجه في العالم.

ثم تنسب كاتس لنفسها حق الكشف عن معظم المعلومات المتوافرة لدى الاستخبارات الأميركية حول تلك التنظيمات. وتحاول

في كل فصل أن تثبت أنها هي هي، وليس المحققون الأميركيون في أجهزة الأمن، التي كشفت الحقائق الخطيرة عن «تنظيمات الإرهاب الإسلامية» وكأنما هناك من يتهمها بأنها مجرد مدعية وتحاول أن تبرهن العكس. ففي كل فصل تبدو وكأنها تدحض الشكوك حول دورها.

وتزعم كاتس في الكتاب باستمرار، إنها استخدمت أساليب استخباراتية خاصة بها، وهددت حياتها بواسطة مغامراتها الخطيرة، حين اخترقت تلك التنظيمات وتخفت بلباس سيدة مسلمة محجبة وقامت بتسجيل أصوات الشيوخ والنشطاء وهم يتحدثون في الجلسات المغلقة وزوّدت الاستخبارات الأميركية بمختلف فروعها بالمعلومات عنهم. وتدعي أن معظم المعلومات المقدمة حالياً في المحاكمات المقامة ضد قادة تلك التنظيمات، أمثال سامي العريان، والشيخ بشير نفاع والشيخ أحمد الحنوني والشيخ عمر عبد الرحمن والشيخ حسن الحدولي والشيخ إسحاق الفرحان وغيرهم، جمعت بفضلها.

لكنها تشير في الوقت ذاته إلى أن الاستخبارات الأميركية لم تحب قيامها بالحديث عن دورها هذا. وإنها حاولت منعها. وأنها ستضايقها بسبب ذلك. لهذا تقول ـ فإنها تصدر الكتاب من أجل الجمهور. فهي تعتقد بأن السلطات الأميركية ما زالت مقصرة في مطاردة الإرهابيين. وتأخذ عليها «رضوخها» للاعتبارات الديبلوماسية عندما تسمح «لإرهابي»، حسب ما تقول، مثل الشيخ عكرمة صبري، مفتي القدس، بدخول الولايات المتحدة أو للشيخ إسحاق الفرحان، عضو مجلس الشعب الأردني الأسبق، بالحصول على تأشيرة دخول طويلة الأمد إلى الولايات المتحدة.

وتنتقد كاتس حتى مدير المركز الذي تعمل فيه، ماكس، الذي لم يكتشف مواهبها في الوقت المناسب، وحسب أنها تبذر الوقت هباء في العمل. لكنه اقتنع بقدراتها فقط عندما فاجأته بتقديم المعلومات القيمة عن سامي العريان لمحققي الشرطة الفيديرالية «اف.بي.اي»، والتي بفضلها تم اعتقاله ومحاكمته بتهمة دعم تنظيم «الجهاد الإسلامي» في فلسطين.

وتحاول أن تقنع القارىء الأميركي بأنها لا تفعل كل ذلك كونها إسرائيلية، بل لأنها حريصة على أمن الولايات المتحدة بالذات. وتنشر اقتباسات من رجال دين مسلمين مثل المفتي عكرمة صبري والشيخ يوسف القرضاوي وغيرهما من الذين يدعون في المساجد إلى دمار الولايات المتحدة.

تدعي كاتس أنها كانت مصدر المعلومات الأساسي للنيابة الأميركية، حين أصدرت قرارها باعتبار «مؤسسة الأرض المقدسة» في الولايات المتحدة تنظيماً إرهابياً، وتقول إنها اكتشفت حقيقة هذه المؤسسة عندما اطلعت على تقرير داخلي لها باللغتين، الإنكليزية والعربية. في البيان الإنكليزي تتحدث إدارة الصندوق عن إرسالها أموالاً طائلة إلى ثلاث مؤسسات فلسطينية تعمل على رعاية «أفقر الفقراء والمحتاجين المعوزين في فلسطين». لكنها في البيان العربي تتحدث عن دعم 33 مؤسسة فلسطينية، خاضعة لتأثير حركة «حماس» وحركات متطرفة أخرى. ـ كما ذكرت سابقاً ـ.

وجمعت كاتس المعلومات عن تلك المؤسسات ليس فقط من الوثائق السرية التي تقول إنها حصلت عليها من مصادر أميركية وإسرائيلية وأردنية، بل من تحقيق شخصي قامت به بنفسها عندما

اخترقت التنظيمات الأميركية. وهكذا تصف الاختراق:

«في يوم الجمعة الذي سافرت فيه إلى سان فرانسيسكو للمشاركة في مؤتمر «مؤسسة الأرض المقدسة» نهضت في الصباح الباكر. أعددت طعام السبت للأولاد ووالدهم لاو (زوجها) وانطلقت نحو مدينة دانوفر. وبسبب شراء التذكرة في اللحظة الأخيرة، اضطررت إلى استخدام طائرتين. فتأخرت عن موعد افتتاح المؤتمر ساعة كاملة. وكان عليّ أن أتسلم الغرفة في الفندق، وأبدل ملابسي لأرتدي الحجاب وأركز في وسطي جهاز التسجيل. فمرت ساعة أخرى.

كان من المفروض أن يشارك في المؤتمر المئات. عندما دخلت القاعة ذهلت، إذ وجدتها فارغة. من مائة طاولة، معدة للطعام بوجبة فاخرة، كانت طاولة واحدة مشغولة، يجلس عليها خمسة عشر شخصاً، عرفت بينهم رجل سياسة أردني.

قررت أن أجلس جانباً، حيث لا يجوز للمرأة المسلمة أن تجالس الرجال. فنظروا إليّ بنظرات تفحص واستغراب. قررت تحيتهم: «السلام عليكم»، قلت. فأجابوا: «أنا لست من هنا يا أخوتي. كنت في زيارة أصدقاء فأخبروني عن مؤتمر التبرعات التابع لمؤسسة الأرض المقدسة. فهل هذا هو المؤتمر؟». أجاب أحدهم: «نعم يا أختنا. هذا هو».

ـ «لقد تأخرت عليكم. ويبدو أن المؤتمر انتهى. آسفة».

ـ «لا يا أختنا، قال وتابع، المؤتمر لم يبدأ بعد. خذي راحتك وتفضلي بالجلوس والانتظار معنا حتى يصل الجميع».

جلست على طاولة مجاورة. ولاحظت أنهم صاروا يتكلمون بصوت منخفض إلى درجة الهمس. وأنهم يتكلمون عني. فهمت أيضاً

أنهم مصابون بالخيبة بسبب قلة الحضور. ففي مؤتمر سابق جمعوا مائة ألف دولار. وفجأة ارتفعت أصواتهم. وقال لي أحدهم:

ـ «كما يبدو لن يصل أحد بعد. تعالوا نتناول العشاء. تفضلي وشاركينا».

ـ «لا. شكراً، قلت له. يبدو لي أن من الأفضل لي أن أغادر».

ـ «لا. لن نسمح بالمغادرة قبل تناول العشاء».

ـ وافقت. واعتذرت لأنني أريد أن أغسل يدي في الحمامات. وتكلمت مع زوجي أطمئن عليه وعلى الأولاد. ثم قلت له إنني سأدخل إلى جلسة ستستغرق ساعتين. فإذا لم أكلمه خلالهما، ينبغي التوجه فوراً إلى الموظفة المسؤولة عني في المركز لإخبارها بأنني في خطر». وبدأنا نتناول الطعام، وكله شرقي لم ينسوا فيه الطعمية والفلافل، كما في إسرائيل ويبدو أن لذة الطعام جعلتهم ينفتحون في الكلام معي. فتحدثنا حوالي الساعتين، وتركتهم لأكتشف بعد حين أن سبب تغيب الحضور هو دعوة قادة المسلمين الأميركيين إلى عرس ابنة أحد زعمائهم. ففضلوا الذهاب إلى هناك.

من جهتي، كان اللقاء فاتحة لعشرات اللقاءات الأخرى في إسرائيل. وعبور التجربة فيه بنجاح هي التي جعلتني أذهب إلى كل النشاطات بلا انقطاع.

وفي فصل تحت عنوان «حادثة ديبلوماسية» تكتب كاتس كيف حاولت منع ثلاث شخصيات إسلامية بارزة جداً من دخول الولايات المتحدة، ونجحت بذلك مع أحدهم فيما فشلت مع الآخريْن.

اتصلت مع فورونيكا، (وهي فورونيكا كايتس)، من خبراء سلطة

الهجرة الأميركية (التي تقول كاتس إنها تعاطفت معها كثيراً ووافقت على التعاون معها) وقلت لها: إن لدي اقتراحاً جديداً لها. شعرت أنها فرحت بالاقتراح بمجرد سماع كلماتي بالهاتف. والحقيقة أن اقتراحي كان بسيطاً وحكيماً. ففي سنوات ما قبل 11 أيلول/ سبتمبر، كانت سلطة الهجرة قد حاولت منع الإرهابيين وكبار المجرمين من دخول الولايات المتحدة. وأعدت لائحة طويلة بأسماء هؤلاء. لكن اللائحة لم تشمل أولئك الذين يساندون الإرهاب بالمال والكلام. واقتراحي كان أن نوسع هذه اللائحة فنضم إليها أسماء جديدة ممن تمكنت خلال تحقيقاتي من الوصول إليهم وعرفت أنهم يستطيعون الدخول إلى الولايات المتحدة بحرية مطلقة. وكما توقعت رحبت فورونيكا بالفكرة.

كان بين هؤلاء ثلاثة بارزون هم: د. إسحاق الفرحان والشيخ يوسف القرضاوي والشيخ عكرمة صبري. وقد تستغربون لماذا أريد أن أجهض رغبة علاّمة مسلمين كهؤلاء من دخول بلاد الحرية والتعبير عن آرائهم فيها، وهم الذين يحملون أسماء لامعة في العالم الإسلامي. أقول لكم إنهم ليسوا فقط رجال دين، إنهم من قادة «الإخوان المسلمين» الذي أنبتوا حركة «حماس» وغيرها من الحركات السنيّة المتطرفة.

أما الفرحان فهو الأمين العام لجبهة العمل الإسلامي في الأردن، الذراع السياسي لحركة «الإخوان المسلمين» في ذلك البلد، وله علاقات وطيدة مع «حماس» ومعروف برفضه عملية السلام في الشرق الأوسط. لكن الفرحان لم يكتف برفض السلام. فحسب الاعترافات التي أدلى بها ناصر الخدمي، وهو شاب فلسطيني اعتقل في إسرائيل سنة 1992 وهو يحاول تفجير عبوة ناسفة، فإن الفرحان

كان يدير اللقاءات الإسلامية في الولايات المتحدة التي تم فيها جمع المال وتجنيد الرجال لحركة «حماس». فقد قال إنه حضر أحد المؤتمرات بمشاركة 5 آلاف مسلم أميركي. وإن الفرحان كان أحد الحاضرين في المؤتمر. وإنه شخصياً تجند لحركة «حماس» خلال هذا المؤتمر، عندما جمعوه مع حوالي عشرين شاباً آخرين من أصل فلسطيني وحثّوهم على العودة إلى فلسطين لينضموا إلى «حماس». وهكذا فإن الفرحان كان نشيطاً في «حماس»، وخطيباً في مؤتمراتها السرية ويقوم بتجنيد الشبان وإرشادهم.

و «حماس» ليست مشكلة إسرائيلية كما يعتقد بعضهم. بل إن هذا الاعتقاد خطأ مأسوي. لكن السلطات الأميركية ارتكبته عندما اعتقدت أن «حماس» هي مشكلة شرق أوسطية. لم يفهم الأميركيون أنهم جزء من «الإخوان المسلمين»، (. . .) أو أنهم فهموا وتجاهلوا. كلهم أصوليون. وهدفهم واحد: القتل ثم القتل ثم القتل. رجالات «حماس» تدربوا في معسكرات ابن لادن في أفغانستان. ريتشارد ريد، الذي عرف باسم «المخرب ذو الحذاء» والذي حاول تفجير الطائرة الأميركية وهي في طريقها من باريس إلى نيويورك، كان قد تلقى تدريبه على يد أحد أعضاء «حماس».

والفرحان كان ضد تسليم موسى أبو مرزوق، أحد قادة «حماس» إلى إسرائيل. وحذر بأن يقلب الأرض فوق رؤوس الأميركيين في عمان وفي القدس وفي العالم العربي، وهدد بأن يدمر الأميركيين كما حصل في لبنان سنة 1982 أو في السعودية.

أما القرضاوي فهو يقيم في قطر وهو رجل دين يبجله المسلمون (. . .). وقد زار الولايات المتحدة عشرات المرات وحل ضيفاً على

العديد من التنظيمات الإسلامية هناك. في أحد المؤتمرات التي حضرها في مدينة طولدو في ولاية أوهايو سنة 1995، ألقى القرضاوي خطاباً أمام الشباب الإسلامي تضمن تحريضاً ضد اليهود وإسرائيل، مؤكداً أن «الجهاد مستمر».

نعم. إنه رجل دين، لكنه يكره اليهود وإسرائيل. وتسألون: ما الجديد في الأمر؟ فالمسلمون يكرهون اليهود. وما على أميركا أن تتدخل. وأجيب: إن القرضاوي مرتبط بتنظيمات إسلامية تعتبرها الولايات المتحدة، إرهابية منذ سنة 1995. وهو أول رجال الدين المسلمين الكبار الذي حلل العمليات الانتحارية واعتبرها استشهاداً مقدساً، بما في ذلك العمليات ضد المدنيين وأصدر فتوى بذلك. إنه مسؤول عن تفجيرات أيلول/ 11 سبتمبر تماماً مثل أسامة بن لادن، بالمقدار نفسه. وهو أحد أصحاب الأسهم في بنك التقوى الذي ورد اسمه في قائمة التنظيمات التي تساند الإرهاب و «القاعدة»، ولهذا تم تجميد أمواله.

... وهكذا، أعددنا تقريراً بالرجلين وأرسلناه إلى سلطة الهجرة الأميركية. ومرت 8 أشهر لم نسمع خلالها شيئاً عنهما. وفي صباح أحد الأيام، اتصلت فيرونيكا بي لتقول: «اسمعي نشرات الأخبار». وإذا بهم يتحدثون عن حادثة ديبلوماسية. فقد تم توقيف الفرحان في مطار نيويورك الدولي وجرى التحقيق معه حول نشاطاته الإرهابية. وأثار الأمر ضجة كبرى في الأردن وفي العالم. فالفرحان كان عضواً في البرلمان، واعتقاله يعتبر خرقاً للأصول الديبلوماسية، إذ كان على وزارة الخارجية أن تبلغ السفارة الأميركية في عمان بأمره، فلا تمنحه هذه تأشيرة دخول. لكنها لم تفعل، ومنحته التأشيرة. وتدخل الملك عبد الله بن الحسين لدى الرئيس بيل كلينتون في حينه. فتقدموا باعتذار

رسمي إلى الفرحان، وعدلوا الموقف في شأنه، ومنحوه تأشيرة طويلة الأمد.

لكن المسألة نجحت مع القرضاوي. فقد استدعوه في السفارة الأميركية في الدوحة وأبلغوه أنهم سحبوا منه تأشيرة الدخول، وأصبح محظوراً عليه السفر إلى الولايات المتحدة.

الشخصية الثالثة هو الشيخ عكرمة صبري الذي رفضت الإدارة الأميركية التجاوب مع طلب عدم منحه تأشيرة دخول ومنعه من دخول الولايات المتحدة لأنه يحمل لقباً رفيعاً: «مفتي الأراضي المقدسة».

حرف السين

1 ـ سارا أرونسون.

2 ـ ساشا ماتسوكا.

3 ـ ساندي.

4 ـ ستيلا ريمينغتون.

5 ـ سمير نوفا.

6 ـ سويسا أوفرمات.

7 ـ سيبيل ديلكورت.

8 ـ سيغمولر.

سارا أرونسون(*)
(Sara Aronson)
(1916 ـ 1893)

هي إحدى أشهر الجاسوسات اليهوديات لخدمة الصهيونية والمخابرات البريطانية ضد الأتراك أثناء الحرب العالمية الأولى.

وليس بين من رافقوا سنوات الحرب العالمية الأولى من يجهل سارا أرونسون، فلم تكن حفلة راقصة تقام في قصر من قصور بيروت الكبيرة إلا وتكون سارا النجمة المتألقة فيها.

ولم يكن أحمد جمال باشا يحضر إلى بيروت إلا وترى سارا تقدم إلى الكبراء والعظماء.

فسارا ترقص اليوم مع أحمد جمال باشا في أحد قصور الحي السرسقي، وغداً يقيم لها عبد الرحمن باشا اليوسف مأدبة في دمشق.

(*) المرجع: علي ملكي «الجاسوسية الصهيونية في البلاد العربية». منشورات صوت الشوف. ص 45 ـ 71.
ود. صالح زهر الدين «المنطقة العربية في ملف المخابرات الصهيونية». المركز العربي للأبحاث والتوثيق. بيروت. الطبعة الأولى 1985. ص 53 ـ 55.
د. سليمان المدني «تركيا اليهودية». دار الأنوار، دمشق، الطبعة الثانية 1998. ص 88 ـ 102.
ولطفي أكدوغان «سارا». دار طلاس. دمشق.

وكان الجميع يتسابقون لخطب ود سارا اعتقاداً منهم بأنها سيدة سيد البلاد أحمد جمال باشا. ولما لها من الجمال والملاحة والخفة.

ولكن هل كانت سارا عشيقة جمال باشا حقاً؟..

كانت سارا يهودية صهيونية تعاطت الجاسوسية لغاية خبيثة وهي العمل في سبيل الوطن القومي اليهودي في فلسطين ولو على أشلاء شعبها العربي النبيل.

وكانت تعتقد أنه لا يمكن تحقيق هذا المشروع الاستعماري إلا إذا خرجت تركيا من فلسطين، فراحت تسعى في هذا السبيل إلى أن رأت السلطنة العثمانية تسير إلى الاضمحلال.

وقبل أن نأتي على تفاصيل الأعمال التي قامت بها سارا في البلاد، نرى أن نذكر لمحة عن تاريخ أسرتها.

• الهجرة اليهودية

على أثر المذابح التي ارتكبها الرومانيون في أواخر القرن التاسع عشر ضد يهود تلك البلاد أخذ اليهود يفكرون في إيجاد ملجأ لهم وشرعوا يهاجرون إلى فلسطين.

وفي سنة 1880 ألَّف لوواتنان ووواينبرغ وهابسمان الذين هم من التابعية الروسية وهابغمن البولوني، جمعية أخذت على عاتقها مهمة بث الدعاية للهجرة إلى فلسطين. وفي سنة 1881 تمكن هؤلاء بواسطة المهاجرين الذين تمكنوا من جلبهم من إنشاء قرية (ريشون لزيون) في أرض فلسطين.

وفي سنة 1883 ألفت فئة أخرى من يهود رومانيا جمعية من عشر عائلات اشترت أراضي لها في جوار حيفا وأنشأت فيها قرية

(زمارين)، أو بحسب اصطلاح اليهود (زيكرون جاكوب) التي هي مسقط رأس سارا.

وانصرفت هاتان الفئتان من المهاجرين اليهود إلى العمل في أراضي فلسطين، ولكن جهلهما مركز البلاد الطبيعي جعلهما في حالة من الحاجة والفقر وسرعان ما انتشرت فيهما الفاقة والأمراض، واضطر القسم الكبير منهم إلى العودة.

ولما لمس زعماء الصهيونية هذه النتيجة التي صار إليها اليهود خافوا أن لا تثمر هذه النواة التي وضعوها للوطن القومي الصهيوني، فقرروا الاستنجاد بأغنياء اليهود في العالم، وعلى الأثر أرسلوا وفداً إلى أوروبا وذلك في سنة 1887، فتولى هذا الوفد تحريك شعور أغنياء اليهود وفي مقدمتهم البارون الصهيوني (إدمون دي روتشلد) الذي وافق على هذا التدبير، وأوفد مندوبين من قبله مزوّدين بالصلاحية اللازمة وبالأموال الوفيرة لإغراء اليهود بالإقامة في فلسطين!.

• عائلة أرونسون

وفي سنة 1889 جاء جاك أرونسون إلى (زمارين) أو (زيكرون جاكوب) كوكيل لروتشلد حاملاً معه الأموال الوفيرة والاعتمادات الطائلة، وراح يسعى لتعمير هذه المنطقة وازدهارها. وقد أنفق في هذا السبيل، هو وزوجته الشابة، أموالاً طائلة إلى أن استعمر هذه القرية، وكان نصيب عائلة أرونسون أراض شاسعة وأملاك وافرة. وما كادت تحل سنة 1914 وتعلن الحرب العالمية حتى كانت عائلة أرونسون من أكبر وأغنى العائلات اليهودية في فلسطين.

وكان أرونسون الأب في ذلك الوقت متمتعاً بثقة الصهيوني

ادمون دي روتشلد والجمعيات الصهيونية، وينظر إليه على أنه في مقدمة مؤسسي الوطن القومي الصهيوني. كما أنه كان في مقدمة الذين يثق بهم الترك ويستخلصونهم!..

ورزق (جاك أرونسون) خمسة أولاد، هم حسب تاريخ ولادتهم: أرون (أو هارون) أرونسون ولد سنة 1886، وسام أرونسون ولد سنة 1891، وسارا أرونسون ولدت سنة 1893، وروبيكا أرونسون وقد ولدت سنة 1897. والكسي أرونسون.

وولد معظم هؤلاء في (زمارين) وتلقوا علومهم الابتدائية فيها، إلا أن والدهم عاد فبعث بهم إلى أوروبا حيث تلقوا علومهم العالية في جامعاتها وأصبحوا من كبار العلماء رغم حداثة سنهم.

فآرون أرونسون شقيق (سارا) الأكبر كان من كبار علماء النباتات ليس في فلسطين وحدها فحسب، بل في العالم، وله عدة مؤلفات ترجمت إلى اللغات الأجنبية وكانت تدرس في المعاهد الزراعية في كثير من أنحاء العالم!!.

وقد جاب هذا العالم الزراعي جميع أنحاء البلاد العربية، وهو الذي اكتشف «القمح البري» الذي ينبت منذ بدء الخليقة وبدأ بزراعته وتنميته. وقد وجد هذا القمح في أعالي (جبل الشيخ) بلبنان، وسجل اسمه في هذا الاكتشاف في الأنسيكلوبيديا الإنكليزية، وسجل اسمه أيضاً بأنه مكتشف «اللوز البري» في أعالي جبال (قاسيون) بسوريا!.

وقد أنشأ مختبراً زراعياً كبيراً في قرية (عتليت) بفلسطين كان يعد أعظم مختبر أنشىء في ذلك العهد في السلطنة العثمانية!..

• في خدمة الانتلجانس سرفيس

ومع انصراف هذا الرجل إلى الشؤون الزراعية ودرس مختلف النباتات كان من أكبر جواسيس الصهيونية والإنكليز، وقد أدى خدمات كبرى لليهود والإنكليز معاً!.. ولما نشبت الحرب العالمية [الأولى] غادر فلسطين إلى إنكلترا حيث التحق بخدمة (الانتلجانس سرفيس) وأدى خدمات كبرى للصهيونية والإنكليز، ولما انتهت الحرب العالمية وتقرر حل القضية الفلسطينية في مؤتمر لندن غادر باريس على إحدى الطائرات إلى لندن ليدافع عن القضية الصهيونية فكان نصيبه الموت إذ سقطت به الطائرة وقتل!!.

واليكسي أو (أليك) كما كان يعرف في ذلك الوقت كان خطيباً وداعية صهيونياً ومهمته الأساسية العمل على خدمة (الانتلجانس سرفيس) قبل الحرب العالمية، إلا أنه كان يتظاهر بأنه معلم مدرسة فيطوف بين زمارين وملبس والحضيرة لإلقاء المحاضرات على الشبيبة اليهودية مرة في كل قرية خلال أسبوع واحد، وكان يطوف في المناطق الأخرى عند الضرورة!..

• ... وهذه سارا أرونسون!

أما سارا أرونسون فكانت فتاة جميلة الصورة بديعة التكوين، ولو كان في ذلك الحين معارض للجمال كما هي الحالة في هذه الأيام لانتخبت ملكة للجمال في العالم!.. ـ كما يقول علي ملكي ـ.

وهي عدا الجمال الخلاب الذي تحلت به كانت على جانب عظيم من طلاوة الحديث وخفة الروح تحسن اللغات العبرية والعربية والفرنسية والألمانية والإنكليزية والإيطالية والروسية!!.

وكانت في الوقت نفسه ولوعة بالعلوم الزراعية والنباتية، وشريكة لشقيقها آرون في المختبر الزراعي الذي يديره في قرية (عتليت)، وكان الجميع يحبونها ويحترمونها ويطيعونها ليس والدها وأشقاؤها فحسب بل جميع يهود (زمارين) والقرى اليهودية المجاورة لها!..

وكانت سارا حرة في الذهاب إلى حيث تريد، ولم يكن لأشقائها إلا الإذعان لإرادتها والعمل بمشيئتها!..

وروبيكا كانت تمثل في هذه العائلة ربة المنزل، فهي لم تتدخل كوالدها وشقيقها سام، في الأدوار السياسية التي مثلها آرون واليكسي وسارا، بل ابتعدت عن هذه الأمور جميعها لتنصرف إلى إدارة شؤون المنزل!!.



والحكومة العثمانية كانت تجهل حقيقة مهمة هذه الأسرة ولا تعرف عن أفرادها إلا أنهم من المهاجرين اليهود الذين جاؤوا إلى البلاد واستوطنوها، وكثيراً ما كانت تستعين بخبرة آرون وشقيقته سارا في مختلف الأمور الزراعية، وبذلك كانت تترك لهم المجال الكافي لأن يوسعوا منطقة نفوذهم، وأن يحصلوا على المعلومات السياسية التي يرونها لازمة لمصلحة الاستخبارات الإنكليزية!!.



ومصلحة الاستخبارات الإنكليزية، كانت قبل الحرب العالمية بقليل بحاجة إلى معلومات جديدة عن أسرار بادية سورية، فخابرت سارا!.. وكرر هذا الأمر البارون دي روتشلد الذي أعلمها أن مصلحة الصهيونية توجب ذلك. فوافقت على هذا الأمر وراحت تبحث عن

شخص قوي يمكنها أن تعتمد على مكانته في سبيل الدفاع عن نفسها، فوجدته أخيراً في شخص نور الدين بك ب.!!.

● نور الدين وسارا!

ونور الدين بك ب. من أثرياء بيروت، وهو شاب متعلم يحسن عدة لغات ومن هواة الآثار، يصرف وقته وثروته على جمع ما يطيب له من الآثار القيمة!!.

ذهب في ذلك الوقت إلى فلسطين ومرّ على عتليت لمشاهدة قلعتها التاريخية، فتعرف هناك إلى آرون أرونسون الذي دعاه إلى داره في زمارين وقدمه إلى أفراد العائلة، وهناك دار حديث بين أفراد هذه العائلة ونور الدين بك حول الآثار وأماكنها!..

وخاضت سارا في الحديث بطلاوة «أسكرت» نور الدين، وقد أظهرت له رغبتها في زيارة سوريا وصحراء سوريا، وقبائل سوريا، لمشاهدة النباتات الغريبة الموجودة فيها، ومتابعة الاكتشافات النباتية التي قام بها شقيقها آرون!!. فصدق نور الدين روايتها هذه، لا سيما أن شقيقها عالم النبات كان قد اشتهر في ذلك الوقت بعد اكتشافاته، فشجعها على متابعة أبحاثها!!.

فسألته الآنسة سارا: أيوافق على اصطحابها في هذه الرحلة؟!.

وسارا التي لم تكن في ذلك الوقت قد بلغت العشرين من عمرها تغري الزاهد فكيف بنور الدين وهو شاب في ربيع الحياة؟ فإن رفقة مثل (سارا) في البراري والقفار من الأمور التي تلذ مهما كانت المخاطر، ولهذا وافق فوراً على هذه الرحلة التي كانت مرضية للفريقين، لسارا لأنها برفقة شاب مسلم عريق في الحسب والنسب،

سيسهل لها كل سبيل ويجعلها في مقدمة الناجحات في تحقيق مهمتها!.. ولنور الدين لأنه رأى بمرافقة مثل هذه الفتاة الجميلة سعادة لم يحلم بمثلها يوماً!!.

• سارا في سوريا

طافت سارا في بادىء الأمر برفقة نور الدين بك جهات حوران وجبل الدروز خطوة فخطوة. فكانت تدرس النباتات الغريبة درساً دقيقاً وتنصرف في الوقت نفسه إلى درس كل منطقة تمر بها درساً أدق من الوجهتين العسكرية والسياسية، فتسجل كل هضبة تمر بها، وكل بئر تراه، وكل منطقة خالية من الآبار، ونفوذ كل زعيم في قريته، ومركز كل قبيلة ومقدار نفوذها، وتجتمع بكل زعيم من الزعماء وبكل شيخ من مشايخ القرية، الشيوخ والأحداث، وتدرس نفوذه ومحبة أفراد القبيلة له!..

وقد لفتت هذه الحركات أنظار نور الدين، فاستفهمها فقالت له:

ـ ما دمت أقوم بهذه الرحلة لغاية علمية فليس هناك ما يمنعني من درس حالة البلاد التي سأضع كتاباً عنها!..

ولما كانت سارا على جانب وافر من العلم فلم تدخل الريبة إلى نفس رفيقها لا سيما أن أحداً في ذلك الوقت لم يفكر في الحرب العالمية وفي أن نفوذ السلطنة العثمانية سيزول من البلاد بعد سنوات قصيرة!..



وقد يكون جمال سارا ولطف سارا ومحبة سارا لنور الدين من الأسباب الرئيسية التي حالت دون تمكنه من اكتشاف أسرارها!!

وقد أكدت الأوراق التي وجدت فيما بعد، أي بعد اكتشاف سارا، أن نور الدين بك الذي ظل برفقة سارا إلى ما بعد اكتشاف أمرها وانتحارها كان يجهل كل شيء من أسرارها!!.

وكانت سارا تحمل مبالغ كبيرة من المال لتصرفها في رحلاتها هذه، وكثيراً ما كانت تساعد البدو والقرويين بمبالغ لا بأس بها!!.

وقد لفت هذا الأمر نظر نور الدين بك فخاف عليها من أن تصبح عرضة لاعتداء اللصوص الذين لا يتأخرون عن التضحية بها وبه في سبيل المال، ولذا كان ينهاها عن حمل المال قائلاً إنه قد يكون فيه نكبة تصيبهما، فكانت تضحك لخوفه قائلة:

ـ لا قيمة للمال عندي. فإذا جاء من يهاجمني للاستيلاء عليه تركته له غير عابئة!..

إلا أنها في الحقيقة لم تفعل ذلك!..

• محاولة اختطاف

ففي إحدى هذه الرحلات زارا (تدمر). وفيما هما يتوغلان في البادية خرج عليهما ثلاثة من الأعراب وكانت سارا قد ابتعدت عن نور الدين مسافة طويلة، إلا أنه تمكن من سماع استغاثتها التي أرسلتها وهي في حالة ذعر وخوف شديدين. فأسرع إليها فشاهد هؤلاء العربان وكانوا مدججين بالسلاح يحاولون ليس سلبها فقط، بل خطفها والذهاب بها إلى البادية!. فلم يفقد الشاب رباطة جأشه بل بادر فوراً إلى بندقيته وهدد بها السلابين وكان مرتدياً ملابس عربية ويركب جواداً عربياً!. ولما صرخ بهم ظنوه من أمراء العرب في هذه المنطقة فخافوا العاقبة وولوا الأدبار!.

ولو أظهر نور الدين قليلاً من الجبن في هذا الحادث لذهب هو ورفيقته طعماً لوحوش الفلاة!.

ووقعت لهما عدة مخاطر كهذه إلا أنهما كان يتلقيانها بشجاعة مكنت أواصر الود والصداقة بينهما، وتعدت في النهاية دور الصداقة!..

• إعلان الحرب

وهذه الرحلات التي قامت بها سارا أرونسون في نهاية سنة 1912 والتي استمرت إلى أواسط سنة 1914 ظلت مكتومة عن السلطنة العثمانية، إلا أنه بعد إعلان الحرب العالمية في آب (أغسطس) سنة 1914 وقبل دخول الدولة العثمانية في هذه الحرب، رأى أفراد هذه العائلة أنفسهم في موقف يوجب عليهم العمل بصورة جدية لخدمة دائرة الاستخبارات الإنكليزية ولخدمة الصهيونية التي تعتمد على الجاسوسية فيما تعتمد عليه من الحيل للوصول إلى هدفها فتقرر والحالة هذه القيام بما يلي:

أولاً ـ أن يتطوع أليك وآرون في الجيش البريطاني بحيث يتوليان فروع الاستخبارات!..

ثانياً ـ أن يتولى ايزبدور هالكن العمل في الجيش النمسوي ليكون على صلة بمعرفة أسرار النمسويين في الحرب ويوافي بها أخوي سارا!..

ثالثاً ـ أن تتولى سارا إدارة شعبة الاستخبارات في فلسطين وتسعى لتنميتها، وتتخذ من المختبر الزراعي الذي في (عتليت) قاعدة لإدارة هذه الحركات، وأن تسعى عند اللزوم لإيجاد جواسيس لها في فلسطين!..

رابعاً ـ أن يتبادل الأربعة المذكورون المخابرات بشيفرة خاصة بهم بواسطة دوائر البريد الأجنبية، حتى إذا دخلت الدولة العثمانية في الحرب العالمية جرت هذه المخابرات بواسطة الحمام الزاجل والرسل الذين سيوفدون إلى ساحل عتليت!..

وعلى هذا القرار تم الاتفاق بين الجميع!!

● استخدام الحمام الزاجل

كانت أولى الأعمال التي قامت بها سارا في فلسطين أنها أخذت بتدريب الحمام الزاجل على التنقل بين عتليت والمناطق المجاورة، وكانت في كثير من الأوقات تقوم بنزهة على زورق بخاري تملكه فتمضي بالحمام من عتليت إلى حيفا وتطيره من هناك فيعود ثانية إلى عتليت!..

ثم عمدت إلى تأليف شبكة جاسوسية قوية جعلتها ذات فروع وتسلسل بحيث لم يعرف بأمرها سوى ثلاثة أشخاص هم الدكتور كوهين خانكن وإبراهام إزرائيل وصموئيل سام.

واتخذت عتليت قاعدة لها تجتمع فيها برسل شقيقها «أليك» الذين كانوا يزورونها من مصر قبل دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية.

ثم وسعت منطقة نفوذها فأوجدت لها عملاء في سمخ، البطيحة، والخربة، وتل شهاب، وحوران، وبادية سوريا، ثم في بيروت، والقدس، ودمشق، وحلب، ويافا، وحيفا!..

وكان جميع الجواسيس الذين اشتغلوا معها من اليهود يجهل بعضهم بعضاً، لارتباطهم مع بعضهم البعض بدرجة التسلسل

برؤسائهم، فتصل الأخبار الحقيقية إلى سارا فترسلها بدورها إلى المنطقة الإنكليزية!..

وقد تمكنت خلال سنوات الحرب العالمية من التقاط معلومات كان جلها مفيداً للإنكليز مع أنها أخطأت في كثير منها!..

• جمال باشا السفاح!

لما استولى أحمد جمال باشا في أواخر عام 1914 على مقدرات الأمور في الجيش الرابع طلب إلى رئاسة الشعبة الثانية أن تضع له قائمة بأسماء اليهود الذين هم من أصل أجنبي ويقيمون بفلسطين مع أسماء الذين كانوا في فلسطين ونزحوا عنها!..

وقد وضع اليوزباشي كنعان بك تقريراً وافياً عن هذه العائلات أردفه بمعلومات حقيقية عن عائلة أرونسون وبوجه خاص عن سلوك آرون وأليك اللذين لجآ إلى الإنكليز مع لائحة من المعلومات الواردة إليه من مصر عن انتساب هذين الرجلين إلى مصلحة الاستخبارات وقيامهما بعملهما ضد فلسطين!..



ومع أن الواجب كان يحتم على قائد الجيش الرابع أن يهتم لهذه الأحداث وأن يأمر بمراقبة أفراد هذه العائلة بدقة فإنه لم يهتم لهذه الأمور بل اكتفى بإنذار آل أرونسون الذين في زمارين بأن أقل حركة مريبة يقومون بها ستكون كافية لإبعادهم إلى قلب الأناضول، كأنه كان على اعتقاد بأن هذا التدبير كاف لردع هذه العائلة عن القيام بأعمال الجاسوسية!

● أحمد جمال باشا وسارا

لم تكن سارا تظهر إلا في أندية الطبقة الراقية في البلاد! ولهذا ما كاد أحمد جمال باشا يأتي إلى فلسطين في أواخر كانون الأول (ديسمبر) سنة 1914 حتى كانت سارا هناك، فتقدمت إليه مع الوفد اليهودي الذي جاء القدس ليرحب بمقدمه، وتكلمت يومئذٍ أمام الباشا مرحبة به باسم إخوانها أبناء الطائفة اليهودية، وأكدت له إخلاصهم للدولة العثمانية!!



وسارا لم تأت مع الوفد اليهودي لتحية أحمد جمال باشا فحسب، بل للتعرف إليه من جهة، ولمعرفة أسرار الاستعدادات التي يقوم بها لتجهيز الحملة المسافرة إلى مصر عن طريق قناة السويس من جهة أخرى!!.

والمعلومات التي نشرت بعد الحرب العالمية والوثائق التي أذاعتها دوائر الاستخبارات أكدت أن شعبة الاستخبارات الإنكليزية في فلسطين التي كانت تديرها سارا أرونسون ساعدت الإنكليز مساعدة كبرى على الاستعداد للحملة، لأن هذه المعلومات التي زودوا بها كانت كافية لاطلاعهم على أسرار الحملة العثمانية وما لديها من عدد حربية، فأعدوا عدة مضاعفة لها، وكان من جراء ذلك أن فشلت الحملة الأولى على قناة السويس، وزادت الثقة بسارا فباتت مرجعاً رئيسياً للحملة الإنكليزية!..

● سارا أرونسون في بيروت!

وكان للحلفاء خطة مدبرة لاحتلال السواحل السورية في بدء سنة

1915، أي في شهر شباط(فبراير)، الشهر الثاني لمهاجمة العثمانيين قناة السويس، ولهذا أرادوا أن يتعرفوا إلى حقيقة الحالة في بيروت والمناطق الساحلية الأخرى فانتدبوا لهذه الغاية سارا أرونسون التي جاءت بنفسها إلى بيروت لدرس الموقف، ونزلت في اليوم الواحد والعشرين من شهر شباط (فبراير) سنة 1915 في فندق (دوتشرهوف)!.

وفي اليوم التالي اتصلت (بميشال بك س.) متظاهرة بأن قدومها كان لمفاوضة الثري البيروتي بشأن أملاك ومعاملات مشتركة لهما في فلسطين، فاستقبلها ميشال بك بحفاوة كعادته، وقدمها في ذلك المساء لعدد كبير من وجهاء بيروت!..

ثم أرادت أن تتأكد من موقف البيروتيين من الحلفاء إذا ما أقدموا على احتلال هذه المدينة، فأرسلت إشعاراً إلى أخيها (أليك) بأن يوفد سفينتين حربيتين للتجول حول سواحل بيروت ثم أشاعت بين الناس بواسطة رسلها أن في نية الحلفاء احتلال مدينة بيروت! إلا أن هذه الشائعة جاءت عكس ما كانت ترجو، هي والحلفاء!! إذ ما لبث البيروتيون أن أبدوا استنكارهم للخضوع للاستعمار الأجنبي، وراحوا يهاجرون إلى دمشق، فامتلأت محطة سكة حديد بيروت بمئات العائلات مما اضطر إدارة السكة الحديدية إلى تسيير عدة قاطرات مدة بضعة أيام شحنت إلى دمشق ألوفاً من أفراد العائلات البيروتية!..

وتجاه هذا الحادث رأت سارا أن احتلال الحلفاء لسواحل سوريا ولبنان سيكلفهم عدا الضحايا الكثيرة معارك دموية، فأرسلت تنبىء شقيقها بهذا الأمر، مما أهاب بالحلفاء إلى تحويل وجهة خطتهم من بيروت إلى إسكندرون والسير من هناك إلى حلب، وهكذا يفصلون سوريا عن بلاد الأناضول، إلا أن المذبحة الأرمنية التي وقعت في

شهر نيسان (أبريل) سنة 1915 في أورفه وضواحيها أخرت هذا الاحتلال إلى أواخر سنة 1918!.

❁ ❁ ❁

ولم تقتصر مساعي سارا عند هذا الحد في بيروت، بل قامت بتمثيل أدوار أخرى منها:

لما اشتدت المعارك في (الدردنيل) أراد الحلفاء أن يهددوا المناطق الساحلية العثمانية، فبثوا رقابة شديدة عليها، وكانوا إلى ذلك الوقت، منتصف سنة 1915، يتركون الحرية للمراكب الشراعية في التجوال بين سواحل لبنان الحالية وسواحل فلسطين وبدأوا بمطاردة هذه السفن، إلا أن الألمان رأوا أن يكافحوها بغواصاتهم فأوفدوا بعض هذه الغواصات إلى السواحل السورية!.

• غواصة ألمانية في بيروت!

وفي اليوم السادس عشر من شهر تموز (يوليو) سنة 1915 دخلت إلى مرفأ بيروت إحدى الغواصات الألمانية ورست فيه. وأراد قائدها أن يدخل الطمأنينة إلى قلوب سكان المدينة ليظهر لهم أن الغواصات الألمانية لا تخاف أساطيل الحلفاء، فأعلن بواسطة القنصلية الألمانية ومقام الولاية أن هذه الغواصة ستظل طول ذلك اليوم في مياه بيروت وأن في استطاعة الأهلين زيارتها!.

والشعب البيروتي الذي لم ير حتى السفن الشراعية تدخل مرفأ بيروت منذ عام قد شاقه رؤية هذه الغواصة في مياهه خصوصاً بعد أن مهد الألمان بالدعايات للغواصات الألمانية بأنها قضت على أساطيل الحلفاء في البحر المتوسط وأن مجيء هذه الغواصة إلى مياه بيروت

دليل على ذلك، وأن هذه الغواصات ستفتح الطريق البحري فيزول شبح المجاعة من سائر البلاد!

❁ ❁ ❁

وكان منظر المرفأ في ذلك اليوم جميلاً لأن الزوارق التي عشش عليها العشب نظراً لوقوفها الطويل راحت تنقل الركاب إلى الغواصة بعد أن نقلت في الصباح وجهاء الجالية الألمانية وطلاب معهد (دياكونيز) ومدرسة سان شارل الألمانية، والحكام الترك!.. وقد نزل هؤلاء إلى الزوارق ثم إلى الغواصة وهم ينشدون النشيد الوطني الألماني: (ألمانيا فوق الجميع)، وقد أكرم قائد الغواصة وضباطها وفادة القادمين!..

وكان بين القادمين لهذه الغواصة مع أفراد القافلة الأولى الآنسة سارا التي لم تتورع أيضاً عن الوقوف في صفوف الألمان تنشد معهم النشيد الوطني الألماني وهي تتظاهر بالارتياح لرؤيتها هذه الغواصة الألمانية!!.

ولم تقف سارا في صف القادمين لشرب الشمبانيا وتسمع خطب الترحيب التي ألقاها أركان الجالية الألمانية وثلاث من الطالبات البيروتيات، بل انصرفت لمراقبة حالة الغواصة ومحادثة أحد بحارتها عن سفريات الغواصة والرحلات التي قامت بها، ونظراً لظهور هذه الفتاة بين أشد المتحمسين من الألمان فإن هذا البحار لم يتورع عن اطلاع الفتاة على ما أرادته من معلومات دون أن يدور في خلده أنه يوفر هذه المعلومات لأكبر عدوة لبلاده!!



ولما استحصلت سارا على كل ما تريد من معلومات عن الغواصة، عادت مع القافلة الأولى إلى الفندق، وأنبأت أحد رجالها السرّيين بما كان من أمر الغواصة، وسلمت إليه رسالة طيّرها بواسطة الحمام الزاجل من محلة رأس بيروت إلى عرض البحر، فوصلت رسالتها بعد الظهر إلى شقيقها أليك الموجود على ظهر الدارعة الإنكليزية!!

● أول ضحية للجاسوسة!

وفي الأسبوع التالي لهذا الحادث اعتقل رجال الشرطة المولجة بخفر الساحل شاباً بيروتياً يدعى يوسف عيسى عمران وكان يشتغل في خدمة أبي سعيد ب.، وهذا الشاب هو الذي اطلع علي كمال بك، رئيس القسم العدلي في شرطة بيروت، على أن أبا سعيد يتصل بسيدة أجنبية تأتي لزيارته في منزله بمحلة المنارة، وأن أبا سعيد بعد هذه الزيارات كان يقصد البحر على أحد الزوارق، وفي عرضه يجتمع بزورق بخاري إنكليزي أو بالدارعة ويسلمها الرسالة!!

وقال إن هذه الزيارات بلغت خمساً في الأسبوع الذي زارت فيه الغواصة الألمانية بيروت، وأنه، أي يوسف، قد رافق أبا سعيد في زياراته هذه مرة واحدة!..

إلا أن الشرطة عندما داهمت منزل أبي سعيد لم تجد فيه شيئاً من هذه الوثائق، ولم تتمكن من إثبات هذه التهمة عليه، ولهذا اكتفت بنفيه إلى الأناضول!!

أما يوسف فإنه حوكم أمام الديوان الحربي العرفي في عاليه محاكمة سرية استغرقت مدة طويلة، وقد عذب الرجل خلالها تعذيباً

مرّاً لحمله على الاعتراف باسم السيدة التي كانت تزوده بهذه الرسائل إلى الأعداء!..

ولما كان يوسف يجهل حقيقة هذه المرأة، ولم يكن سوى آلة بيد رجالها السريين يوفدونه بمثل هذه المهمات مقابل مبلغ من المال، فإنه، بطبيعة الحال، لم يتمكن من إرشاد المحقق لدى المجلس الحربي العرفي إلى هوية السيدة، وعلى ذلك اعتبر أنه جاسوس وحكم عليه بالإعدام بهذه التهمة. وفي اليوم العاشر من شهر آذار (مارس) سنة 1915 نفذ به حكم الإعدام في عاليه!!

● طائرات الإنكليز تقصف بيروت!

أما الحلفاء فإنهم، بعد معرفتهم بمجيء الغواصة إلى بيروت، أوفدوا إحدى الطائرات الحربية لاستكشاف أمرها، فحامت هذه الطائرة فوق مينائها، فوجدت الغواصة الألمانية في جهات ساحل الزيتونة، فأمطرتها ببعض القنابل، ووقعت إحدى هذه القنابل في مقبرة السمطية فأحدثت فيها حفرة عميقة نثرت بعض القبور!.

ثم أوفدوا إلى مرفأ بيروت إحدى البواخر الفرنسية المعدّة لمراقبة الساحل، فدخلت هذه الباخرة مرفأ بيروت بجرأة غريبة جداً وألقت بضع قذائف في داخل المرفأ أصابت إحداها أعلى بناية المصرف العثماني!.

❀ ❀ ❀

وقد كان لهذا العمل تأثيره العنيف في بيروت لأن الغواصة الألمانية التي تظاهرت بالشجاعة عند الصباح ما لبث ربانها عندما شعر باقتراب الطائرة أن غادر بغواصته الميناء، وقال الألمان يومئذٍ أن

الغواصة غادرت مرفأ بيروت كيلا تترك للحلفاء مجالاً يتذرعون معه بوسيلة لضرب المدينة أو احتلالها، ولهذا انصرفت! . مع أن الحقيقة هي أن القائد خاف أن يكشف أمره فيحاط بسفن الحلفاء الحربية، ويكون سبباً في فقد هذه الغواصة! .

أما الأتراك فإنهم، بإيعاز من الألمان، أرادوا أن يستغلوا هذا الحادث فالتقطوا رسوماً للمكان الذي وقعت فيه القذيفة في مقبرة السمطية ليظهروا للعالم أن الحلفاء اعتدوا على المقابر في مدينة عزلاء! .

إلا أن الإنكليز ما لبثوا أن قاوموا هذه الدعاية، ونشروا بعد مرور أسبوع على هذا الحادث، رسماً للغواصة الألمانية الراسية في مياه بيروت ليبرروا موقفهم هذا! وقد تبين بعد اكتشاف أمر سارا أن هذا الرسم أخذته سارا نفسها بواسطة آلة فوتوغرافية تحملها في معصم يدها بصورة سرية! .

❀ ❀ ❀

وتجاه هذا الأمر لم يبق بإمكان الألمان إيفاد هذه الغواصات إلى بيروت، لأن قائد قوات الحلفاء أرسل كتاباً إلى أحمد جمال باشا بواسطة القنصلية الأميركية للولايات المتحدة في بيروت ينذره فيه بضرب بيروت واحتلالها إذا ما لجأت الغواصات ثانية إلى بيروت، أو إذا ما بلغه أن هذه الغواصات أخذت شيئاً من الوقود من مرافىء سوريا! .

• ثلاثة أهداف مختلفة!

كان فيصل في دمشق!

وأحمد جمال باشا في دمشق!

وسارا أرونسون في دمشق!

ولكل من هؤلاء الثلاثة هدف!

وكانت المعلومات الواردة من الشريف حسين للشريف فيصل تفيد أن الاتفاق قد تم على إعلان الثورة العربية، وأن عليه أن يبذل جهوده لدى أحمد جمال باشا لإنقاذ قافلة شهداء العرب الثانية، فإذا لم ينجح فإن عليه القدوم إلى المدينة المنورة للالتحاق بأخيه الشريف علي الموجود هناك!.

وكان أحمد جمال باشا في ذلك الوقت شديد الاهتمام والعناية بتهيئة الحملة الثانية لقناة السويس، وهو يترقب وصول القوات التركية الحجازية من المدينة!.. وكانت التقارير الواردة إليه من وهيب باشا قائد الحجاز وواليها تدل على أن في الحجاز حركة غير اعتيادية، وأن البلاد على أهبة ثورة على السلطنة العثمانية!.

وكان تجاه مؤامرة في البلاد السورية نفسها بسبب اعتقال بعض زعمائها، ومحاكمتهم استعداداً لإعدامهم!

وكانت المحادثات جارية بين الفريقين، بين جمال واستنبول وفيصل ومكة والمدينة.

وفي هذا الوقت العصيب المصادف لأول عام 1916 ظهرت في دمشق الآنسة سارا أرونسون الجاسوسة المشهورة ونزلت في فندق «فكتوريا»!.

• سارا ولورانس

وسارا هذه المرة كانت من الجرأة على جانب عظيم فقد حملت إلى الشريف كتاباً من والده..

وكانت المخابرات بين دمشق ومكة صعبة يقتضي لها وقت طويل ولم يكن باستطاعة فيصل أن يخابر والده بصراحة وحرية، كما أنه لم يكن لدى فيصل أي علم بمجريات الأمور في مكة وهو البعيد عنها!.

ولما كان الاتفاق قد تم مبدئياً بين الشريف حسين والسير هنري ماكماهون على إعلان الثورة العربية فقد تقرر إبلاغ هذا الأمر للشريف فيصل الموجود في دمشق. ووقع اختيار لورنس على سارا أرونسون، فزودت بكتاب خاص من الشريف حسين إلى نجله الشريف فيصل لكي يلاين أحمد جمال باشا ويتوسط في الأمر رئيس أركان حربه علي فؤاد باشا!.

وكان الشريف فيصل يجهل حقيقة سارا، ولم يجتمع بها أبداً، ولم يكن في استطاعة سارا أن تزوره في هذا الوقت الذي توترت فيه عصبية أحمد جمال باشا، لا سيما أن الشريف لم يكن يحضر الحفلات الراقصة والساهرة التي يحييها القوم احتفاء بأحمد جمال باشا!.

ومع هذا فإن سارا تمكنت من أن تتدارك الوسيلة للاجتماع به في اليوم التالي لوصولها إلى دمشق!

فقد أقام عبد الرحمن باشا اليوسف مأدبة عشاء في قصره للأمير فيصل لم يحضرها إلا عدد قليل من المقربين إليه!

وقد رتب الباشا هذه الحفلة بناء على طلب من الآنسة سارا التي أظهرت لعبد الرحمن باشا رغبتها في رؤية الشريف والاجتماع به، وقد قدمها عبد الرحمن باشا إلى فيصل كعالمة نباتية، فاستقبلها الأمير ببشاشة ورقة، وتحدثا مدة عن هذه الشؤون الزراعية وحالة البلاد العربية واحتياجاتها!

كان هذا الحديث يدور أمام الجميع!!

ولما همّ الأمير بالإنصراف وضعت الفتاة في يده رقعة وقالت:

- في هذه الرقعة معلومات خطيرة تهمكم وأنا بانتظار أوامركم.

ولم ينتبه أحد لهذه الحركة!!

● ماذا يحوي الكتاب

أما الشريف فيصل فلم يضطرب لما جاء في هذا الكتاب، بل خاف أن يشعر به أحد إذا هو اجتمع ثانية بسارا، ولم يكن، في ذلك الوقت الحرج، يريد أن يدع وسيلة لأحمد جمال باشا يصطاده بها، ولهذا فإنه لم يرغب في أن يوفد رسولاً من قبله لمقابلة الفتاة!!

إلا أن الفتاة نفسها ما لبثت أن اتصلت به في المساء التالي في دار علي فؤاد باشا رئيس أركان حرب القيادة العليا، فقد تمكنت هذه الفتاة من الاتصال بعلي فؤاد وغيره من القواد الأتراك، وهناك قدمها الباشا ثانية إلى فيصل، إذ تظاهرت بعدم معرفتها إياه، ثم اغتنمت هذه الفرصة وأنبأته بأنها تنتظر الجواب، فقال: سأعمل بموجبه.

والكتاب الذي حملته سارا لو وقع في حوزة جمال باشا لكان كافياً لدفعه إلى اعتقال الشريف فيصل وإعدامه، فالشريف حسين أنبأ ولده في هذا الكتاب بقرب إعلان الثورة العربية، وطلب منه أن يعد العدة لإشراك سوريا في هذه الثورة، حتى إذا رأى البلاد غير مستعدة للاشتراك فيها، اغتنم أقرب فرصة للسفر إلى الحجاز لأن إعلان الثورة يتوقف على ذلك!!

وفي الوقت نفسه قال إن مندوباً سيفد إلى دمشق للتحدث إليه في الأمر وأن بإمكانه أن يعتمد عليه!.

فأدرك فيصل أن هذا الرسول الذي جاء ذكره في الكتاب لم يكن الفتاة، فالتفت إلى هذه الأخيرة عندما أكد لها أنه سيعمل بموجب ما جاء في الكتاب، سائلاً عن الرسول؟!

فقالت: إن الأوامر التي لدي تقضي بإيصال الكتاب إلى سموكم حتى إذا أخذت جواب الموافقة أنبأت الرسول بالأمر فيأتي بعد ثلاثة أيام إلى دمشق!

لم يتمالك فيصل عن أن يسألها اسم الرسول وهويته فأبدت عدم معرفتها شيئاً من هذا، وتظاهرت بالكتمان التام!!

● لورانس في سوريا!

كانت وسائل مراقبة السواحل في سوريا ولبنان وفلسطين ضعيفة جداً حتى في إبان اشتداد الحركات الحربية في فلسطين، ولهذا كان جواسيس الإنكليز واليهود يذهبون ويأتون إلى فلسطين بحرية تامة من غير أن يشعر بهم أحد!.

ولورانس عندما جاء في شباط (فبراير) سنة 1916 إلى فلسطين لمقابلة سارا، لم ينزل في (عتليت) كي لا يلفت أنظار الناس إليه، بل نزل في الجهة الجنوبية من (قيسارية)، المدينة التي تقيم فيها أكثرية جركسية، وكان مرتدياً ملابس الضباط الألمان، ومحلياً صدره بالأوسمة الألمانية، وجاء من هناك ووراءه ثلاثة من البحارة الإنكليز كجنود ألمان، وقابل مدير الناحية وطلب منه إرفاقه ببعض أنفار من الدرك ليتفقد الموقف في الساحل!.

وفي اليوم التالي جاء الملازم الأول إحسان أفندي وقابل الضابط الألماني الذي استقبله بعجرفة ثم قدم إليه أمراً عليه توقيع

جمال باشا نفسه يقضي بمعاضدة حامله بكل ما يطلب، فتولى القائد التركي خدمة لورانس ورفاقه الجواسيس فطافوا القرى الساحلية بأجمعها ووصلوا إلى (عتليت)، وتحت أنظار هذا الضابط التركي اجتمع الجاسوسان وتفاهما، وأوفد لورانس سارا إلى دمشق بعد أن زودها بأحد رجاله لتوصل الرسالة إلى فيصل وتعود بالجواب!!.

ولما جاء الجواب لم يذهب رأساً إلى دمشق بل ذهب إلى حيفا ونزل في أكبر فنادقها بين عشرات من الضباط، ومكث هناك يوماً واحداً ثم استقل قطار السكة الحجازية وسافر إلى دمشق ونزل في فندق (خوام)! وفي مساء اليوم السادس من شهر آذار (مارس) سنة 1916 اجتمع بسارا فأطلعته على كل ما جرى بينها وبين الشريف فيصل، ثم مهدت له سبيل الاجتماع به، وفيه اتفقا على الخطة الواجب اتخاذها لتحريض العشائر السورية على الثورة وإنقاذ الموقوفين في الديوان العرفي في عاليه، ثم غادر لورانس دمشق إلى الحجاز!

أما سارا فإنها توجهت برفقة نور الدين بك إلى بيروت لتنظيم الدعاية في المحيط اللبناني ضد العثمانيين!.

• فشل الاستخبارات التركية!

ولم يكن لدى القيادة العامة الدائرة التي عرفت في الحرب باسم (الجاسوسية ضد الجاسوسية)، بل كان لديها شعب للاستخبارات العسكرية ليس فيها عناصر تساعد على اكتشاف حركات الجواسيس، فالعرب الذين كانت تستخدمهم في هذه المهمة لم يكونوا يظهرون لها شيئاً من الإخلاص، خصوصاً بعد إعلان الثورة العربية، حتى أصبح معظم الضباط والجنود العرب الذين في الجيش العثماني أعداء

للأتراك، ولم يكن الجواسيس الترك يتعدون في مهمتهم هذه حد استكشاف المواقع التي يعسكر فيها الأعداء، أما أسرارهم وما يجري من الأمور خلف الجبهة الحربية للحلفاء وخلف الجبهة العربية للثورة فقد كانوا يجهلونها جهلاً مطبقاً!

• تسرب الأسرار

وقد سخط القائد العام للجيش الرابع على دائرة الاستخبارات العثمانية واستبدل كثيراً من موظفيها، لأن الأسرار العسكرية والأوامر العليا كانت تتسرب إلى الحلفاء بصورة فظيعة. ففي ذلك الوقت أصدرت القيادة العليا أمراً بسحب قوات الاحتياط من «قلعة النخل» إلى غزة واختارت لها الطريق الساحلي، إلا أنها ما كادت تصدر هذه الأوامر ويشرع بتنفيذها حتى كانت دوارع الحلفاء تقطع عليها خط الرجعة وتصليها ناراً حامية!.

ثم قررت القيادة إيفاد قطعة من الجيش إلى معان لتعزيز الحامية فيها، ولم يكد القطار يسير بهذه القوات حتى أصبح عرضة لهجمات الثوار العرب.



وقد عقد أحمد جمال باشا مجلساً عسكرياً في دمشق حضره جمال باشا الصغير (المرسينلي) وعلي فؤاد وبعض أركان حربهما، وبحثوا الموقف، وأبدى أحمد جمال باشا سخطه على هذه الحالة وقرر انتداب اليوزباشي عارف حكمت بك لبحث الأمور ومراقبة هؤلاء الجواسيس، إلا أن عارف بك لم ينجح، لأنه في اليوم الثالث من شهر آب (أغسطس) سنة 1916 وجد قتيلاً في حي القصاع، وقيل

يومئذٍ إنه قتل لأسباب نسائية، مع أن الحقيقة هي أن الجواسيس الذين عرفوا بأمره قتلوه!..

وهنا ازداد سخط أحمد جمال باشا على رجاله، وقرر أن يضع خطة حاسمة ضد هؤلاء الجواسيس، فاختار لهذه الغاية اليوزباشي جواد رفعت رئيس الشعبة الأولى في الفيلق الثامن، فاستدعاه وخاطبه قائلاً:

ـ جواد بك!. ترى أننا بتنا في حالة مؤسفة جداً. فالأعداء مطلعون على كل أسرارنا العسكرية، فلا نقرر شيئاً إلا ويعرفون به، وعلينا والحالة هذه، أن نضع حداً لمثل هذه الأمور!..

ـ إنني على استعداد يا مولاي لكل ما تأمرون به.

ـ يوجد في معسكر الفيلق الثامن وفي مقر الجيش الرابع نفسه جواسيس يعرفون كل ما نقرر، وقد استدعيتك الآن وجعلت حديثنا سراً بيني وبينك لأنني بت أخشى الجميع كما بت معتقداً بأن الجميع جواسيس، فاعمل على الخلاص منهم، ولا ريب بأنهم عرفوا أنك جئت لزيارتي وأن هذه الزيارة تتعلق بهم، فكن يقظاً من هذه الجهة، وأنا أفوضك بكل ما تراه مناسباً لتحقيق ذلك.

فشكره جواد بك على هذه الثقة ثم انصرف إلى مراقبة الضباط في معسكري الجيش الرابع والفيلق الثامن والكتاب من الأنفار، فاستلم (لائحة) بأسماء هؤلاء جميعاً ثم استدعى إليه ثلاثة من رجاله السريين، كلا منهم على حدة، وسلمهم (لائحة) بأسماء هؤلاء الضباط والأنفار طالباً من كل منهم أن يوافيه بمعلومات حقيقية عن حركاتهم وعن كل فرد يتصلون به بصورة جدية أو عادية!. ثم أرسل أمراً إلى مدير الشرطة في دمشق يطلب منه فيه موافاته يومياً بأسماء

الذين يأتون إليها من أبناء البلاد والأجانب!.

وكانت غاية جواد بك من هذا الطلب الأخير معرفة الذين يترددون على دمشق من الأجانب والوطنيين ليقف على علاقة هؤلاء مع ضباط أركان حرب الجيش وكيفية تسرب أسرار الأوامر والخطط العسكرية من هؤلاء إلى جواسيس الأعداء!.

لكن كيف وقعت سارا أرونسون في قبضة الاستخبارات؟ وكيف كانت النهاية لها؟

أما عن وقوع سارا أرونسون في الفخ، فتلك هي الحكاية.

بما أن الذهب دائماً كان الوسيلة!

والذهب الإنكليزي في الأيدي الصهيونية عمل ما لا يعمل!.

ولكن ضمير ضابط تحرك فكشف كل شيء!.

والحكاية بدأت عندما كلف الضابط عدنان شوقي أحد الجنود بأن يشتري له بعض الليرات الذهبية بالعملة المحلية!. فقد كان عدنان يعرف أن الذهب هو العملة الوحيدة التي لا تخسر قيمتها سواء ربحت الحرب هذه الدولة أو تلك!..

❀ ❀ ❀

وعملاً بهذه القاعدة ذهب الجندي إلى السمسار وطاف السمسار على المتاجرين بالذهب وجمع منهم 150 ليرة عثمانية و 50 ليرة من النقود الذهبية الأجنبية ودفعها إلى الضابط الذي استلمها سراً ودفع ثمنها وانتهت القضية!..

وفي المساء حلا لعدنان شوقي أن يتفقد نقوده ليضعها في زناره

(كمره) الذي اعتاد الضباط أن يتمنطقوا به، وفيما هو يفرز هذه النقود لفت نظره ليرتان إنكليزيتان ذهبيتان عليهما تاريخ سكهما (1916)، فوقف حائراً تجاه هذا الاكتشاف!. وأخذ يسائل نفسه عن كيفية تسربهما إلى (الناصرة) البعيدة جداً عن الجبهة الإنكليزية!!

❀ ❀ ❀

ولبث الضابط حائراً! أينبىء قائد الموقع بالحادث؟ فقد يكتشف من ورائه أسراراً خطيرة، أم يسكت خشية أن يفتضح أمره؟ إذ لا بد أن تسأله القيادة عن المصدر الذي جمع منه هذه الثروة! وظل طوال الليل يراجع ضميره إلى أن استقر رأيه في النهاية على أن يحمل الليرتين الذهبيتين إلى قائد موقع الناصرة ويعلنه الحادث دون أن يشير إلى بقية الليرات التي اشتراها إذ لا فائدة للتحقيق من وراء ذلك: ونفذ قراره وعرض على يونس حيدر بك، قائد قوات الناصرة، القطعتين الذهبيتين، وروى له كيفية وصولهما إليه!!

وعلى الفور استدعى يونس حيدر بك، الجندي أحمد الذهني الذي توسط بين الضابط والسمسار، فاعترف بأنه استدعى السمسار حنا مرقص الذي كان وسيطاً في مشترى النقود، وأنه لا يعرف عن الحادث شيئاً غير هذا!..

فطلب يونس حيدر بك من الجندي المذكور أن يأتيه بحنا مرقص لأنه يريد أن يشتري منه ألف ليرة ذهبية!.

فسرّ الجندي، بعد أن خيل إليه أن أمره قد افتضح، وأن يونس حيدر بك سيعاقبه ويرسله إلى الجبهة الحربية! أما وهو يريد شراء الذهب، فهذا يدل على أن الرجل سقط في حبائله، وأنه، أي الجندي، سيصبح ثرياً، لأنه سيكون سمسار القائد!. وعلى هذا فقد أسرع على الفور إلى حنا يبشره بوقوع القائد في حبائله، وأن في

إمكانه أن يبيعه كميات وفيرة من الذهب، ولم ينس الجندي، وهو ذاهب بحنا إلى منزل القائد، أن يتفاهم معه على حصته من الأرباح!!

❁ ❁ ❁

في دار القائد استقبل يونس حيدر بك السمسار ببشاشة ولطف، واتفق معه على صفقة شراء ألف ليرة ذهبية، وسأله أن يسعى لأن يجمع أكبر كمية ممكنة من النقود الذهبية الأجنبية، فكثير من الضباط الأتراك اعتادوا أن يطلبوها منه، وعلى هذا ذهب حنا ليجمع النقود بعد أن ألح عليه يونس حيدر بك أن يأتيه بها في أقرب وقت، وإذا أمكن في مساء اليوم نفسه، وانصرف إلى جمع النقود الذهبية بحيث تمكن من أن يؤمنها في مساء اليوم نفسه، وكان ثلثاها من النقود الذهبية الإنكليزية والفرنسية! وبعد أن تفحص يونس حيدر كل هذه الليرات بدقة دفع ثمنها من الأوراق النقدية وصرف الرجل، ثم عمد إلى فحص الليرات الإنكليزية فوجدها كلها من الليرات القديمة وليس فيها أية قطعة من الليرات المسكوكة سنة 1916!.

ومع هذا رأى القائد ضرورة إجراء التحقيق، فاستدعى حنا مرقص ثانية، فأسرع إليه، ولما ولج إلى مقر القيادة في الناصرة لم يدخل على القائد بل أدخل إلى غرفة منفردة وطلب إليه أن ينتظر فيها ففعل! ولما طال انتظاره بدأ القلق يتسرب إلى نفسه، وحاول الخروج من الغرفة لمقابلة الكاتب وإبلاغه أن عنده أعمالاً تضطره إلى الذهاب، فمنعه الجندي، فاعترض حنا بقوله:

ـ ولكنك على خطأ فأنا لست موقوفاً بل قادم لمقابلة القائد بأعمال خاصة، فدعني أذهب!..

ـ بل أنت موقوف!..

ـ ولماذا؟.

ـ لا أعلم!..

ـ وهل في إمكانك إبلاغ الضابط الخفير (النوبتجي) أني أريد مقابلته؟!

ـ ليس في إمكانك مقابلة أحد مطلقاً، لأن الأمر صريح بمنعك من محادثة أي كان!..

فلما رأى (حنا مرقص) استحالة معرفة سبب توقيفه عن طريق الجندي، بدأ القلق ينتابه، فقد خشي العاقبة، واشتبه بتوقيفه دون أن يستدعيه القائد!

● معرفة السر!.

عاد الضابط الذي أوفده يونس حيدر بك من منزل حنا مرقص حاملاً ما وجده من نقود وأوراق، وانصرف إلى التدقيق فيها، فلم يجد بينها أية قطعة ذهبية قديمة أو أية ورقة تشير إلى علاقة الرجل بدوائر الاستخبارات الأجنبية!!

كذلك فالمعلومات التي طلبها من إدارة الشرطة في (الناصرة) أكدت له ابتعاد الرجل عن الشؤون السياسية وانصرافه إلى التجارة وبيع الذهب، وأنه أوقف بتهمة بيع الذهب مراراً متعددة، إلا أنه كان يتمكن بواسطة رشوة الحكام والضباط من إنقاذ نفسه!.



فاستدعاه القائد، فدخل عليه وهو شديد الاضطراب، خصوصاً بعد الذي تأكده من تبدل لهجة يونس حيدر بك في استقباله، وراح

يتطلع إلى القائد وهو لا يجسر على سؤاله عن الدافع إلى اعتقاله، إلا أن يونس حيدر بك ابتدره بقوله:

ـ هل علمت بالتهمة الخطيرة الموجهة إليك؟!

ـ نعم يا مولاي!.. فقد خالفت القانون وتاجرت بالذهب!.

ـ كلا بل بعتني الذهب برضاي، وإذا كانت ثمة مسؤولية في المتاجرة بالذهب فعلي وعليك معاً لأنك بعت وأنا اشتريت، إلا أن التهمة الموجهة إليك شديدة الخطورة، فأنت لم تبعنا إلا نقوداً مزيفة!!

ـ إذن أنا مزيف يا مولاي؟!

ـ نعم، ولدينا أدلة راهنة على ذلك!

فانتفض حنا مرقص لهذه التهمة التي وجهت إليه وأخذ يجهش بالبكاء محاولاً بشتى الطرق إثبات براءته وابتعاده عن مثل هذه الأمور، فتركه يونس حيدر بك على هذه الحالة هنيهة، ثم قال:

ـ نعم لدينا أدلة على أنك مزيف نقود!.

قال يونس بك حيدر ذلك ثم قرع الجرس مستدعياً عدنان شوقي، فدخل هذا الأخير، وبعد أن أدى التحية العسكرية، التفت إليه القائد وقال:

ـ عدنان بك، إن حنا أفندي ينكر أنه مزيف للنقود فما قولك؟!

ـ إنني أصر يا مولاي على اتهامه بذلك، فقد اشتريت منه أول أمس مبلغاً من الليرات الذهبية وجدت بينها هاتين الليرتين وهما مزيفتان!.

قال ذلك وأخرج الليرتين من جيبه، وألقاهما أمام يونس حيدر

بك، فالتفت هذا الأخير إلى حنا، فانقض حنا بسرعة على الليرتين وفحصهما فتبين له أنهما غير مزيفتين، فسرى عنه وقال:

ـ أراهن يا مولاي برأسي على أن هاتين الليرتين غير مزيفتين!.

ـ كلا أنهما عكس ما تقول، ولدينا أدلة على ذلك، فمن أين أتيت بهما؟

ـ من!.. من!..

ـ ممن؟. قل!..

ـ مولاي، إن عملي هذا يعد خيانة للرجل الذي كان السبب في تأمين معيشتي!!

ـ إذن أنت المسؤول عن ذلك وفي إمكانك الانصراف إلى غرفة التوقيف استعداداً لإرسالك إلى الديوان الحربي بتهمة تزييف النقود وبيعها للجيش!

ـ ولكنهما غير مزيفتين!

ـ انظر إليهما جيداً!

فتناولهما حنا ودقق فيهما، ولما انتبه إلى تاريخ سكهما ظهر عليه الاضطراب وأدرك خطورة الموقف!.

وقد لاحظ يونس حيدر بك أن الرجل فقه الحقيقة فقال له:

ـ هل تأكدت أنهما مزيفتان؟. وإذا حاولت إنكار أنهما مزيفتان، فمن أين أتيت بهما؟ إن الإنكليز...

ـ مولاي إني لم أكن جاسوساً في حياتي، وقد اشتريت كل

النقود التي دفعتها لعدنان بك من الخوري أغناطيوس. . . راعي كنيستنا، وهو رجل تقي لا يمكن أن يتجه إلى الجاسوسية!.

ـ سنرى في الأمر!. . والآن ستظل في ضيافتنا لنرى ما يكون من نتيجة التحقيق!.

● التحقيق مع الخوري!

● لم ينكر الخوري أغناطيوس أنه باع الذهب إلى حنا، وقد أراد أن يلقي على القائد محاضرة في الوطنية عندما سأله عن مصدر الذهب، وحاول أن يثبت له أنه وطني صميم، لأنه يحتفظ بالورق النقدي ضد الذهب، إلا أن القائد أوقفه عن المضي في محاضرته هذه قائلاً:

ـ هل بإمكانك أن تعين لنا المصدر الذي اشتريت منه الليرات الذهبية؟

ـ أنها لدي من قبل الحرب!. .

ـ يا حضرة الأب المحترم، إن رجال الدين لا يكذبون، فهل تقسم على أن هذه الليرات لديك من قبل الحرب؟!

ـ كلا، فهناك بعض من أبناء كنيستي كانوا يأتونني ببعض ما خبأوه لاستبداله بالعملة المحلية!

ـ لقد جاءك مؤخراً من باعك ليرات إنكليزية ذهبية!.

فظهر الاضطراب على محيا الخوري التقي إذ كان يعرف أن اللذين باعاه هاتين الليرتين هما من أبناء رعيته وقد جاءا منذ عشرة أيام من مصر على إحدى سفن الإنكليز!!

وكان يخشى أن يتهم هذين البائسين بالجاسوسية ليقينه ببراءتهما، أو ببراءته هو على الأقل، ولخوفه من أن يؤدي اكتشاف أمرهما إلى إعدام الثلاثة معاً، لذا قرر التمسك بالكتمان ولو كذب في سبيل إنقاذ بريئين، ولم يكن يجهل أن القائد لا يملك الدليل على قدوم الرجلين وبيعهما الذهب منه!. فقال:

ـ أنا على ثقة يا مولاي بأن اللذين باعاني الليرتين لم يكونا جاسوسين، إلا أنهما دخلا البلاد بصورة غير شرعية!..

ـ كن على ثقة بأننا لن نؤذيهما بسبب هذا إذا تأكدت لنا براءتهما، وكل غايتنا أن نعرف منهما الطريق الذي يسلكه هؤلاء الأجانب في دخول بلادنا!.

ولما كان الخوري أغناطيوس على اعتقاد وطيد ببراءة الرجلين صرح باسميهما، وعلى الفور أرسل القائد من استدعاهما وهما يوسف أسعد حنانيا وحنا أبو سعد المهري، فاعترفا أمام القائد بأنهما من أهالي الناصرة، وأنهما جاءا على ظهر غواصة إنكليزية من (بورسعيد) إلى فلسطين. وأنزلا في جوار (عتليت)، وهناك تركا وشأنهما فتوجها إلى الناصرة!.

● كيف اتصلا بالإنكليز؟

وقد أكد لهما يونس حيدر بك أنه سيخلي سبيلهما ولا يحيلهما إلى الديوان الحربي العرفي إذا هما اعترفا بكل شيء، فصرحا قائلين:

ـ تروج في القطر المصري دعايات شديدة ضد العثمانيين لحمل العرب على التطوع ضدهم في هذه البلاد، وقد انقسمت هذه الدعايات إلى قسمين، أحدهما يسعى لحمل الشبان العرب الموجودين

في مصر وغيرها من البلاد الأجنبية على التطوع في صفوف الجيش المحارب ضد العثمانيين في جبهتي الحجاز وفلسطين، والآخر يوفد إلى قلب البلاد للاشتغال بالجاسوسية أو لتحريض إخوانه في داخل البلاد ضد الجندية العثمانية ولإحداث فتن في البلاد. وكنا نحن في القاهرة قبل الحرب، وقد ذهبنا إليها طلباً للعمل، ولما نشبت الحرب بدأت الأخبار تردنا بصورة فظيعة عن انتشار المجاعة في هذه البلاد، وعن موت عشرات من النساء والأطفال والعجز!!

ولما كان لكل منا عائلة كبيرة، فقد قلقت أفكارنا، وعلمنا بحاجة الإنكليز إلى متطوعين سرّيين، فقصدنا مقر القيادة وعرضنا خدماتنا، فوافقت القيادة على استخدامنا في هذه البلاد، وقد مكثنا في مقر القيادة زهاء شهر تلقينا في نهايته الأوامر التالية:

● **أولاً** ـ إن إنكلترا صديقة للعرب، وأن علينا أن نذيع بين أبناء وطننا العرب أن المعاهدة عقدت بين الإنكليز والعرب لتحقيق استقلال هذه البلاد تحت إدارة الملك حسين، وأنه ليس للإنكليز من غاية إلا استقلال هذه البلاد وتحريرها من ظلم الأتراك واستبدادهم!.

● **ثانياً** ـ علينا أن نعمل بكل قوانا لتحريض الجنود العرب في جبهة فلسطين على ترك السلاح والفرار إلى المستعمرات اليهودية التي لديها الأوامر اللازمة لإطعامهم وإيوائهم ومساعدتهم على الفرار!!

● **ثالثاً** ـ توزيع المناشير التي ستصل إلينا!..

أما طريقة وصول هذه المناشير إلينا فهي أن مندوباً من قبل الإنكليز سيفد إلينا وهو يعرف كل حركة من حركاتنا وكل تطور تتطور به نظرتنا، وكانوا يريدون بذلك تهديدنا بأن في وسعهم، وهم بعيدون عنا، معرفة كل ما نصنع!

● **رابعاً** ـ علينا أن نجمع كل ما يمكننا جمعه من المعلومات السياسية والعسكرية في المنطقة التي نحن فيها ونسلمها إلى رسولهم الذي سيزودنا بكل ما نحتاج إليه من مال، وأن في إمكاننا أن نطمئن من هذه الجهة، لأن المال سيردنا بصورة منظمة ما دمنا مخلصين في عملنا، سواء قمنا بعمل أم لم نقم!..

ـ وكَم مضى على مجيئكما إلى فلسطين؟!.

ـ عشرون يوماً لأن المعلومات التي عرفناها ونحن في مصر دلتنا على أن الغواصات الإنكليزية تأتي إلى مياه فلسطين مرتين في الشهر لنقل البريد الذي يردها من مختلف الجواسيس في السلطنة العثمانية ولإرسال التعليمات والمال!.

ـ وأين ترسو هذه الغواصة في فلسطين؟

ـ لقد حدثنا أحد البحارة المصريين، وكان في خدمة أركان الغواصة، بأن الغواصة تأتي إلى مياه (عتليت) مرتين كل شهر!..

ـ وكيف نزلتما من الغواصة؟

ـ نزلنا في زورق بخاري على بعد ثلاثة أميال من البر، ولما اقتربنا من الساحل في الجهة الجنوبية من عتليت لم نر أحداً من الجنود على الساحل، فسرنا من تلك الجهة ووصلنا إلى الناصرة دون أن يعترضنا أحد!

ـ ألم يأت أحد إلى الغواصة حين وصولكما إليها؟!

ـ كلا، بل رأينا ضابطاً إنكليزياً ينزل من الغواصة ويسير على زورق في الجهة المعاكسة لجهتنا، وقد يكونِ قصد الاجتماع بجواسيسه الذين على الشاطىء!..

ـ وخلال هذه المدة التي قضيتماها في الناصرة ألم يأت أحد لمقابلتكما فيها؟

ـ كلا، إنما قرع باب منزل أحدنا في مساء السبت الماضي، أي منذ خمسة أيام، ولما نهض من رقاده ليفتح الباب لم يجد إلا صرة فوقها رقعة كتب عليها ما نصه: (تعاون مع رفيقك على توزيع هذه النشرات)، وكانت عبارة عن مناشير موقعة بإمضاء الملك حسين [بن علي] وتتضمن تحريض الشعب العربي على الثورة، ولما كانت غايتنا الرئيسية من وراء مجيئنا إلى مسقط رأسنا الاجتماع بعائلتينا، لهذا احتفظنا بهذه الأوراق لنتلفها فيما بعد، وقد خبأها حنا في زريبة الماشية خوفاً من العثور عليها!.

فأرسل القائد الضابط عدنان شوقي إلى منزل حنا وبرفقته حنا وعادا برزمة الأوراق التي أثبتت أقوالهما!!

وعلى أثر ذلك أخلى يونس حيدر بك سبيل جميع الذين اعتقلهم في الناصرة، بعد أن أخذ منهم عهداً قاطعاً بأن لا يتدخلوا في أي أمر لئلا يصبحوا عرضة للتهم الخطيرة، ثم انصرف لوضع تقرير رفعه إلى القيادة العامة وإلى (مدحت بك) متصرف لواء القدس المستقل، وأخذ رأيهما في التدابير الواجب اتخاذها في هذا الصدد!.

• اجتماع خطير في القدس

أثارت هذه المعلومات التي بعث بها يونس حيدر بك إلى القدس اهتماماً شديداً في المعسكر العام، لا سيما أن المعلومات الواردة إلى القيادة العامة دلت على وجود عصابة قوية تعمل على التجسس لحساب الحلفاء ضد العثمانيين!.

وعلى الأثر عقد اجتماع في القدس برئاسة (علي فؤاد بك)، درست فيه هذه الأمور بصورة جدية وتليت التقارير السرية الواردة من مختلف الجهات، فتبين منها ما يلي:

● **أولاً** ـ إن للجاسوسية الإنكليزية في البلاد شعبة واسعة النطاق تعمل في محيطين، أحدهما في فلسطين ويشرف على مختلف البلدان العربية، والآخر في تركيا ويشرف على شؤون بلاد الأناضول!.

● **ثانياً** ـ إن الأسرار الحربية والسياسية والعسكرية تتسرب إلى الحلفاء، بصورة منتظمة، وما دام حنا ورفيقه اللذان جاءا في الغواصة من القطر المصري يؤكدان أن الغواصة الإنكليزية تأتي مرتين في الشهر، إلى عتليت، فقد بات من الضرورة مراقبة هذه الجهة ومعرفة الأشخاص الذين يترددون على (عتليت) والذين يتصلون بهم لمعرفة جميع أسرار هذه الشبكة!

● **ثالثاً** ـ معرفة الطرق التي يتبعها هؤلاء في نقل المعلومات من الغواصات وإليها!.

● **رابعاً** ـ معرفة واسطة الاتصال في هذا الشأن!.

● **خامساً** ـ درس موقف قوات المحافظة في (عتليت) والسواحل المجاورة لها، إذ من المؤكد أن الجنود وضباطهم يهملون المراقبة بصورة جدية، فمن الصعب أن يمر رجلان بساحل موضوع تحت مراقبة شديدة ولا يشعر بهما أحد من رجال خفر السواحل!.

وعلى هذا تقرر ما يأتي:

● **أولاً** ـ إرسال برقية شيفرة إلى القيادة العامة في استنبول وإبلاغها هذه المعلومات.

● **ثانياً** ـ وضع مراقبة شديدة على (عتليت) لمعرفة موقف سارا أرونسون من هذه الحركة الواسعة النطاق، ومعرفة الأشخاص المتصلين بها بصورة جدية!.

● **ثالثاً** ـ القيام بجولة لمطاردة الفارين من الخدمة العسكرية في فلسطين، ومعرفة أهمية دعايات سارا هناك!.

● **رابعاً** ـ تجريد حملة لتحقيق هذه الغاية برئاسة عارف بك إبراهيم رئيس بوليس القدس، ويعطى هذا الأخير صلاحية واسعة النطاق، لمطاردة هؤلاء الجواسيس والوصول إلى الغاية الرئيسية من اكتشاف زعمائهم والقضاء على حركاتهم!!

❀ ❀ ❀

عندما تبلغ مدحت بك متصرف القدس هذه المقررات، استدعى إليه عارف بك إبراهيم رئيس بوليس القدس، وأبلغه الموقف قائلاً:

ـ إننا على ثقة وطيدة من ذكائك وإخلاصك. إن البلاد في خطر شديد، فهناك عصابات قوية تعمل على تحريض الجنود على الفرار من الخدمة العسكرية وإخفائهم في المستعمرات اليهودية، وهناك عصابة أشد خطورة وهي عصابة الجواسيس! فبالاتفاق مع القيادة العليا، اعتمدناك لمعالجة هذه القضية ومقاومة هذه العصابة بصورة جدية، فاعمل كل ما في وسعك للقضاء عليها بشرط أن لا تخدع في عملك هذا وأن لا تكون سبباً في توقيف الأبرياء واضطهادهم، لأنني أعتبرك مسؤولاً عن كل ما يقع في هذا الصدد سواء تجاه السلطة العسكرية أو تجاه إدارتي هذه!. وقد وضعت تحت تصرفك كل ما تحتاج إليه من قوات البوليس والجنود للوصول إلى هذه الغاية!.

شكر عارف بك للمتصرف اهتمامه وثقته به، وانصرف لإجراء

تحقيق دقيق حول الأشخاص الذين يقطنون المستعمرات اليهودية المجاورة لعتليت، ثم رأى أن يقوم شخصياً برحلة ليتأكد من رواية الناصريين في الساحل، فطاف هذه المنطقة مدة ثلاثة أيام متوالية دون أن يجد أحداً من الجنود يعترض سبيله أو يسأله عن الغاية من تجواله في هذه المنطقة، فأدرك من هذا أن الجنود لا يكترثون بالواجب، ولا يعنون بالمراقبة!!.



وفي الوقت المعين لاقتراب الغواصة الإنكليزية من عتليت، رأى عارف بك في هذه المنطقة حركة غير عادية، فقد شاهد سارا أرونسون تدخل إلى المختبر الفني الذي شيده أخوها هناك، وفي اليوم التالي شاهد عدداً من الفتيات اليهوديات يصلن من القرى والمستعمرات اليهودية المجاورة!!

وقد لاحظ من أحاديثه مع القرويين العرب هناك أن سارا اعتادت إقامة حفلة راقصة مرة واحدة كل أسبوعين يدعى إليها ضابط خفر الساحل ومعاونو مفرزته، حتى إن كثيراً من الجنود كانوا يتركون مراكزهم ليشاهدوا هذه الحفلة التي تريق فيها سارا أرونسون كثيراً من خمور (ريشون لزيون) المعتقة، وتبذل للجميع الابتسامات الخلاعية!.

وطبعاً أدرك عارف بك أن الغاية الأساسية من إقامة مثل هذه الحفلة هي جمع رجال قوات المحافظة حولها وإضاعة عقولهم بخمرتها المعتقة وحسانها الجميلات!..

ولهذا قرر أن يسهر وحده في تلك الليلة لمعرفة مجريات الأمور!..



راح يراقب دار سارا التي تعج بالحسان والجنود من أفراد خفر الساحل، ثم التفت إلى المنطقة الساحلية الممتدة شمالاً وجنوباً على بعد بضعة كيلومترات من الدار، فوجدها خالية من الجنود، فأدرك أن في ميسور الجواسيس الاستفادة من الظرف الحاضر والاتصال بالأعداء بحرية تامة!.

إلا أن المهم لديه كان معرفة الجهة التي سترسو فيها الغواصة، أو الجهة التي سيتصل فيها الإنكليز بجواسيسهم في البحر، وقد اعتقد عارف بك أن سارا أرونسون هي التي ستقوم بهذه المهمة، فحصر جهده بمراقبتها!.

إلا أن ظنونه ذهبت سدى، لأن الليل انتصف والفتاة لم تخرج من المنزل، ووصلت حفلة الأنس إلى نهايتها وتحول المنزل إلى وكر غرام!

❁ ❁ ❁

وفي تلك الفترة رأى عارف بك شاباً يهودياً يدخل إلى المنزل فتخرج سارا إليه، وبعد أن يحدثها تعود إلى الداخل فتأمر النساء بالانصراف، مما دلّ على أن رسلها قد اتصلوا بمندوبي الغواصة، وأن الغاية من إقامة هذه الحفلة قد تحققت!!

ولما أدرك عارف بك الحقيقة تعقب الشاب اليهودي الذي عاد هادىء الأعصاب غير عالم بوجود من يراقبه، إلى معمل (الكحول) الكبير الواقع في (ريشون لزيون) ولم يخرج منه!..

بعد ذلك اجتمع عارف بك باثنين من رجاله السريين، فأبلغاه أن ثلاثة من اليهود قدموا بعد الغروب إلى المعمل، وفي الساعة العاشرة

من المساء غادر أحدهم مع الشاب اليهودي المعمل إلى جهة مجهولة، وغابا حوالي ثلاث ساعات!.

وفي الساعة الواحدة، بعد منتصف الليل عاد اليهودي المجهول وحده ولم يمكث إلا عشر دقائق ثم ذهب مع رفيقيه الآخرين إلى جهة مجهولة، وبعد مرور ساعة على الحادث حضر الشاب الذي كان يترصده عارف بك، وهذا كل ما في الأمر!.

وعلى الأثر رأى عارف بك ضرورة معرفة حقيقة مهمة أفراد هذه العصابة، فاستدعى أحد رجاله السريين، وخاطبه قائلاً:

ـ عثمان، أعهد فيك الذكاء والمقدرة!. فاذهب وجئني بأسماء هؤلاء الأشخاص، وأعدك بأن أعينك في وظيفة محترمة.

وعثمان من عائلة بيروتية معروفة، إلا أنه كجميع العثمانيين في ذلك الوقت، لم يكن يعرف إلا باسم عثمان البيروتي، وقد استخدم مدة في مؤسسة (أورزدي باك)، فتعرف هناك إلى بعض اليهود، ثم نقل إلى فلسطين فعين موظفاً في ميناء (قيسارية)، ولما أعلنت الحرب نقل للخدمة العسكرية ثم ألحق بخدمة رئيس بوليس القدس!..

وقد عرف عارف بك بعثمان أفندي الجد والإخلاص، فأراد استخدامه في هذه المهمة، فحول إليه الصلاحية التامة في التنقل حيثما يشاء بشرط أن يأتيه بما يريده منه!.

❀ ❀ ❀

ارتاح عثمان أفندي إلى هذه المهمة لأنها تمكنه من إظهار ذكائه ومواهبه من جهة، وتعيده إلى وطنه وتكسبه وظيفة حسنة من جهة أخرى، ولهذا انصرف وكله أمل وطيد في الحصول على ما يريد!.

• تعزيز القوة المحافظة

وبعد أن زود عارف بك الجندي عثمان ورجاله الآخرين بالتعليمات الواجب اتخاذها لمعرفة هوية هؤلاء الجواسيس، انصرف إلى كتابة تقرير ضاف ليرسله إلى مدحت بك متصرف القدس يشعره فيه بالأمور التي وقعت حتى ذلك الوقت وعدم تمسك الجنود بواجبهم، وبخطورة الحالة في تلك الجهات، ويطلب في النهاية احتلال (عتليت) والمختبر الكيماوي الموجود فيها، واتخاذهما كمقر لقوة من الجنود!.

وقد وافقت القيادة على هذا التدبير فوراً وأرسلت قوة من الجنود إلى (عتليت) بصورة مفاجئة، فاحتلت القرية والمختبر، وقام قائدها بتحرياته هناك إلا أنه لم يعثر على أي أثر يدل على حقيقة علاقة سارا أرونسون بهؤلاء الجواسيس!!

واحتلال (عتليت) عسكرياً لم يرب سارا أرونسون ورفاقها، إذ كانوا على ثقة تامة من أن أمرهم خفي عن الترك!. ولكن تراءى لهم أن احتلال هذه المنطقة بهذه القوة الكبيرة لا يفيدهم، بل قد يضرهم، وأن من الواجب اطلاع السفن الحربية الإنكليزية على ذلك! ففعلوا ذلك بوساطة آلات لاسلكية مرسلة مكنتهم من إرسال الإشارات إلى السفن الحربية عن حقيقة الموقف، وعلى أثر ذلك تبدل موعد مجيء الغواصة، أو تحولت إلى جهة أخرى، وهو أمر لم يتمكن عارف بك من استجلاء أسراره!.

• استخدام الحمام الزاجل

بعد مرور عشرة أيام على احتلال القوات العثمانية لمركز (عتليت) كثر مرور الحمام من هذه الناحية، ولم يلفت إلا أنظار

عارف بك، فراح يتعقب الحمام فرآه يأتي من جهة البحر ويذهب إلى (زمارين) ثم يعود منها وقد تعذر عليه رؤية المنزل الذي يحط عليه الحمام في (زمارين)، فاشتبه بهذا الحمام أن يكون حمام المراسلات الجاسوسية، فترقب واحدة منه وهي قادمة من البحر على بعد من (زمارين) ورماها بالرصاص فأصاب منها مقتلاً، ولما سقطت على الأرض أسرع إليها والتقطها فوجد في قدمها خلخالاً ضمنه رقعة صغيرة ففتحها فلم يعرف منها شيئاً، لأنها كانت مكتوبة بالرموز السرية، فاعتقد أن فيها دليلاً قاطعاً على حقيقة الجواسيس الذين يترقبهم فتوجه فوراً إلى القدس وعرض الورقة بنفسه على مدحت بك متصرف القدس، وهذا الأخير عرضها على أركان الحرب، فبذلوا كل ما لديهم من جهود في سبيل حل رموزها دون جدوى، إذ ظلت سراً من الأسرار!

وعلى هذا سار عارف بك إلى مقر عمله لمتابعة مهمته وهو أشد ثقة من أن دوائر أركان الحرب العثمانية ودوائر الاستخبارات عاجزة، ليس عن مكافحة الجاسوسية الصهيونية فحسب، بل عن معرفة الأدوار التي تمثلها في بلادها أيضاً!!

وفي اليوم الذي عاد فيه إلى (عتليت)، وكان إلى ذلك الوقت لا يزال متنكراً بثياب قروي، جاء عثمان البيروتي وأنبأه بأن خمسة أشخاص من الغرباء ويظنهم من اليهود جاؤوا إلى معمل كحول (ريشون لزيون) وليس بينهم أحد من الأشخاص الثلاثة المشتبه بهم، ومع هذا فقد اعتقد أن لهؤلاء الخمسة علاقة بجواسيس اليهود لأن أحدهم زار منزل سارا بزمارين، ثم عاد رأساً إلى المعمل!.

وفي صباح اليوم التالي عاد رفيقاه وأبلغاه أن اثنين من

الجواسيس الخمسة توجها إلى القدس والثالث توجه إلى (خان يونس) والرابع توجه إلى (حيفا) والخامس إلى جهة مجهولة!.

فذهب عارف بك إلى إدارة البرق وأرسل برقية شيفرة إلى مدحت بك يطلعه فيها على أوصاف هؤلاء الأشخاص الخمسة كما سردها له عثمان لوضعهم تحت المراقبة الشديدة ومعرفة الوجهة التي اتجهوا إليها!.

وقد اهتم متصرف القدس لأمر هذه البرقية التي حولها فوراً إلى علي فؤاد باشا، وهذا بدوره أبرق إلى قواعد المناطق في الجبهة يعلنهم الأمر، وفي هذا الوقت شوهد في قرية (قالونيا) المجاورة للقدس ثلاثة أشخاص من البدو فراحوا يراقبونهم مراقبة دقيقة، وكان أحد هؤلاء الثلاثة جاسوساً من جواسيس اليهود الخمسة المطلوبين، أو بالأحرى زعيم هؤلاء وهو معروف باسم (ليتشانسكي)، وكان قد عرف بواسطة جواسيسه الذين في داخل معسكر الفيلق بأمر المخابرات السرية التي عممها قائد الفيلق على القواعد لتوقيفه وتوقيف رفاقه، فخاف العاقبة وقرر الاستعانة بسكان المنطقة الذين اعتاد هو وأمثاله الاستعانة بهم كأدلاء يرشدونهم إلى الطرق التي لا يعرفها الأتراك والتي تمكنهم من الوصول إلى الحدود دون أن يشعر بهم أحد!!

❀ ❀ ❀

اجتمع ليتشانسكي باثنين من هؤلاء الأدلاء المساكين، وهما أحمد الشيخ خصيري ويوسف أبو رفيدة من العرب الذين صرفوا حياتهم في رعي الماشية!.

ولما كان الجاسوس اليهودي يخشى سوء العاقبة، بعد المراقبة الدقيقة، وهو يحمل أوراقاً تتضمن جميع معلومات جواسيسه لإيصالها

إلى القيادة الإنكليزية في الجبهة الحربية، فقد استعان بهذين البدويين للاختفاء في قريتهما قالونيا، فذهبا إليها، وهناك أعطياه ثياباً كثيابهما، وأقام عندهما!!

وكان الباش جاويش إحسان أفندي من المولجين المراقبة في هذه القرية!.. فشاهد هؤلاء الثلاثة وكان يعلم بمساعي أحمد ويوسف، فاعتقد أنه وقع على الجاسوس بشخص رفيقهما، ومع أنه كان وحيداً فقد هدد الثلاثة وكانوا عزلاً من السلاح، واعتقلهم وربطهم بحبل كان معه، وهم بسوقهم إلى مقر القيادة!.

إلا أن ليتشانسكي أبى أن يقع فريسة بين أيدي الأتراك الذين سيعدمونه فوراً بلا أدنى شك!. فالتفت إلى الباش شاويش وأفهمه بصراحة أنه جاسوس يهودي، وأنه على استعداد لأن يدفع له ألف ليرة تركية أو مئتي ليرة ذهبية فوراً إذا أخلى سبيله!.

كانت هذه المفاجأة موضع حيرة واضطراب الباش شاويش، فأخذ يزن واجبه الوطني بالمال، فرجح الأخير على الأول، وأخلى سبيل الجاسوس، واحتفظ بالقرويين، وقادهما إلى المركز معلناً فؤاد باشا بفوزه الباهر هذا!

● إعدام البريئين!

كان علي فؤاد باشا في حالة استياء شديدة من تعدد حوادث الجاسوسية واشتراك أبناء البلاد بها، فاندفع هذه المرة مع تيار العاطفة، وشكل في ذلك اليوم مجلساً عسكرياً تولى محاكمة هذين الرجلين اللذين اعترفا نظراً لسذاجتهما بما كان من أمر الجاسوس الذي لا يعرفان هويته، إلا أنهما لم يشيرا إلى طريقة فراره، إذ كانا يعتقدان أن المجلس لن يحكم عليهما بل أنه سيخلي سبيلهما!..

على أن الأمر كان عكس ذلك، لأن المجلس الحربي العسكري حكم عليهما بالإعدام، وأبلغ الحكم برقياً إلى علي فؤاد باشا فصدقه فوراً! وفي صباح اليوم التالي أعدما شنقاً في قريتهما (قالونيا) نفسها دون أن يتمكنا من الدفاع عن نفسيهما، لأن الذي تولى الإشراف على تنفيذ الإعدام كان الباش جاويش إحسان الذي كان السبب في اعتقالهما وإخلاء سبيل الجاسوس الحقيقي!..

• خطة مطاردة الجواسيس

لم يكن من السهل تتبع أثر اليهودي في فلسطين، لأن بني قومه لا بد أن يعمدوا إلى إخفائه عندما يعلمون أن الحكومة جادة في طلبه، ولهذا كان من المستحيل على عثمان البيروتي ورفيقيه إظهار حقيقة هويتهم، كما أنه كان من المتعذر عليهم التجول في القرى اليهودية بدون صفة، ولذا فقد اتخذوا لأنفسهم صفة موظفي دائرة المالية المولجين بجباية الرسوم الأميرية، وبهذه الصفة كانوا يستطيعون مراقبة الأعداء دون خوف!!

وكان لليهود في هذه المنطقة عدة قرى استولوا عليها من العرب، وباشروا استعمارها، وهي أم العلق وبريكة والمراح ورازية وكركور بيديس، فقصدوا هذه القرى الواحدة تلو الأخرى، وعرفوا من أهلها العرب أن ثلاثة من اليهود الغرباء كانوا يترددون على قرية «كركور بيديس» وإنهم قدموا إليها منذ أيام ثم رحلوا بعد أن مكثوا في منزل مختار القرية ثلاثة أيام!..

فاكتفى عثمان ورفيقاه بهذه المعلومات لتتبع الأثر في الجهة التي قيل لهم إن هؤلاء الجواسيس ذهبوا إليها!..

إلا أنه لم يكن في المنطقة التي أرادوا الذهاب إليها مسلمون أو

نصارى، بل يهود، وهؤلاء من الصعب استجلاء الأسرار منهم، ولكن عثمان اعتمد على مهارته والصدف التي كثيراً ما تخدم الشرطي في تتبع الحقائق، فقصدوا (ملبس) ونزلوا في فندق القرية، وهو فندق نظيف يديره يهودي، فرحب بالقادمين ثم جاءهم بـ باروج دبينويس مختار القرية، ففاوضوه في مسألة الرسوم الأميرية المترتبة على القرية!. واغتنموا هذه الفرصة للبحث معه في عدد الغرباء الذين في القرية، فأنكر باروج وجود أحد منهم قائلاً إن اثنين من الغرباء فقط مرا في القرية منذ أسبوع وأنهما من سكان (زمارين)، ولا علاقة لهما بالقرية والرسوم المترتبة عليها!

وقد أفادت هذه المعلومات عثمان، فطلب مقابلة هذين الرجلين لأنهما قد يكونان من المديونين، وسرعان ما لفظ المختار كلمة دلت على حقيقة هوية الجاسوس الخطير، قال:

ـ أحد هذين الرجلين نهمان بلكند، وهو من أثرياء المنطقة وليس من الأشخاص الذين يتهربون من دفع الرسوم الأميرية المترتبة عليهم، وهو صديق لآل أرونسون زعماء قرية (زمارين)!!

وكانت هذه المعلومات كافية لمساعدة رئيسه عارف بك على رفع الستار الذي احتجب وراءه جواسيس اليهود طويلاً!.

وزاد في إيضاح ذلك المعلومات التي وردت من دائرة استخبارات النمسا عن عصابة الجواسيس اليهود التي اعتقلت هناك والتي أعدم فيها بعض أشخاص بينهم خطيب سارا أرونسون، وبذلك وقعت الشبهة على سارا أرونسون ومن في منزلها، وتقرر وضع رقابة شديدة عليها! ثم توجه عارف بك إلى القدس، وعرض هذه

المعلومات وما لديه من معلومات أخرى عن الجواسيس الآخرين، فلم يصدقه المتصرف وقال له:

ـ أعتقد أنك على ضلال في هذه التهم التي توجّهها إلى سارا أرونسون ورفاقها، ولذا أطلب إليك أن تصرف انتباهك وجهة أخرى!!

ـ ولكن المعلومات التي بسطتها لكم تؤيد هذه الحقيقة الناصعة، وأرى من واجبي أن أحصل على موافقتكم في هذا الشأن لأتمكن من مطاردة هؤلاء الجواسيس، وفي مقدمة الأمور توقيف سارا أرونسون، وتحري معمل الكحول وتوقيف من اشتبه به!.

ـ لن أوافقك على هذه الأمور، فأحمد جمال باشا كما تعلمون يعطف على سارا عطفاً خاصاً! ولنفرض أنها جاسوسة فلن أوافق على إنزال الأذى بها تحاشياً لغضب الباشا!..

ـ إذن أرجو منك إقالتي من هذه المهمة!.

ـ كلا، بل أجعلك مسؤولاً عن كل ما يحدث، فإذا شاءت الصدف أن تظهر براءة سارا ورفاقها فأنت مسؤول عن ذلك بروحك، وسأكون أول من يطالب بإعدامك، فهل تقبل؟

ـ نعم!

ـ وإذا غضب جمال باشا؟!

ـ إن الواجب الوطني يحتم علينا أن لا نهتم لاستياء أحد، وإذا شاءت الصدف أن تثبت جرم سارا أرونسون فيكون أحمد جمال باشا أول من يهنىء صاحب الدولة المتصرف!..

ـ إذن أتكل عليك وألقي كل مسؤولية في هذا الشأن على عاتقك! . وماذا تطلب الآن؟

ـ **أولاً**: إصدار أمر للقائد يونس حيدر بك قائد المنطقة بأن يعمل بالتعليمات التي سأزوده بها في هذا الشأن! .

ـ **ثانياً**: أن تحتل قوة من الجند (زمارين)، وقوة أخرى معمل المشروبات الكحولية في ريشون لزيون (زمارين)!

ـ لك ذلك!

وهنا شكر عارف بك للمتصرف عنايته هذه، وتوجه إلى (الناصرة) وقابل يونس حيدر بك وبحث معه القضية، واتفقا على الخطة الواجب اتباعها لمكافحة الجاسوسية!

• ماذا يجري في منزل سارا؟

وفي هذا الحين كان بعض الجواسيس في منزل سارا يحدثونها عن تطور التحقيق في قضيتهم، وعن تولي عارف بك التحقيق فيها! .

نصحها ليتشانسكي بضرورة مغادرة (زمارين) على إحدى الدوارع الإنكليزية إلى مصر! .

إلا أن سارا رفضت هذه النصيحة قائلة:

ـ لنفرض أن الأتراك اشتبهوا بي، فليس لديهم أي دليل مادي على اشتراكي في هذه القضية، وقد أخفيت الآلة اللاسلكية كما أخفيت كل الأوراق السرية المتعلقة بمخابرات الشيفرة، وعلى هذا فليس في إمكانهم إدانتي! . أما فراري فسيكون خطراً على شقيقتي روبيكا وشقيقي سام المقيمين هنا! وأخشى أن ينتقم منهما الأتراك، وربما اتهموهما بالجاسوسية وأعدموهما، ولذا فسأظل هنا إلى

النهاية، أما أنتم فبإمكانكم الابتعاد وعدم التردد على هذه المنطقة ريثما تمر العاصفة!..

ذهبت جهود ليتشانسكي ورفاقه في إقناع سارا أدراج الرياح، فغادروا القرية. وبعد مغادرتهم إياها بساعتين داهمت القرية قوة كبيرة من الجنود فاحتلتها، وكان معمل المشروبات الذي يضم مئات من العمال والعاملات لا يزال يعمل بنشاط رغم توقف دولاب العمل في مختلف أنحاء السلطنة العثمانية، فاحتله الجنود وأخرجوا من فيه من عمال وعاملات، وقاموا بالتفتيش بصورة دقيقة فلم يعثروا فيه لا على الآلات اللاسلكية المرسلة ولا على أي أثر يدل على اشتراك من في المعمل بالعمليات الجاسوسية!.

وتوجهت قوة ثانية فاحتلت منزل سارا أرونسون وكل المنازل المجاورة له أو المتصلة ولو جزئياً بهذه العائلة!.

وكانت الشمس لم تشرق بعد عندما داهمت هذه القوات قرية (زمارين)، فأفاق الجميع من رقادهم، وكان المجال واسعاً لتحري عشرات الأشخاص الموضوعين تحت الرقابة، وقد جرت التحريات بدقة زائدة، إلا أنه لم يعثر في أحد هذه المنازل على أي أثر!.

وفتشت سارا أرونسون نفسها تفتيشاً دقيقاً فلم يعثر معها أو في منزلها على دليل!. وكانت سارا أرونسون على اعتقاد وطيد بأن الأتراك سيكتفون بهذه التحريات!.

إلا أن ظنونها هذه خابت!. فإن قائد الحملة أبلغها أن الأوامر التي لديه، صريحة، بتوقيفها وتوقيف أفراد عائلتها جميعاً وسوقهم إلى مقر القيادة، وقد فعل ذلك وقادها مع من أوقف من أفراد العصابة وزعماء اليهود إلى دار المختار حيث كان هناك جمال باشا المرسينلي

الذي جاء خصيصاً ليشهد عملية مطاردة الجواسيس وبرفقته علي فؤاد باشا ويونس حيدر بك وياسين بك الجابي!

ولما استدعيت سارا للمثول بين يدي الباشا ورفاقه، استرحمت القائد السماح لها بالذهاب إلى منزلها لارتداء ملابسها، فاقتنع القائد، وخابر الباشا بالأمر فوافق على أن تذهب تحت الحراسة، وأرفقت بالملازم إبراهيم بك وبعشرة جنود ظلوا يراقبونها خارجاً، ودخل الضابط برفقتها إلى المنزل ثم إلى غرفتها، وهناك التفتت سارا إلى الضابط قائلة:

ـ إنكم معشر الأتراك تحافظون على العرض كثيراً، فهل يجوز أن تخلع فتاة ثيابها أمامكم؟

ـ كلا، ولكن. . .

ـ لا خوف من فراري والنوافذ مقفلة، كما أني لا أستطيع أن أخفي شيئاً!.

فحول إبراهيم بك ظهره ليمكنها من نزع ثيابها الداخلية وهي تحدثه بقولها:

ـ لقد كنت لطيفاً معي، ولذا سأصارحك بالحقيقة، وبإمكانك نقلها إلى رؤسائك، فأنا جاسوسة، وقد أدرت وحدي حلقة الجاسوسية دون أن يكون لي شريك! فأخواي آرون وأليك يشتغلان في مصلحة الجاسوسية الإنكليزية، وقد طلبا مني مساعدتهما في التجسس عليكم، ففعلت راضية، إلا أن بقية أفراد عائلتي الذين في دار المختار أبرياء من هذه الحركة وأقسم لك على صحة ما أقول بكل ما هو مقدس لدي، وأرجو منك أن تنقل هذه الكلمات حرفياً إلى رؤسائك ليكونوا على ثقة تامة مما أقوله لكم!..

ـ إن اعترافاتك هذه يا حضرة الآنسة خطيرة، والإدلاء بها إلي لا يفيد أبداً، فالقواد بانتظارك في دار المختار، وفي إمكانك نقلها إليهم بصراحة تامة ليصير تسجيلها، أما أنا فسأكون شاهداً على اعترافاتك هذه كي لا تعمدي فيما بعد إلى إنكارها!..

فابتسمت سارا ابتسامة مرة وقالت:

ـ لو كنت عازمة على الإنكار لما اعترفت بشيء!..

● الانتحار!.

وكانت سارا منذ طلبت الذهاب إلى منزلها قد عزمت على الانتحار، إذ خيل إليها أن الانتحار هو الطريق الوحيد الذي يمكنها من إنقاذ أهلها، فوضعت مسدساً صغيراً كان لديها ضمن رزمة من القطن خبأتها في غرفة الزينة المجاورة لغرفة رقادها، وبعد أن ارتدت ملابسها لم يبق لها إلا الوصول إلى هذا المسدس، ولهذا استأذنت الملازم إبراهيم بك أن يسمح لها بدخول غرفة الحمام الواقعة بجانب غرفة الزينة!..

❀ ❀ ❀

● وتروج شائعتان في هذا الصدد:

الأولى: هي أن الفتاة أرادت إغراء هذا الضابط الشاب بجمالها ليساعدها على الفرار، فتتمكن من النجاة!.

● **والأخرى**: هي أنها، بعد أن رأت أبواب النجاة مسدودة في وجهها، أرادت قتل الضابط والانتحار!.

على أن الملازم إبراهيم اعترف لدى جمال باشا ورفاقه قائلاً:

ـ أبلغتني الفتاة أنها بحاجة ملحة إلى دخول الحمام، فعجبت من أمرها هذا بعد ارتدائها ملابسها، ورأيت في عملها هذا شيئاً من المماطلة، فقلت لها إن الباشا ورفاقه في انتظارنا وليس من المستحسن أن تتأخر، فابتسمت وقالت إن كل شيء سينتهي في خمس دقائق، ثم فتحت درج المغسلة وتناولت منه قطعة من القطن لم أنتبه لما تحتويه إذ لم يخطر في بالي أن هذه القطعة من القطن تحوي مسدساً صغيراً، وما كادت الفتاة تخرج من غرفة الزينة إلى الحمام حتى دوى عيار ناري واحد، فدخلت الحمام فوجدت الفتاة تتخبط في دمائها!..



● مصرع سارا أرونسون

أثرت هذه الحادثة تأثيراً عظيماً بالملازم إبراهيم بك الذي خاف عاقبة الحادث، وخشي أن يتهم باقترافه الجريمة، ولما كانت الفتاة لم تمت بعد، فقد أوفد أحد رجاله إلى دار المختار لينبىء القواد بالحادث، فأسرعوا إلى دار أرونسون فوجدوا الجاسوسة في حالة النزع الأخير، ولما شاهدتهم قالت:

ـ أنا المسؤولة وحدي عن هذه الحوادث، فأنا فتاة صهيونية صممت على مقاومة السياسة العثمانية وتأييد السياسة الإنكليزية التي وعدت بمنحنا الوطن القومي في فلسطين، فتجسست عليكم وقمت بكل هذه الأمور بالاتفاق مع أخوي ألكسي وآرون، أما شقيقي سام وشقيقتي روبيكا فليس لهما دخل في أمورنا!..

وبعد أن ناشدت سارا جمال باشا أن لا يؤذي أخوتها، فقدت

رشدها ونقلت إلى المستشفى حيث بقيت يومين ثم فارقت الحياة!.

❀ ❀ ❀

● لم تنته حلقة الجاسوسية التي ترأستها الصهيونية (سارا أرونسون) بانتحار هذه الجاسوسة، بل تبعتها ذيول وحواش، فسارا رغم ذكائها ومهارتها في إدارة هذه العصابة، ورغم كل الجهود التي بذلتها لإخفاء جميع الأوراق، لم تخف دفتر مذكراتها الصغير الذي كانت تدون فيه حوادثها كل يوم!.. وهذا الدفتر الصغير الذي ألقته في بئر ماء قرب المنزل، عثر عليه في قاع البئر مع كثير من الأوراق التي استخدمتها هذه الجاسوسة، ومع أن مياه البئر أفسدت محتويات الأوراق، إلا أنها حفظت دفتر المذكرات اليومية، فنقل إلى مقر الفيلق الثامن مع جميع الأوراق الخصوصية التي وجدت مع سام وروبيكا، وفي المختبر الكيماوي في (عتليت)، وعهد بفحص هذه الأوراق وترجمتها إلى الضابط عبد الرحمن بك النصولي معاون مدير الشعبة الأولى، فانصرف إلى توضيب هذه الأوراق وترجمتها وترجمة سائر الرسائل الخصوصية الواردة إلى سارا وأقاربها، ولم يفد التحقيق في كل هذه الأمور إلا دفتر مذكرات سارا فقد وجدت فيه أسماء الجواسيس والأشخاص الذين تعاونت معهم في فلسطين وبيروت وولاية سوريا، وفي جملة هؤلاء الأشخاص رؤساء الحركة الجاسوسية، وهم: ليتشانسكي، ونهمان بلكند، وجوزف طوبيا!..

وعلى أثر هذا الحادث أمر أحمد جمال باشا بإجراء تحقيق على نوعين:

● **الأول** ـ مع الأشخاص الوارد ذكرهم في مذكرات الفتاة،

ووضعهم جميعهم تحت المراقبة، ومعرفة مقدار علاقاتهم مع سارا!..

● **الثاني** ـ مطاردة ليتشانسكي ورفاقه الثلاثة، باعتبارهم زعماء الجواسيس، وتوقيفهم!

وقد عهد بالأمر الأول إلى هيئة برئاسة خليل رفعت بك، وعهد بالأمر الثاني إلى عارف بك الذي تمكن بدهائه ومهارته من معرفة أسرار هذه القضية والاهتداء إلى الطريق التي أدت إلى معرفة حقيقة سارا ورفاقها!.

سَاشَا ماتسوكا(*)
(Sacha Matsoka)
(-)

هي إحدى جاسوسات المخابرات اليابانية ضد الحلفاء، لا سيما الولايات المتحدة الأميركية.

حيث قبيل دخول اليابان الحرب العالمية الثانية، كان في واشنطن وفد ياباني يفاوض حكومتها على عقد اتفاق تجاري بين الدولتين، وكان الهدف أن يكون الكف عن التنافس التجاري بين اليابان وأمريكا مقدمة للتنافس السياسي بين الدولتين في الباسفيك، وبذلك ينعم نصف الكرة الغربي والشرق الأقصى بالسلام.

هذه على الأقل النية المعلنة لوزارة الخارجية ورئاسة الوزارة في طوكيو، ولكن العسكريين كانوا يرون أوروبا تنهار تحت أقدام قوات هتلر بسهولة تامة، فكيف يفعل النازيون ذلك ويقفوا حماة اليابان وعرش (ابن الشمس) مكتوفي الأيدي لا ينهلون من هذا المورد العذب قليلاً أو كثيراً، مورد الضحايا الذاتية القطاف والبلاد التي تتساقط واحدة بعد الأخرى في سهولة وبساطة.

(*) **المرجع**: سمير عبده «التحليل النفسي للجاسوسية»، دار الكاتب العربي، دمشق 1989. ص 363 ـ 368.

كان قصر الامبراطور هيروهيتو، سليل الآلهة، أشبه بمعبد لا يقتحمه غير المطهرين، ولكن العسكريين كانوا يتصلون بجلالته رأساً، فقد كان أكثرهم من عصابة الساموراي العسكرية السرية التي حكمت اليابان من وراء الستار عدة قرون. وكان أفراد هذه العصابات أعظم حماة العرش، وقد بذل أكثر من واحد من أعضائها النفس رخيصة لتنفيذ كلمة يفوه بها أي امبراطور، على مرّ الأجيال المتعاقبة، ولهذا أذن الامبراطور بوفد عسكري أن يجتمع بجلالته طويلاً، ثم خرج الوفد ليجتمع برجال الأسطول.

اجتمع الجنرال توجو وحفنة من رجال المطامع في الجيش بالأميرال فومورا (ثعلب الأسطول) والأميرال نجازا وغيرهما من أبطال البحرية، وذلك في النادي البحري بطوكيو، وجلسوا في حجرة مغلقة الأبواب، في خارجها ضابط يمنع الإنصات والتجسس، ثم أخرج توجو من جيبه رسالة قرأها على الزملاء وصاحوا صيحة واحدة (البدار فإنها فرصة لن تعوض)، وبعد قليل من هذا المؤتمر السري صدر الأمر إلى الطائرات اليابانية بمهاجمة الأسطول الأميركي في قاعدة بيرل هاربر.



حدثت وقائع هذه الأحداث في ميناء سورابايا، وقد كان قاعدة بحرية كبيرة للأسطول الهولندي قبل أن تصبح أندونيسيا دولة مستقلة. في ذلك الوقت كانت هولندا في حرب مع ألمانيا، ولكن السلام كان يسود الشرق الأقصى بسبب بعد الألمان وجنود الدوتشي عنه، فكانت الملكة (ولهلمينا) تنفق على حكومتها المنفية في لندن من أموال جزر الهند الشرقية التي أصبح جزء كبير منها يؤلف جمهورية أندونيسيا اليوم.

وكان محظوراً على المدنيين أن يدخلوا ميناء سورابايا بغير إذن، ولكن مدمرة أمريكية دخلته يوماً وأقام ضباطها حفلة ساهرة دعوا إليها راقصات حسناوات يابانيات وصينيات وهولنديات ووطنيات ممن كانت موانىء الشرق الأقصى وما زالت تعج بهن، وكانت بينهن ساشا ماتسوكا، وهي حسناء يابانية اشتهرت برقصاتها الرائعة وعينيها النجلاوين وجسدها البضّ المثير.

ولسوء طالع العالم، وطالع أمريكا خصوصاً، أعجب ربان المدمرة وقائدها بالفتاة وصحبها معه إلى سفينة كانت أشبه ببناء بحري لقضاء السهرة مع زميلات وصديقات، وشرب الجميع الخمر حتى ثملوا وركبوا رؤوسهم وزاغت أبصارهم واحمرت وجناتهم، فأصبحوا لا يعون ما يقولون، وإذا بقائد المدمرة يميل في نشوته ليقول للراقصة ساشا أنه مقلع بسفينته غداً، وأنه سيجتمع بعدد كبير من السفن الحربية الأمريكية في ميناء (بيرل هاربر)، وأن هذا التجمع قد يكون مقدمة للمناورات، وأنه لا ريب عائد إليها بعد انتهاء المهمة التي سيكلف بها هناك.

ما إن سمعت الفتاة هذا الخبر حتى أسرعت إلى الخارج حيث وصلت إلى قرية قريبة للصيادين، وكان قائد المدمرة قد استأجر لها سيارة وأراد أن يصل معها إلى حيث تريد فاعتذرت، وقالت إنها ذاهبة إلى القرية لأمر (عائلي) ولا تريد أن يطلع أحد على ما تعانيه أسرتها من فقر مدقع رغم ما تعطيهم من هبات.

وخجل قائد المدمرة من إلحاحه في مرافقتها، ثم خدعته حيلتها ونفحها مبلغاً يسيراً من المال وعاد أدراجه بسيارته بعد أن بلغت مشارف القرية، وتسللت الفتاة بين أزقّة القرية وأهلها نيام حتى وصلت

إلى كوخ حقير المنظر فطرقته ففتح لها رجل من الجنس الأصفر بحذر وتلصص، حتى إذا ما وثق بأنها ساشا سمح لها بالدخول. ولم يكن هذا (الأصفر) سوى جاسوس ياباني يتعاون معها على التقاط أنباء أساطيل الحلفاء، وكانت اليابان تتأهب للحرب من عهد طويل وتتحيّن الفرص لذلك، باتفاق سري مع هتلر وزعماء النازية والفاشية في أوروبا.

وبعد أن أسمعته ما قاله قائد المدمرة، أخرج من جوف صندوق في الحجرة آلة إرسال لاسلكي، وبعد ساعة كان الجنرال توجو قد تلقى الرسالة وهو في طوكيو، وقد جاء فيها أن الأسطول الأمريكي سيحتشد في هاواي بقاعدة بيرل هاربر بعد أيام قليلة، وأنها أعظم فرصة للقضاء على قوة أمريكا البحرية إلى الأبد.

حمل الجنرال توجو هذه البرقية إلى الامبراطور ثم إلى أمراء البحر المغامرين، وكانت هي التي جعلتهم يصدرون أوامرهم للطائرات اليابانية بضرب الأسطول دون استشارة الوزارة والبرلمان، وبعد قليل أبلغوا الامبراطور بتنفيذ الأمر، ثم بدأت الوزارة تتأهب لتنفيذ أوامر رجال الجيش والأسطول وهي تظن أن النصر أصبح مكفولاً في وقت قريب، فكانت الجاسوسة ساشا ماتسوكا واحدة من أسباب الكارثة التي قضت على قسم كبير من الأسطول الأمريكي في بيرل هاربر، وسبب اضطرام نار الحرب في الشرق الأقصى، مما أدى إلى ظهور القنابل الذرية وحدوث تلك المعارك الطاحنة التي شملت جنوب آسيا وشرقها والفيليبين وجزر الهند الشرقية وكادت تنتزع الهند وتهدد الشرق الأوسط من ناحية جديدة، بل كانت هذه الفتاة واحدة من أسباب انتصار آلهة الحرب في طوكيو على الساسة من دعاة السلام، فدخلت اليابان الحرب بأمر

قوادها وتدبيرهم إلى أن انهارت في الحرب.

❀ ❀ ❀

إن عمل الجاسوس هو التقاط عقدة السرّ في موضوع ما، كمعرفة عدد الفرق العسكرية أو جمع معلومات علمية أو معرفة ساعة الصفر لحادثة كبيرة لها أهميتها على مصير الآخرين.

إن إفشاء سر وجود السفينة الحربية مع غيرها من السفن الذي فاه به قائد المدمرة للغانية ساشا ماتسوكا جعل منها بطلة للجاسوسية لا تقدر بثمن. ولأننا وضعنا هنا عنواناً لهذه الغانية في فصلنا هذا، فإن تحليلنا النفسي سينصب على إفشاء السر من المناحي النفسية ـ كما يقول سمير عبده ـ.

يذهب فريق من علماء النفس وعلماء الاجتماع إلى دراسة الظواهر في إطارها الفردي والاجتماعي، ويذهب فريق آخر إلى دراسة وتقصّي الأسباب الكامنة وراء تلك الظواهر المؤدية إليها. وبهذا يكون مجال البحث عند الفريق الأول مقتصراً على وصف الظاهرة بأبعادها المختلفة كما هي، في حين يكون مجال البحث عند الفريق الثاني محملاً بطابع التحليل لسببية الظاهرة، إلا أن هذين الاتجاهين كثيراً ما يؤديان نتيجة مثمرة في تكاملها.

إن الباحث في مختلف الموضوعات، في إطارها العلمي، يتعرض إلى صعوبة تحديد بعض المفاهيم، إلا أن ذلك يختلف عند الباحث في العلوم الطبيعية، مثلاً، عنه عند الباحث في العلوم النفسية أو الاجتماعية. ومبعث هذا الحرج والصعوبة يكمن في الأمانة العلمية والنزعة الموضوعية التي يرى الباحث العلمي نفسه ملتزماً بها. ولما كانت الحقائق في العلوم الطبيعية أكثر وضوحاً وثباتاً كان الباحث في

مجال الرياضيات والفيزياء، مثلاً، أدق في تعبيره عن مفاهيم معينة أو بالأحرى في تعريف الظاهرة، إلا أن الأمر يختلف بالنسبة إلى الباحث في المجالات النفسية والاجتماعية حيث يندر الاتفاق على حقائق معينة بين عالم وآخر، ومجتمع وآخر، وفي المجتمع الواحد من عنصر لآخر وذلك تبعاً لمبدأ الصيرورة والتغير الذي لا تسلم منه حتى أكثر الظواهر ثباتاً.

إن إفشاء (كلمة السر) كظاهرة نفسية واجتماعية قد يفهمها الكثيرون بأشكال متباينة. فمنهم من ينظر إليها على أساس من أنها اتجاه سيء في مضمونه، ومنهم من يفهمها على أساس من كونها ترويجاً لفكرة صالحة كانت أم طالحة، ومنهم من ينظر إليها على أنها براء من الصفة الجيدة والسيئة، وكل ما ينتج عن إفشاء كلمة السر يكمن في استغلال المطلعين عليها لموقف أو لآخر. وأمام هذه الآراء المتضاربة في مفهوم إفشاء كلمة السر نتيجة النظر إليها من زوايا مختلفة ومن وجهة مقصودة، نرى لزاماً علينا أن نجمع شتات الكثير من المفاهيم في تعريف مؤداه: إن كلمة السر عبارة عن تسمية موضوعة، مقدمة للتصديق بشيء مذهل، تنتقل من فرد لآخر محدثة أضراراً مادية أو معنوية بحيث لا يبقى سر للاحتفاظ به.

والفراغ الفكري يمكن أن ينظر إليه، في وقت واحد على أنه أساس لإفشاء كلمة السر ونتيجتها بأنه الأساس لها، وذلك في أن الفرد الذي ليس بإمكانه أن يحمل كلمة السر سيغدو نهباً لكل ما يلقى عليه.

الواقع أن عدم وجود رصيد من الأفكار والعزيمة لدى الفرد يجعله لا يحتفظ بكلمة السر أبداً، وفي مهمات مصيرية كالحالة التي

نحن بصددها كانت النتيجة تدمير الأسطول الأمريكي من خلال قائد سفينة لا يملك الاحتفاظ بسرّ ما .

أما ساشا فقد عرفت كيف توصل هذا السر إلى مرماه حيث استثمر على أكمل وجه!!

ساندي (شيريل هانين)(*)
(Sandi)
(1960 -)

هي إحدى جاسوسات الاستخبارات الإسرائيلية.

و «ساندي، الشابة الجميلة التي استطاعت إغراء العالم النووي الإسرائيلي موردخاي فعنونو في شوارع لندن عام 1986 بعدما كشف عن أسرار مفاعل ديمونا النووي في صحراء النقب، لصحيفة «صنداي تايمز» البريطانية، لم تتقاعد عن العمل، إنها تعمل اليوم سمسارة عقارات وبيوت في فلوريدا في الولايات المتحدة».

هذا ما تقوله لوزان تايلور مارتين في مقدمة مقال نشرته في صحيفة «سان بيترسبورغ تايمز» 21/ 3/ 2004) تعرض فيه مختصراً لقصة حياة هذه الجاسوسة الأميركية اليهودية التي خدمت في الجيش الإسرائيلي، ووظفها جهاز الاستخبارات الخارجية «الموساد» موكلاً إليها مهمة الإيقاع بالعالم النووي الإسرائيلي موردخاي فعنونو، الذي علق في الفخ واختطفه عملاء الموساد من روما ونقلوه إلى إسرائيل حيث حوكم وحكم عليه بالسجن لمدة 18 سنة.

(*) **المرجع**: المحرر العدد (440)، 27 آذار/ مارس، 2 نيسان/ أبريل 2004.

تقول لوزان في مقالها: إن «ساندي» لم تعد تستخدم الآن هذا الاسم المستعار الذي اختارته أثناء قيامها بتنفيذ المهام للموساد، وعادت إلى اسمها الحقيقي القديم: شيريل هانين وهي متزوجة من أوفير بن توف.

اشتهرت شيريل بعد عملية اختطاف فعنونو من بريطانيا إلى روما ومن ثم إلى إسرائيل حيث حوكم هناك بتهمة الخيانة وقضي عليه بالسجن 18 عاماً، وانتهت مدة العقوبة في نيسان 2004.

فحين فرّ فعنونو وبحوزته وثائق رسمية عن الأسلحة النووية الإسرائيلية ومفاعل ديمونا الذي عمل فيه مهندساً نووياً قامت الموساد باقتفاء أثره من مكان إلى آخر حتى وصل إلى لندن في آب (أغسطس) عام 1986. ويقول بيتر هونام الكاتب البريطاني وصديق فعنونو المتعاطف معه منذ فراره إلى بريطانيا، وهو أول صحفي قابل فعنونو عام 1986، إن هذه المرأة «ساندي» أي (شيريل) دمرت حياة فعنونو الذي وثق بها واستغلته وهو في أوج شعوره بالوحدة والخوف من مضاعفات كشفه عن الأسرار النووية الإسرائيلية. ويعتبرها هونام امرأة جديرة بالاحتقار بسبب ما قامت به ضد فعنونو لصالح الموساد الذي تعمل فيه.

حلوة جذابة ممتلئة الشفتين!..

ولدت شيريل عام 1960 في بنسلفانيا وترعرعت هناك وكذلك في أورلاندو. وكان والداها يهوديين يعملان بتجارة الإطارات. وكان لدى والدها ستانلي هانين مخازن عدة للإطارات ولا تنقصه حياة الأثرياء. درست شيريل المرحلة الثانوية في أورلاندو، وانضمت إلى نادي الشبان اليهود هناك وكانت من النشيطات، وظهرت صورها في

صالون للجمال في أورلاندو. وكانت ممتلئة الجسم جذابة ذات خدين وشفتين ممتلئتين. وحين وقع الطلاق بين والديها بدأت تجربتها في الحياة تتغير، فقامت بالسفر إلى إسرائيل، حيث درست لفترة قصيرة في الجامعة بعد أن تعلمت العبرية والتاريخ اليهودي. وفي عام 1978 انضمت إلى الجيش الإسرائيلي. وفي عام 1985 تزوجت من ضابط إسرائيلي يكبرها بست سنوات هو أوفير بن توف، وتبين أثناء خدمتها في الجيش أنها تصلح للخدمة في الموساد (جهاز التجسس والمهام الخاصة). فأعدها الموساد عن طريق إرسالها بصفة زوجة تعمل في بعض السفارات الإسرائيلية مع زوجها الديبلوماسي أو الموظف في السفارة.

وعمل على تدريبها على فتح الأبواب من دون كسر في الفنادق وعلى سرقة وثائق أو محفظة من داخل مكتب أو معطف لرجل مهم. واهتم بها قادة الموساد بعد أن حظيت بتقديرهم وإعجابهم بأدائها ومواظبتها خصوصاً حين كانت تظهر بدور صديقة أو عشيقة لرجل إسرائيلي يعمل موظفاً في السفارة الإسرائيلية في بلد ما ويستخدمها طعماً للهدف المطلوب.

دورة تدريب على فن الإغواء..

وتعلمت شيريل على طرق إغراء رجل في الشارع في منتصف الليل وعلى التعرف على رجال داخل البارات والمطاعم والتخفي بصورة سائحة تبحث عن صديق يرافقها في سياحتها.

وفي عام 1986 كلفها الموساد بإغراء فعنونو الذي يعرف المسؤولون عنه في إسرائيل أنه ضعيف الإرادة أمام النساء الجميلات. فقد كان فعنونو في لندن من أجل إجراء مقابلات صحفية معه حول

الأسرار النووية ولكي يقدم لصحيفة «صانداي تايمز» اللندنية وثائق حملها معه من مفاعل ديمونا النووي وما يقوم به.

وفي ذلك الوقت انطلق الموساد وراءه بعد مغادرته لأستراليا وعدم نجاحه فيها بعرض ما لديه. وفي أعقاب سلسلة مقابلات مع صديقه الصحفي بيتر هونام وعقد صفقة مع صحيفة «صانداي تايمز» قررت الموساد الإسراع باعتقاله مهما كانت النتيجة لكن ليس فوق الأراضي البريطانية. ولذلك وضع رئيس الموساد خطة وافق عليها بيريس تقضي بنقل فعنونو بشكل رسمي كمسافر عادي إلى روما وتنفيذ اختطافه ونقله إلى إسرائيل من روما وليس من لندن.

واختيرت شيريل ذات الاسم المستعار ساندي لإغراء فعنونو في شوارع لندن وعقد صلات غرامية معه وإقناعه بالسفر معها إلى روما لإبعاده عن أصدقائه الصحفيين وعزله في روما تمهيداً لنقله إلى إسرائيل سراً.

..«وهل أنت سائحة مثلي»؟

كان فعنونو يسير في ساحة ليسيستر في لندن حيث يوجد مسرح كبير ومهم، فشاهد امرأة شقراء ممتلئة الجسم جميلة تمر قربه وتظهر في سن العشرينات. وحين التقت أعينهما بادرها بالقول: هل أنت سائحة مثلي؟ ولماذا لا نذهب إلى مقهى ونشرب القهوة؟ فأجابته المرأة أنها تدعى ساندي وأنها مختصة بالتجميل وتقضي إجازتها في لندن بعد وصولها من الولايات المتحدة، موطنها. وبعد شرب القهوة قرر الاثنان الإلتقاء ثانية في معرض للرسوم في اليوم التالي، وكانت هذه المبادرة من فكرتها هي. وفرح فعنونو بهذه المبادرة لأنها تدل على اهتمامها بالفن والرسم والجمال وهو ما يحبه، ولم يكن يعلم أن

الموساد هو الذي رسم لها هذه المبادرة وأن كل خطوة يخطوها معها تحدث تحت مراقبة وإشراف زملائها في الموساد.

في ذلك الوقت كانت هيئة تحرير صحيفة «صاندي تايمز» تدرس وتدقق في الوثائق التي عرضها عليها وتتأخر في نشرها دونما سبب واضح. ساندي أغرت فعنونو وطلبت منه السفر معها إلى روما وزعمت أن أختها تعيش هناك، وأعدت له بطاقة سفر بدرجة ممتازة «بيزنيس كلاس» على الرحلة رقم 504 في طائرات الشركة البريطانية. وفي 30 أيلول (سبتمبر) وصل الاثنان إلى روما وقابلهما صديق لساندي هو ضابط موساد في المطار وأقلهما بسيارته إلى شقة فتحت بابها امرأة أخرى، ومنذ تلك اللحظة اختفى فعنونو عن الوجود. وعلم «هونام» فيما بعد أن ضابطين في الموساد كانا موجودين داخل الشقة قيدا فعنونو وحقنوه بمادة تنويم. وعلى الفور تم نقله إلى قارب صغير سريع رياضي من ساحل البحر في روما حيث أنزل منه إلى سفينة بدت تجارية لكنها كانت للموساد وضع فيها لتنطلق باتجاه حيفا. وبعد أسبوع وصلت السفينة الإسرائيلية وعلى متنها فعنونو وشيريل وفريق الموساد إلى حيفا واستلمت السلطات الإسرائيلية فعنونو.

السؤال الذي لم يسأله أحد

لكن السؤال الذي طرح في ذلك الوقت هو: لماذا لم يلق الموساد القبض على فعنونو قبل إعطائه الوثائق النووية لصحيفة «صانداي تايمز»؟

يقول هونام إن الموساد لم ينجح في خطف فعنونو من أستراليا التي كانت أول محطة له قبل لندن. بل إن هونام نفسه شك في المرأة الشقراء (ساندي) وحذر فعنونو منها وأبلغه أنها قد تكون من الموساد،

لكن فعنونو كان مسحوراً بها فلم يصدق. وقبل سفره من لندن إلى روما مع (ساندي) طلب فعنونو أن تحضر معه في جلسة عشاء أعدها هونام وأصدقاؤه، وانتظر هؤلاء فعنونو وعشيقته لكن دون جدوى، لأنهما انطلقا نحو روما والفخ الذي نصبته الموساد له.

وبعد اعتقال فعنونو قرّر هونام تتبع آثار ساندي. فسافر إلى مدينة نتانيا في إسرائيل، وعثر هناك على ساندي وزوجها حيث أقاما في فيلا جميلة على شاطىء البحر. فالتقط لها هونام صوراً دون أن تدري. واقترب منها بعد ذلك ليسأل حول ما إذا كانت ساندي فنفت. وفي عام 1997 ذهب مراسل صحفي بريطاني إلى أورلاندو واجتمع بها في منزل فخم فقالت له أن لا ينشر عنها ما يمكن أن يلحق الضرر بمكانتها وعملها كتاجرة عقارات في تلك المدينة الأميركية. وعلم الصحفي أن شيريل ما زالت تعمل في الموساد وهذا ما أكده جيرانها في أورلاندو، الذين ذكروا أنها اشترت منزلاً بنصف مليون دولار. لكنها تخشى من السفر إلى بريطانيا لأن السلطات البريطانية مخولة بالتحقيق معها واعتقالها.

ستيلا ريمينغتون(*)
(Stella Rimington)
(-   )

هي أول امرأة على رأس المخابرات البريطانية.

وإذا كانت مارغريت تاتشر أول امرأة تتولى منصب رئاسة الحكومة في المملكة المتحدة البريطانية في الثمانينات، فإن ظاهرة عودة امرأة أخرى لرئاسة الحكومة لم تتكرر بعد مرور فترة لا بأس بها، وقد لا تتكرر إلا بعد وقت ليس بقريب. ومع ذلك تكررت ظاهرة أصعب من ظاهرة تولي امرأة لمنصب سياسي قيادي في بريطانيا عندما اختار المسؤولون البريطانيون امرأة للمرة الثانية لتولي منصب رئيس المخابرات البريطانية المعروفة باسم جهاز «إم 15».

فقد كانت المرأة الأولى التي تولت منصب رئيس المخابرات وجهاز التجسس البريطاني هي ستيلا ريمينغتون، التي تولت هذا المنصب منذ عام 1992 حتى عام 1996. وكانت بداية عملها في سلك التجسس قد ظهرت بموجب ما جاء في برنامج خاص حولها في قناة (بي بي سي) البريطانية في الهند حيث كانت السيدة ستيلا

(*) **المرجع**: المحرر العربي العدد (372)، 22 ـ 28 تشرين الثاني (نوفمبر). 2004. ص 27.

ريمينغتون تعيش في الهند عام 1965 بصفتها زوجة لديبلوماسي بريطاني كان يعمل في الهند في ذلك الوقت.

في ذلك العام توجه إليها السكرتير الأول في السفارة البريطانية في الهند وسألها عما إذا كانت على استعداد لمساعدة ممثل أو رئيس محطة التجسس البريطانية في الهند طالما أنها لا تعمل شيئاً سوى أنها ربة بيت جميلة في الهند. وقبلت الفاتنة ستيلا القيام بهذه المهمة رغم أنها تساءلت أمام ذلك الديبلوماسي قائلة (قناة بي بي سي ـ مقابلة مع السيدة ستيلا): «هل هذا يعني أنك تريد مني أن أكون جاسوسة؟ لقد أعجبتني كثيراً هذه المهمة التي كنت أتوق إلى القيام بها وهذا ما فعلته. ومن هنا بدأت شق طريقي في هذا العمل». والجدير بالذكر أن جهاز (إم 15) هو هيئة المخابرات البريطانية التي تجمع في مهامها بين ما يقوم به مكتب التحقيقات الفيدرالي (إف بي أي) ووكالة المخابرات المركزية (السي آي إي). وتقول مصادر صحفية ومخابراتية غربية أن ستيلا كانت فائقة الجمال وربما لعب هذا الجمال دوراً مهماً في عملها التجسسي منذ عام 1965 وإن كانت لن تكشف عنه بالطبع.

وتعزز هذه المصادر اعتقادها بالاستشهاد بما قاله أوليغ غورديفسكي العميل السوفياتي المزدوج الذي فرّ إلى بريطانيا عام 1985. فقد تحدث في إحدى المقابلات الصحفية عن حبّه الدفين للسيدة ستيلا حين قال: «إنني حقاً أحببتها، أحببت تلك المرأة إلى حدّ كبير، فهي جميلة لها عينان خضراوان عميقتان جميلتان ولم تكن طويلة جداً كما لم تكن نحيفة جداً».

وإذا كان هذا ما يظهر من إعجاب فلا شك أن ما يحمله غورديفيسكي في قلبه أعظم خصوصاً وأنه طلق زوجته بعد أن فرّ إلى

لندن، بل ولم يكن يجد أي سبب يمنعه من التفكير بها إلى ذلك الحد. فهو يقول: «إذا انطلقت بشكل رسمي في حديثي عنها فدعوني أقول لكم إنني كنت دون زوجة وهي كانت دون زوج. ولذلك كنت أفكر بمدى تناسبنا وجعلها شريكتي أو كصديق».

وفي مقابلة أجريت معها لأول مرّة في (بي بي سي) تحدثت ستيلا عن كيفية توفيقها بين دورها كأم ودورها كمسؤولة عن مكتب تجسسي قبل تعيينها رئيساً لجهاز (إم 15). فقالت إنها في إحدى المناسبات تعين عليها الالتقاء بغوردييفيسكي قبل فراره علناً إلى لندن، أي أثناء تعامله مع المخابرات البريطانية دون علم المخابرات السوفياتية (كي جي بي) التي كان يعمل فيها، وأثناء استعدادها للانطلاق نحو مكانه تلقت اتصالاً هاتفياً يبلغها بمرض أصاب ابنتها وضرورة الانتقال فوراً إلى المستشفى للاطمئنان عليها. وبدلاً من تأجيل اجتماعها مع الجاسوس غوردييفيسكي قامت بالذهاب إلى المستشفى عبر مرورها بالمكان نفسه الذي أعد سراً للالتقاء بالجاسوس المذكور. فقد اجتمعت به وأبلغته بما حدث لابنتها. وقالت ستيلا في مقابلتها مع (بي بي سي): «بل إنني اضطررت إلى استقراض نقود منه قبل انطلاقي إلى المستشفى لأنه لم يكن لدي وقت للذهاب إلى البنك وكنت في سيارة (تاكسي) دون أن أحمل ما يكفي من النقود. وهكذا انطلقت فوراً إلى المستشفى وعدت إليه ثانية».

ومنذ عام 1965 عملت ستيلا في جميع الأقسام والدوائر المهمة في جهاز (إم 15)، ومن بين ذلك قسم مكافحة «الإرهاب» والتجسس المضاد ومكافحة التخريب. وكانت تتصرف وتقوم بهذه المهام كامرأة وليس كرجل، كما أكدت في مقابلاتها بعد تسريحها من هذا المنصب. وكانت المهمة الأولى لها حين عادت من الهند إلى

لندن هي محاولة الانتماء إلى الحزب الشيوعي البريطاني، وأحبت هذا العمل التجسسي في ذلك الوقت رغم أنه كان يبعث على الملل. وكانت تدرك أنها لن تنال ترقيات مستمرة على غرار ما يتلقاه الرجال في المخابرات البريطانية. وتقول ستيلا عن تلك المرحلة: «لم يكن المسؤولون في المخابرات البريطانية في ذلك الوقت يؤمنون بأن المرأة يمكن أن تبدأ بمهمة ما وتستكمل غايتها حتى النهاية منها. والمقصود في استكمالها حتى النهاية هو كما افترض الخروج للالتقاء بالعملاء وتلقي المعلومات منهم، علماً أن هؤلاء العملاء كان من بينهم أعضاء في المنظمات «الإرهابية» أو رجال من مصادر عمل أخرى».

وفي عام 1992 بلغت ستيلا أوج ما طمحت إليه حين عينت رئيساً للمخابرات البريطانية. وظهرت بعض الانتقادات بعد الإعلان عن اسمها وتعيينها في هذا المنصب لكنها صمدت أمام هذه الانتقادات. وبعد استقالتها وتعيين رجل في منصبها بعد عام 1996 تسببت ستيلا بجدل واختلاف عندما قررت كتابة مذكرات عن حياتها وعملها، فأثارت بذلك قضية خلافية وإشكالاً حول ما إذا كان ينبغي السماح لأي شخص عمل في المخابرات بنشر مذكرات عن عمله أو أنه ملزم بعدم التحدث عن أي أسرار أو الكشف عنها طوال حياته. والطريف أن ستيلا تولت بعد استقالتها منصباً تجارياً حين تعاقدت معها شركة (مارك أند سبنسير) البريطانية وعينتها مديرة لهذه الشركة. لكنها تقوم بتقديم محاضرات مهمة في شؤون المخابرات وتتلقى مقابل ذلك مبالغ كبيرة.

وفي أيار (مايو) 2004 قررت الحكومة البريطانية من جديد تعيين ثاني امرأة في هذا المنصب الحساس والمهم، فقد صدر قرار بتعيين السيدة إليزا مانينغهام ـ بولير رئيساً لجهاز (إم 15). ويعود

تاريخ عمل وعلاقة إليزا بالمخابرات البريطانية إلى عام 1974، وكان آخر منصب تولته في جهاز (إم 15) هو نائب رئيس الجهاز. كانت إليزا تعمل قبل عام 1974 معلمة، وحلت في هذا المنصب محل السير ستيفن لاندر بدءاً من تشرين أول (أكتوبر) 2004.

وكانت إليزا أثناء خدمتها الأولى في المخابرات البريطانية تتولى مسؤولية متابعة التجسس السوفياتي وشاركت مع ستيلا في متابعة قضية الجاسوس السوفياتي غورديفيسكي قبل فراره إلى لندن. ثم عملت بعد ذلك في قسم «مكافحة الإرهاب» على الصعيدين الداخلي البريطاني والعالمي الخارجي. وقد استعانت بها المخابرات الأميركية في أعقاب أحداث 11 أيلول (سبتمبر) 2001 وانطلقت إلى واشنطن للتعاون مباشرة مع (أف بي آي) مكتب التحقيقات الفيدرالي ومع (السي آي إي). وعملت نائباً لرئيس المخابرات البريطانية منذ عام 1997 حتى أيار (مايو) 2002 حين حلت محله.

وكانت ستيلا ريمينغتون المرأة الأولى البريطانية التي تولت رئاسة المخابرات قد نشرت كتاباً ضمت صفحاته عام 2001 قبل أيام من وقوع تفجيرات 11 أيلول صوراً عن ذكرياتها في العمل التجسسي حرصت فيه على عدم كشف أي أسماء أو أمكنة يمكن أن تثير جدلاً وأخطاراً. لكنها تعترف في ذلك الكتاب بعدم وجود مخابرات ناجحة (مئة في المئة).

وفي ردّها على سؤال وجهته لها صحيفة «الصانداي تليغراف» البريطانية في 20 أيلول (سبتمبر) 2001 حول تفجيرات 11 أيلول قالت ستيلا: «إنهم يلومون الآن السي آي إي وبن لادن ويعتبرونهما مسؤولين عن هذه العمليات. حسناً لكن بن لادن كان تحت أنظار

المخابرات الغربية حتى قبل استقالتي من المخابرات البريطانية. لكنه ربما ليس هو المسؤول عنها. فعندما وقعت عملية تفجير طائرة (بان أم) في لوكربي حمّل الجميع المسؤولية للفلسطينيين ثم ظهر أن الليبيين قاموا بها». وترى ستيلا أن «الإرهاب لم يبدأ في 11 أيلول ولا يمكن الانتصار عليه إلا بإبعاد أسبابه وخلق عالم خير لا ظلم فيه».

سمير نوفا(*)

(Smir Nova)

(-   )

هي إحدى نساء الاتحاد السوفياتي التي برعت في العمل المخابراتي والتجسسي، ونجحت في معظم المهام التي كلفت بها خير نجاح. ونتيجة لذلك، فقد كانت من النساء السوفياتيات القلة اللواتي وصلن إلى رتبة لواء. وقد عيّنت في موسكو، في العام 1991، رئيسة لوكالة استعلام وارتباط فيدرالية.

(*) **المرجع**: جينو ڤيفا إيتيان وكلود مونيكيه «تاريخ الجاسوسية العالمية...». مرجع سابق، ص 222.

سويسا أوفرمات(*)
(Suissa Ofermatt)
(-   )

هي إحدى جاسوسات المقاومة البلجيكية ضد الألمان مع رفيقها بول ولديك. فماذا عنها؟ وعن دورها؟

كانت سويسا أوفرمات شابة فاتنة تبدو لقمة سائغة للضباط الألمان.

وممن تعرفت عليهم من هؤلاء الضباط كان الميجور فريز تشتنر وهو قد تخطّى الخمسين من العمر.

وفي ليلة الرابع عشر من آب (أغسطس) عام 1942 وبعد أن تلاقى الميجور فريز بسويسا في نزل، ودّعها على عجل لأنه كان مدعواً لتناول الغداء مع الجنرال كليست شخصياً. وبينما كان يرتدي ملابسه قال وكأنه يفشي سراً «إنها مناسبة عظيمة، وأنا ضيف الشرف فيها، وقد أتسلم وساماً». ولم يكن الميجور مغالياً، فقد أشاد مارشال الجو (غورنغ) بعمله في قيادة وحدات الرادار والاستكشاف على الساحل البلجيكي، فقد أصبحت البطاريات المضادة للطائرات

(*) **المرجع**: سمير عبده «التحليل النفسي للجاسوسية». دار الكاتب العربي، دمشق. الطبعة الأولى 1989، ص 215 ـ 232.

بمساعدة محطات الاستكشاف التي يتولاها قادرة على إسقاط المقاتلات البريطانية بدقة تامة.

وكان الحبور يملأ صدر الميجور بالإشادة، ودعوة كليست للغداء كانت مناسبة بشكل خاص، إذ أنها تتيح له زيارة فجائية لبروكسل. فقد مضى حوالي الشهر على آخر زيارة له، وكان قد بدأ يشعر بالحنين لرفقة سويسا أوفرمات الفاتنة، «دون أي شك سوف يصر كليست على أن أمضي الليل هناك» أوضح لها فريز تشتنر «ولكن حتى لا يخيب أملك تماماً» ـ ومبتسماً سحب من حقيبته زوج جوارب حريرية قدمها للحسناء الشقراء.

بعد خروج الميجور بعشر دقائق كانت الفتاة قد ارتدت ثيابها. وبعد أن ارتدت معطفها الأسود ووضعت الإيشارب فوق رأسها، بقي شيء آخر يتوجب عليها إتمامه، مجتازة الغرفة. سحبت من أحد الأدراج رزمة صغيرة تحوي زجاجة شمبانيا وبعض المعلبات، وتبسمت شفتاها اليانعتان وهي تتأبط الرزمة، فمثل الجوارب الحريرية كانت الخمرة والمعلبات عينة من كرم الميجور. وتوقفت عند الباب ورمقت الغرفة ومن ثم أطفأت النور، ولم تجد أحداً في طريقها إلى الخارج.

لم تكد تنقضي عشرون دقيقة، حتى كانت سويسا أوفرمات تدخل أحد الأحياء في القسم الفقير من المدينة. ورغم الظلام كانت تعرف طريقها جيداً. ومستديرة إلى اليسار، صعدت ثلاث درجات، وفتحت البوابة الحديدية، وعند وصولها إلى الطابق الثاني استندت إلى الحائط لتهتدي إلى الباب، ودقت برفق عليه.

وبعد فترة من الصمت انفرج الباب، وتطلع الشاب الطويل ذو

الشعر الأسود بدهشة «ولكنني اعتقدت»، قالت «أعرف». وفيما أعاد الشاب إحكام القفل قالت «لقد سارت الأمور كما أتمنى»، بعد أن فتحت الرزمة، أمسكت بالخمر والمعلبات وقالت هازجة «مع تحيات فريز تشتنر» وتوترت عضلات وجه الرجل وقال «إن الأمر لا يبدو لي مضحكاً يا سويسا». «ولكن يا «بول» قالت بحزن.

وفي حين خلعت معطفها وحلت الإيشارب، نثرت شعرها الأشقر الطويل الذي انسدل فوق كتفيها. وتقدمت إلى حيث كان واقفاً وتبسمت بحياء، ومررت بيديها فوق ذراعه ببطء، ومن ثم أحاطت عنقه وأكملت قائلة «ولكن ذلك ترتيباً مناسباً... بالتأكيد أن الميجور لا يوازي رأس أصبعك، ولكنه ذو نفوذ وهو كريم أيضاً». وأسبلت يديها وجلست إلى طرف الفراش، وحين رفعت رأسها تلاقت عيناها الزرقاوان بعينيه مجيبة «حسناً» قالت بحزم «فكر بما يحلو لك، ولكنني لم أقدم على عمل متهوّر، ألا ترى» وأضافت مسرعة بلهجة أقل قسوة «لا أستطيع أن أغير طبعي، فكبلجيكية يجب أن أحتقر الألمان وأعتقد أنني كذلك، ولكنني أكره الفقر أيضاً والمعدة الخاوية أكثر، وإذا كنت أساير الأمور فإن الحرب تخرج أشخاصاً شاذين، وهي المسؤولة عن ذلك ولست أنا».

أما أفكار بول ولديك، رفيقها الوسيم، فهي معاكسة لهذه النظرة. إنه يكره الجوع والفقر ولكنه ليس مستعداً لأن يبيع شرفه أو مبدأه مهما كان الأمر.

ومع ذلك فإن ولديك بحاجة ماسة إلى سويسا لأنها تتمم عمله.

❀ ❀ ❀

في أيار (مايو) عام 1940 وقعت بلجيكا فريسة أمام جحافل

فرقة (البانزر) الألمانية وتم احتلالها. وكآلاف من أبناء وطنه انضم بول ولديك، إلى الفرنسيين عندما استسلمت بلاده. إنما بعد شهر كانت فرنسا تطلب السلام، وكان ذلك نهاية آمال ولديك. وبعد أن أمضى شهراً في إحدى مناطق الاعتقال بالقرب من (آراس) هرب في أحد أيام تموز (يوليو)، ولم يبد أن أحداً قد افتقده، وتوجه شرقاً، ليدخل بلجيكا ثانية عن طريق (روبيكس). ولم يكن هناك تخريباً كبيراً في المدن أو القرى، كان الضرر في مكان آخر، تعكسه عيون وتعابير الأشخاص الذين قابلهم، فمثل ولديك كانوا بغير أمل، وكذلك لم تكن الشجاعة قريبة منهم.

قريباً من قرية (كورتيجك) قدم له أحد المزارعين لباساً مقبولاً، وبات على الأقل قادراً على الاستغناء عن زيّه الرثّ باستثناء نعليه. ووصل ولديك إلى (زيبراغ) مدينة ساحلية على البحر الشمالي. وكانت بعض الفتيات قد بدأن يرافقن علناً طياري (لوفتواف) الجذابي الهندام.

كانت مهنة ولديك جيولوجي، وهو يملك معلومات دقيقة عن انحناءات وأشكال النتوءات الجغرافية التي تتكون منها الأربعين ميلاً من الساحل البلجيكي الهام المواجه لبحر الشمال، فحتى في تلك المرحلة المتقدمة من الحرب، كان الألمان يخططون لإقامة مراكز للرادار على طول الساحل، وكانت المعلومات مثل تلك التي يمتلكها ولديك حيوية جداً.

كل ما كان يتطلب من ولديك هو أن يعقد صفقة مع الألمان، ولكنه اختار طريقاً آخر: فقبل انقضاء فصل الصيف كان ولديك قد أصبح عضواً في (الجيش الأبيض) حركة المقاومة البلجيكية الشديدة البأس، واشترك في أيلول (سبتمبر) عام 1940 بأول غارة تخريب

على سفينة ألمانية كانت مقطورة في القنال قريباً من (براغز). فقد كان ولديك هو الذي أشعل الفتيل مختبئاً بين الحواجز، حيث قذف برزمة المتفجرات المشتعلة في نفس الوقت الذي قاربته السفينة المتهادية، وغادر المكان هارباً ليسمع الانفجار الرهيب الذي ألقى به أرضاً، إلا أنه سرعان ما تمالك نفسه وهب واقفاً لينضم إلى رفاقه المختبئين في الأزقة المجاورة، وعندما التفت إلى ورائه، كانت مشاهد اللهب المتصاعد هي التي أعادت إلى نفس ولديك ما لم يشعر به منذ زمن ألا وهو الأمل.

استمر ولديك طوال ذلك العام والذي تلاه في الإسهام بخطط حركة المقاومة (اضرب واهرب) ضد قوات الاحتلال الألماني. وفي مطلع عام 1942 كان قد كسب سمعة طيبة عند قادة الحركة. ومن ثم، قبيل شهر نيسان (أبريل)، دعي إلى اجتماع خاص بحركة المقاومة على متن سفينة صيد في مياه زيبراغ. وكان من بين المدعوين جاك كوبيراس أحد قادة المقاومة البارزين في المقاطعة الشمالية، وعندما التقيا أوضح له كوبيراس الأسباب التي دعت إلى الاجتماع الطارىء: «إن الأمر يتعلق بأصدقائنا الإنكليز» شرح كوبيراس «وكما لا يخفاك فإن مقاتلاتهم وقاذفات القنابل التابعة لهم تتعرض لمصاعب كثيرة هذه الأيام». وكانت عبارة كوبيراس أقل من الواقع.

فقد كان الطيران البريطاني ببساطة يلقى جحيماً من الساحل البلجيكي، وكان الطيارون البريطانيون يشيرون إلى الدقة من جانب رجال المدفعية الألمانية المضادة للطائرات، ليس أثناء النهار بل وخلال الغارات الليلية كذلك. ففي هذا الوقت كانت المخابرات البريطانية تعتقد بأن الألمان يستعملون نوعاً من الرادار الذي يحدد مدى واتجاه الطائرات البريطانية.

وإلى أن يكتشف ذلك، فإن الهجوم الجوي ضد ألمانيا لا يمكن أن ينجح «تستطيع أن ترى دورنا في ذلك» أشار كوبيراس «المشكلة على مقربة منا. في الوقت الراهن يحاول العديد من عملائنا معرفة ما يستطيعون حول محطات المراقبة تلك. ولقد أحرزنا تقدماً في بعض النواحي، ولكن يجب أن نسرع الخطى. ولا يجب أن نهمل أي مصدر للمعلومات، مهما بدا على السطح، طفيفاً».

«وماذا هو دوري؟» سأل ولديك.

وهز كوبيراس بكتفيه «لسنا واثقين، وبصراحة، لعلك ستخاطر بحياتك في سبيل شيء لا جدوى حقيقية منه، أو قد تستطيع تزويدنا بالأجوبة التي نبحث عنها». ورمق ولديك بنظرة متفحصة «ألا زال الأمر يهمك؟» وأومأ ولديك برأسه إيجاباً.

وهنا سمع ولديك باسم سويسا أوفرمات لأول مرة، وبتؤدة أوضح كوبيراس العلاقة التي تربط بين سويسا والميجور فريز تشتنر والتي كشفها أحد عملائهم. ولكن الميجور الآمر لكل مراكز الكشافات وبطاريات مقاومة الطائرات في المنطقة الساحلية، فقد باتت سويسا هدفاً ضرورياً للدراسة الكاملة «إذا تمكن أحد رجالنا من أن يتعرف إليها» تابع كوبيراس «وأعني أن يعرفها جيداً، ويوطد علاقته بها، قد يتيح ذلك فرصاً هامة» وانتفخت شفتاه وهو يضيف «أنت الأصغر سناً في فريقنا يا ولديك، والأكثر وسامة، فماذا رأيك؟» ورفع ولديك حاجبيه، واصطبغ وجهه بالدم وقال محاوراً «ولكنك لا تستطيع أن تكون على ثقة في الواقع.. فإذا كانت متعلقة بالميجور، فما الذي يجذبها إلي؟».

«أكرر» قال كوبيراس «لسنا واثقين وذلك ما يتوجب عليك أن تزيح الستار عنه».

لم تمض أيام حتى توجه ولديك إلى بروكسل، وعند وصوله اتصل برول ايكهود صاحب مصنع للورق الذي كان يعمل في الظاهر لحساب الألمان، بينما كان يعمل سراً لحساب (الجيش الأبيض). وكان الترتيب مناسباً جداً، إذ لم يحدث أن نقل موظفو ايكهود للعمل في ألمانيا، بالإضافة إلى المركز الذي أمنه لولديك في مصنعه استطاع ايكهود بواسطة اتصالاته المتعددة تأمين أول لقاء بين ولديك وسويسا أوفرمات. وقد كان لقاؤهما في (روج دراغون) إحدى الحانات الليلية القليلة التي كانت لا تزال تعمل، حيث تطرب سويسا الحاضرين كل مساء غناء، ولم يعرف صديق ايكهود الذي قام بتأمين اللقاء بالخطة المرسوم لها.

وقد ترك ولديك منذ البداية أثراً طيباً لديها، فأعطته بعد يومين موعداً لما بعد ظهر يوم الأحد القادم، وأثناء لقائهما الثاني في الأسبوع التالي، أخبرته عن علاقتها بالميجور دون أن تذكر اسمه، ولكن مقدمة أوفى التفاصيل، إذ لعل أخطاءها عديدة، ولكن ادعاء الفضيلة لم يكن منها. وبعد أن ختمت قصتها سألته «والآن وبعد أن عرفت كل شيء فإلى أي مدى تعترض؟».

هز ولديك بكتفيه وأجابها «ليس لي من اعتراض، ولكن في الأمر ما يثير فضولي إذ ما دمت تمتلكينه، فما هي حاجتك لي؟».

«ذلك سؤال غير صحيح» تضاحكت.. «وعليَّ أن لا أعود للكلام معك».



لم تكن سويسا تدري أكانت قد غضبت فعلاً، أم أنها عبرت عن غضبها بشكل غريب. وكل ما تعرفه أنها بعد يومين قصدت ولديك في غرفته في المقاطعة السفلى من المدينة وقضت ليلتها هناك، وكانت تلك أولى زيارات عديدة منتظمة ما عدا منتصف كل شهر وآخره، عندما كان الميجور فريز تشتنر يقوم بزيارته لها قادماً من أوستند. وفي حين كان فصل الصيف يتقدم، فإن تقدم ولديك، في حقل جمع المعلومات، لم يكن يذكر. وكان اضطراره لمداراة كرهه لفريز تشتنر قد بات عبئاً، ولذا فقد شكى من قلة عمله أثناء إحدى زيارات كوبيراس النادرة إلى بروكسل. ورداً على تبرم ولديك، فقد أكد له كوبيراس بأن دوره الحالي حيوي كما كان دوماً «وفي اللحظة التي نرى أنك أصبحت تضيع وقتك..» اختتم حديثه «فلسوف تستدعى فوراً».

وبعد انقضاء شهر على ذلك، وبعد يومين من زيارة سويسا وإحضارها خمر ومعلبات الميجور، وقع ما لم يكن في الحسبان. إذ في الوقت الذي كان ولديك متوجهاً إلى مكتب ايكهود، حمل له أحد الصبيان رسالة من سويسا، تحمل طابع الاستعجال. كان عليه أن يقابلها في أحد الأمكنة التي اعتادا الذهاب إليها، كان عليه أن يحضر عند الظهر دون تأخير. وفي الموعد المحدد، كان ولديك قد وصل عندما أتت سويسا، وللحظة أعتقد أن الميجور قد اكتشف أمرهما ولكن الأمر كان مختلفاً «لديّ أخبار طيبة» همست له عندما جلسا إلى المقعد المنعزل «سأترك بروكسل ولسوف أقيم في زيبراغ».

ذهل ولديك، فتابعت سويسا مبتسمة: «لأن الذي حدث هو أن الميجور قد منح رتبة كولونيل مكافأة للسجل العظيم الذي حققه بقيادته لمراكز الرادار على الساحل». وتابعت على عجل: «ويأتي ضمن ذلك

تجهيز بيت لي.. واحد من تلك المنازل التي تطل على القنال، وسيكون هناك خدم أيضاً».

دهش ولديك مما سمع، وأول ما أعقب على كلامها ما قاله «وماذا سيحدث لي؟».

اتسعت عينا سويسا وقالت متضاحكة وقد أصبح ولديك تحت حمايتها «ستأتي أنت أيضاً، لن أرضى بغير هذا الأمر».

ذهبت آمال سويسا إلى أن تجد لحبيبها مركزاً ضمن قيادة فريز تشتنر، وجدت الخطة غير معقولة بالنسبة لولديك، ولكنه استمر بالإصغاء.. «إن الكثيرين من البلجيكيين يعملون لحساب الألمان» قالت موضحة، «وبمهارتك وبتأثيري» اختتمت بزهو «كيف لا تنجح؟!».

استمهل ولديك من حبيبته مهلة بضعة أيام ليفكر بالأمر، وعن طريق أحد سعاة المقاومة بعث برسالة إلى كوبيراس، وبعد يومين تلقى رد رئيس حركة المقاومة، المتكون من كلمتين «وافق حالاً». وبنهاية شهر آب (أغسطس) كان ولديك قد أصبح، بواسطة سويسا، مستشاراً مدنياً بين موظفي فريز تشتنر، والذي كان يثير استغراب ولديك هو سير الأمور بتلك السهولة دون أية عراقيل.

وحسب السيناريو المعدّ، عرّفت سويسا ولديك إلى الميجور كابن عم لها من نيوبورت، ولم يكترث فريز تشتنر الذي كان قد أصبح برتبة كولونيل، لهذا الأمر في البداية، ولكنه أبدى اهتمامه الشديد بعد أن علم أن ولديك جيولوجي وعلى معرفة تامة بطبيعة الساحل البلجيكي. وحيث كانت تقام في هذه الأثناء محطة رصد جديدة للطائرات، فقد فطن الكولونيل بذكاء إلى الفائدة التي قد يقدمها

ولديك بمعلوماته الدقيقة. وحسب إرشادات كوبيراس، كان على ولديك أن يتعاون إلى المدى الذي يراه مناسباً، وعلى ضوء الوقائع المستجدة.

عند نهاية شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، عثر ولديك على شيء هام. إذ من خلال تعامله مع العديد من المساجين الألمان، عرف بأمر خارطة. والذي فهمه أنها تحضر بناء على تعليمات القيادة الألمانية العليا. فإلى جانب تحديدها لمواقع الرصد في بلجيكا، لا بد أن تشمل تلك التي أُنشئت في شمال فرنسا أيضاً.

وتصادف أن التقى في ذاك الأسبوع مع الكولونيل في مكتبه، وحانت منه التفاتة إلى الطاولة فرأى الخارطة غير الكاملة، ورغم قلة ما وقعت عليه عيناه، فقد اعتبرها بحق وثيقة هامة. وفي ذات الأسبوع تقابل ولديك مع كوبيراس، وتحمس قائد حركة المقاومة بالأخبار كثيراً. فقد كانت أرقام الطائرات الإنكليزية المحطمة أثناء محاولتها عبور الساحل البلجيكي، في تزايد مستمر. وكانت لندن تلح بواسطة عملائها في بلجيكا وفرنسا على العمل «ببساطة يجب أن نحصل على تلك الخارطة» كذلك كان حكم كومبيراس النهائي «ولكن كيف؟» وبدا أن السؤال سيظل في الوقت الراهن دون جواب.

إن تسرق الخريطة من مركز قيادة فريز وتشتنر الشديدة الحراسة فذلك خارج نطاق البحث، وكذلك فإن أية محاولة من جانب ولديك لنسخ الخارطة أو تصويرها مستحيلة. اليوم استطاع أن يلمحها فقط، وليس هنالك ما يدعو إلى الأمل بتكرار ذلك. وفي هذه الأثناء، كان الوقت الثمين يمر، وما أن ترسل الخارطة إلى ألمانيا، فلن تبق أية فرصة للاستفادة منها.

ولكن، ووسط تلك الاحتمالات السيئة، جاء الأمل ثانية بشخص سويسا أوفرمات. فخلال ذلك الوقت كانت سويسا تتمتع بمنزلها المريح في زيبراغ. وكان ذلك يعني أنها تقابل ولديك أقل من السابق، ولكنهما كانا يرتبان أمرهما. إذ للمحافظة على استمرار العلاقة، التي اعتبرت هامة أكثر من أي وقت مضى، فقد وضعت حركة المقاومة شقة تحت تصرف ولديك، وكلما كان الكولونيل يقوم برحلة تفتيشية، كانت سويسا وولديك يلتقيان هناك. وأثناء إحدى اجتماعاتهما غير المنتظمة، وبعد أيام قليلة على محادثة ولديك مع كوبيراس، أعلنت سويسا أخبارها السارة، فالكولونيل عازم على القيام برحلة، وقد يتغيب ثلاثة أيام، ولربما خمسة. وهي تتحدث كانت تجلس إلى حافة الفراش وقد ثنت ساقيها العاريتين تحت فخذيها الممشوقين وتساءلت لامعة العينين: «أليس ذلك رائعاً؟ سيكون الأمر كالأيام الخوالي».

وكانت أفكار ولديك متسارعة «أجل» وافقها، «ولكن هذه الرحلة أيعقل أن تطول لهذه المدة؟ إذ نادراً ما كان يغيب لهذا الوقت».

هزت بكتفيها الأهيفين «الأمر يختلف هذه المرة.. سيطير عائداً إلى ألمانيا.. بخصوص أمر هام أظن».

ودهش ولديك تماماً وتساءل: أهو معقول، أن يحمل فريز تشتنر الخريطة معه إذا كان الأمر كذلك، فالوقت المتبقي أمامهم أقل مما تصوروا، ونطق سؤاله التالي بحذر شديد «أيمكنك التأكد؟ أقصد حول سفره إلى ألمانيا؟».

«ولكن بالطبع» تضاحكت «فلقد وعدني بإحضار حقيبة ملأى بالهدايا من برلين»،

«متى ينوي الرحيل؟».

هزت بكتفيها «قريباً.. هو كل ما يقوله». ولا بد أن تكون تعابير وجه ولديك قد عكست خيبة أمله «إنني أفهمك يا بول» ضحكت بعذوبة «إن شوقي للتخلص منه لفترة مثل شوقك.. ولكن لا تحزن» أضافت قائلة «سوف تعلم حالما أعرف أنا».

حين سرد ولديك معلوماته أمام رجال المقاومة، كان الرأي السائد بأن فريز تشتنر سيسلم الخارطة الهامة إلى رؤسائه، وحتى لو كان الأمر كذلك، فإن احتمالات وضع يدهم عليها لا زالت ضعيفة. فهم يلا يعرفون وقت سفره بالتحديد، أو الطريق التي سيسلكها إلى المطار. وإذا كانوا سيحصلون على الخارطة، لا بد أن يتم ذلك في الوقت الفاصل بين مغادرة فريز تشتنر لمقر قيادته ووصوله إلى المطار. ولم يكن هناك الكثير للقيام به من قبيل الإعداد، إذ أن في المعلومات ثغرات عديدة تحول دون عمل أي شيء باستثناء الأمل بالأفضل. واقتصر الأمر على اختيار مجموعة من أعضاء حركة المقاومة كإشارة ذات دلالة للوقوف على أهبة الاستعداد للعمل.

كان ولديك يشعر أن الوقت يمر ببطء، ذلك أن فريز تشتنر كان لا يزال في مقر القيادة، وبدأ ولديك يتساءل عما إذا كانت معلومات سويسا سليمة بالأساس. ومن ثم في ليلة العشرين من تشرين الثاني (نوفمبر)، وكان يوم جمعة، قامت سويسا بزيارة خاطفة إلى شقة ولديك، حيث أسرت إلى بول أن فريز سيسافر في الليلة القادمة بعد العشاء مباشرة، لأيام قليلة، وسيكون الأمر كما في الأوقات السابقة. وبعد ساعة من الزمن كان ولديك في اجتماع مع كوبيراس، وكان

السؤال الحيوي عما إذا كان الكولونيل سيحمل الخارطة معه، لا يزال دون جواب. وتلك مخاطرة مستعدون لتحملها، ولكن بعض التأكيدات مفيدة.

وعرض ولديك مساعيه لتحقيق ذلك.

فكان أن وضع الكولونيل في اليوم التالي تحت المراقبة بالقدر الذي لا يثير الشكوك.

حوالي الساعة 5:45 شاهده يتبع سائقه باتجاه سيارة القيادة التي كانت واقفة بالانتظار، وتحت إبط الكولونيل توجد حافظة للخريطة سوداء أسطوانية الشكل.

عند الساعة 6:30 كان ولديك وثلاثة أعضاء آخرين من حركة المقاومة متجمعين في ظلال زقاق قريب من مقر فريز تشتنر. كان الكولونيل في الداخل مع سويسا، ولم يكن لديهم فكرة عن مدة انتظارهم، ولكنهم كانوا متهيئين للانتظار حتى النهاية، ووضع ولديك يده في جيب معطفه وأصابعه فوق زناد مسدسه تحسباً للطوارىء.

كان الهواء البارد القادم من صوب القنال يكاد يجمد أصابعهم وهم في الانتظار لمدة طالت عن النصف ساعة، فيما كانت حركة السير خفيفة.

وقبيل الثامنة بقليل مرت عربة يجرها جواد، محدثة الضوضاء في الشارع، لتستدير يساراً وتختفي بعد قليل، وخيم السكون ثانية. ونفخ أحد العملاء، المدعو «جورغز» على راحتيه للتخلص من الصقيع، بنيما قام الاثنان الآخران بتحريك أقدامهم. كان الوقت قد جاوز الثامنة بقليل عندما أشار ولديك بيده، ولم يقم أحد بحركة.

بعد برهة وجيزة ظهرت سيارة الكولونيل وتوقفت عبر الطريق مباشرة، وهدأ محركها في حين بقي السائق ساكناً خلف المقود. وأشار ولديك إلى جورغز بأن يستمر في مراقبة السيارة والسائق، في حين تقدم هو مع الآخرين للتطلع عبر نافذة غرفة النوم الواقعة في الطابق الأرضي. فشاهدوا الكولونيل واقفاً بالقرب من الفراش يتحزم بمسدسه ويرنو نحو سويسا التي كانت تضحك في وجهه مكايدة.

واستمروا في مراقبة الكولونيل وهو يرتدي جاكيتته وينحني مداعباً عشيقته الشهوانية، ومن ثم، ملتقطاً معطفه وحقيبة الخارطة من على طاولة قرب الباب، وغادر الغرفة إلى الخارج.

كان ولديك يدرك التوتر المتزايد، حيث شعر بالجفاف في فمه بغتة، مع إحساس غريب لامس رقبته. وللعجب وجد نفسه يفكر فيما إذا كان زملاؤه يعانون نفس المتاعب، بينما كان يزحف قرب البيت باتجاه الشارع. ولم تمض ثوان على وصول العملاء إلى مراكزهم حتى انفرج باب البيت الخارجي، وأخذ ولديك نفساً عميقاً واندفع إلى أمام شاهراً مسدسه بينما كان الكولونيل يهبط درجات السلم.

في هذه الأثناء أطلق ولديك عيارين ناريين وهو متستر خلف السيارة، وقذفت الصدمة المزدوجة بفريز وتشتنر نحو الحاجز الحجري، وبدأت الدماء تتفجر من صدره وعنقه، مخرجاً صوتاً رطباً باكياً، فيما بدأ يتزحلق إلى الأمام ببطء بينما تدحرجت الحقيبة إلى الأرض.

كان السائق المبهور في هذا الوقت قد فتح باب السيارة، ولكن جورغز هاجمه بسرعة إذ أطلق عليه رصاصة ليسقط وكأنه حجر. وبينما كان ولديك يلتقط الحقيبة سمع صراخ سويسا.

ثمة مفاجأتين أتتا في وقت واحد تقريباً: أولاً شعاع النور الباهر، ومن ثم طلقات الرشاشات. وهوى جورغز الذي كان يقف إلى شمال ولديك، للحال. وجرى ولديك وهو منحن، ومن الخلف أتت أصوات الكوابح. تلفت ولديك وراءه، فلمح السيارة السوداء وأشخاصاً بأزياء رسمية يقفزون إلى الأرض. وكشفته الأضواء ثانية وبدأ الرصاص ينهمر من حوله. وشيء ما رمى به أرضاً، ولكنه استطاع أن يقف ثانية، وكان لا يزال ممسكاً بالحقيبة عندما قطع الزاوية. فقد كان الشارع مألوفاً لديه، على الرغم من الظلام، بعد عدة أقدام استدار يساراً، ومن الخلف تناهت إلى مسامعه صرخات ووقع أقدام.

كان يلهث بصعوبة، ولم يكن قد أفلت من ملاحقيه، وتعثر في سيره.. وفجأة رأى شعاعاً من النور يظهر ومن ثم يختفي. ولم يتردد ولديك، ورمى الباب بكتفه، كانت هناك مقاومة في الداخل «رجاء»، قال ولديك لاهثاً، وزاد من قوة الدفع. وفتح الباب فجأة حتى كاد أن يقع في أحضان الرجل العجوز. وسار صبي في حوالي الثانية عشرة من خلف ولديك وأغلق الباب، وأصاخوا السمع، واقتربت الأقدام الجارية منهم ومن ثم ابتعدت.

ولفترة كانوا يحدقون بصمت، وعيون الصبي منبهرة من الدهشة. وتطلع ولديك إلى الأسفل. كان لا زال ممسكاً بالحقيبة، ولكنها كانت ملطخة بالدماء التي كانت تجري بغزارة من أكمام قميصه، وابتسم ولديك بوهن شاكراً عندما قدما له كرسياً.

لقد بقي في نطاق التخمينات الشيء الذي سبب وجود الجستابو على مسرح الأحداث عندما قام ولديك ورفاقه بالهجوم. قد يقال إنهم

كانوا في الجوار وحضروا بعد أصوات الرصاص، ولكن بسبب التوقيت الدقيق يبدو ذلك مستحيلاً. واحتمال آخر هو أن الكولونيل نفسه كان تحت مراقبة بوليس «هملر» السري. إذ لم يكن ذلك أمراً غير عادي، فالجستابو لا يرى بأن أحداً فوق الشبهات، مهما كان مركزه أو تأثيره. وتفسير ثالث هو أن يكون الجستابو قد استدعي من قبل أحد الخونة داخل حركة المقاومة بالذات.

بعد عشر دقائق من اغتيال الكولونيل فريز وتشتنر حضر الميجور ستيفان ميسنر، وهو أحد رجال الجستابو الذين تم إعدادهم قبل الحرب، وقد أتى مؤخراً من بولندا بعد أن أسهم في إعداد معسكرات للإبادة بوارسو. وكان أول عمل قام به هو إحاطة المنطقة بحزام من شرطته الخاصة.

وكان عمله التالي هو اعتقال سويسا أوفرمات، بيد أنها احتجت مؤكدة براءتها طوال الطريق إلى مركز القيادة. وكان الميجور مطمئناً للغاية بأن أكد لها أن الأمر روتيني فحسب وليس ثمة ما تخشاه أو تخاف منه.

في صباح اليوم التالي عثر رجال ميسنر على سجل ولديك في مكتب فريز تشتنر، والإشارة إلى أنه ابن عم سويسا حازت على الاهتمام. وكون ولديك لم يحضر إلى مقر عمله، فإن ذلك ضاعف شكوكهم، وأمر ميسنر بإحضار سويسا إلى مكتبه. ولم تمض عشرون دقيقة حتى كان قد حصل على اعترافاتها كاملة، بما في ذلك عنوان شقة ولديك. وأعيدت بعد ذلك إلى زنزانتها في الأسفل، حيث ادعى الحراس أن الرصاص قد صوب، فيما بعد، إلى مؤخرة رأسها الأشقر الجميل.

وكان رجال ميسنر في هذه الأثناء، يقومون بتفتيش المنازل في المنطقة حيث اختفى ولديك. إلى جانب ذلك، ضوعف عدد الأشخاص الذين كانوا يحرسون المنطقة. فلم يكن ميسنر، الذي أفهم عن أهمية الخارطة، ليألو أي جهد، ولعل الطموح الشخصي كان له أثره كذلك. فالنجاح في معالجة القضية قد يرفع من شأنه لدى رؤسائه.

كان ولديك، حتى هذا الوقت، لا يزال في شقة الرجل العجوز ألبرت برودين وحفيده فرانك، وظهر أن جراحه كانت طفيفة، وسرعان ما توقف سيل الدماء، وكانت تلك بالطبع أقل ما يشغل ذهنه، وكان ولديك شاعراً بما يواجهه حتى قبل عودة العجوز إلى البيت من الخارج «إنهم يفتشون الحي بكامله» قال بصوت منخفض، «ولا يستطيع أحد أن يدخل المنطقة أو يخرج منها».

وأومأ ولديك برأسه، والتقط حقيبة الخارطة ووازنها بيديه. فهي كانت تمثل جهود أشهر عديدة، وحياة ثلاثة من أعضاء حركة المقاومة الشجعان وضابط ألماني. والسخرية كانت تتمثل في امتلاكه الحقيبة، دون أن يستطيع عمل شيء للهرب خارج نطاق الحصار المضروب على الحي، ومع ذلك ما كان بوسعه أن يعمل شيئاً.

بعد منتصف الليل بساعة أو ساعتين تحركت السيارة الألمانية عبر الشارع القريب بهدوء. ومن خلال مذياعين فوق سطحها، تُلي الإعلان بالفرنسية والفلمنكية «على الرجل الذي نطلبه أن يسلم نفسه قبل الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم. وإذا لم يحدث ذلك، فلسوف تتخذ إجراءات انتقامية ضد أهل الحي. وخلال ذلك، وحتى إشعار آخر يظل حظر التجول ساري المفعول».

رفع العجوز رأسه وعيونه دامعة وقال «لا أخشى على نفسي، إنما الصبي هو الذي يشغل بالي». .

«إنني أقدر ذلك» قال ولديك «لقد ساعدت كثيراً على كل حال، والبقاء هنا لن يجدي شيئاً». . حاملاً علبة الخارطة، دخل ولديك إلى غرفة النوم حيث بات ليلة. وحشى مسدسه، وبينما كان يضعه في جيبه تنبه إلى أن الصبي كان واقفاً في الباب.

دعى ولديك الفتى للدخول، وتقدم الفتى ببطء، وتوقف على بعد خطوات من ولديك «هل أنت الشخص الذي يطلبه الألمان» سأل آخر الأمر. وأومأ ولديك برأسه «لماذا؟». لو كان طارح السؤال رجلاً، لوجد ولديك أنه من غير المعقول الإجابة عليه. فالإخلاص وحب الوطن كانت معان لا يستطيع أن يعبر عنها في كلمات.

كانت حسب اعتقاده، يمكن الإفصاح عنها بالعمل، وتلك كانت طريقة ولديك دائماً وهي تلخص أسباب التحاقه بحركة المقاومة. فالإخلاص برأيه يقاس بمدى استعداد المرء لتحمل المخاطر، وحب الوطن باستعداده لمواجهة الموت، حتى عندما يفقد الأمل. أما بالنسبة للصبي فقد وجد ولديك أن الأمر يختلف معه، فهو يريد أن يكون معه أينما ذهب وحيث يحط ترحاله. وقد أقنعه ولديك بكل لطف أن وجوده مع جده أجدى.

في الساعة الواحدة ودع ولديك مضيفيه العجوز والصبي وخرج حاملاً علبة الخارطة داخل سترته، والمسدس في جيبه الأيمن. ومستظلاً بالحائط، استطاع الوصول إلى الزاوية دون أية حادثة، ومستديراً إلى اليسار تقدم إلى الإمام برشاقة.

وعندما وصل منتصف الشارع سمع نداء من الخلف واستدار

ليرى رجلي جستابو قد أصبحا على بعد عشرة أقدام منه، فسحب مسدسه ورماهما، فوقع الأول من جراء رصاصة أصابت عنقه، بينما استمر الآخر بتقدمه.

وظهر وهج، فشعر ولديك بقدميه ترتخيان من تحته. وكان يدرك، على شكل ضعيف، بأن الرصاص يطلق من الخلف، ورفع نفسه عن الأرض. كانت النيران تحيط به من كل جانب، وصوب مسدسه، ولكن حمله كان أشبه ما يكون بحمل العالم كله، ودون أي صوت، هوى على وجهه جثة هامدة.



نقلت جثة ولديك بعد ذلك إلى إحدى الشاحنات، وما لبثت الحياة أن عادت إلى الشارع حين خرج الناس بوجوههم الحزينة من بيوتهم، ومن بينهم كان، بوجهه الفتى الجاد، ابن الثانية عشرة فرانك برودين. حيث قام بتسليم الخارطة الملفوفة إلى عنوان خطه ولديك على ظهر السجل النفيس.

ومن كوبيراس انتقلت بواسطة سفن الصيد التي استطاعت الإفلات من الحراسة الألمانية إلى الخارج. وبعد ليلتين التقت السفينة بطائرة إنكليزية مائية عند ساحل دوفر. وفي صباح اليوم التالي كانت الخارطة بحوزة وزارة الطيران البريطانية، حيث بدأ بدراستها بشكل معمق. لأن أهميتها تفوق كل التوقعات. فإلى جانب تحديدها لمواقع شبكات الرادار الألمانية، كانت تسجل درجة ذبذبتها كذلك. وبهذه المعلومات بات بالإمكان اتخاذ الترتيبات الإلكترونية التي مكنت بدورها للمقاتلات البريطانية من عبور القنال بخسائر معقولة.

حين استشهد ولديك أخذت حقيبة الخارطة الملطخة بالدماء إلى

الميجور ستيفان ميسنر، وتجمع معاونوه من حوله بينما شد السحاب، وتلى ذلك شتائم غاضبة، فقد كانت الحقيبة محشوة بصحف قديمة فيما الخارطة الأصلية أعطيت إلى الصبي فرانك الذي سلمها إلى كوبيراس.

في نهاية العام 1942 أعلن ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني بأن بلاده باتت لا تملك مفتاح خط دفاع العدو الجوي فقط بل تعرف كيف تقاومه، وكان يعني بذلك أن الطريق إلى ألمانيا قد فتحت وأن النصر بات قريباً. وأن الملايين من الناس ذهبوا شهداء حتى يتكرس هذا النصر ومن ضمنهم أبطال فصلنا هنا وعلى رأسهم ولديك.

❁ ❁ ❁

سويسا أوفرمات فتاة جميلة ممن ينشدن المتعة، دون الوقوف عند مانح هذه المتعة، ولو كان غريباً أو محتلاً. فإن الجوع والحاجة تدفع البعض، إلى الوصول إلى مانح المال، ولو كان كريهاً أو قميئاً.

ومثل هذا الصنف من السهل الوصول إليه فيما إذا خطط لذلك. إن هؤلاء الفتيات يغرهن الجمال والوسامة عند الشاب، وبما أن زبائنهن أو من يفتش عليهن هم زبائن عاديين في الشكل والطبع، فإن دور هؤلاء الشباب المميزين للوصول إلى قلوبهن يكون أيسر تدبراً.

وقد تنشط العواطف ـ مثل الدوافع ـ في توجيه السلوك إما نحو هدف معين يعود بالحبور والفرح والمتعة على الفرد، وإما بعيداً عن موطن الخطر أو الموضوع الذي يجلب المنغصات له، وفي كلتا الحالتين نقول بأن سلوك الفرد موجه بدافع ذاتي غير معروف.

التصعيد الذي رافق علاقة بول بسويسا مرّ بثلاث طرق على الأقل.

1 ـ ففي حالة النشاط العاطفي كانت سويسا قادرة على العمل لمصلحة بول لمدة طويلة أكثر منه عندما كانت هادئة تماماً، كما هو شأن علاقتها مع الميجور.

2 ـ لقد تمكنت عاطفة سويسا القوية من أن تستخدم كامل قوتها مؤقتاً، كالطاقة التي تستحوذ على المرء في الملمات خصوصاً عندما يكون الأمر يتوقف عليه حياتها أو مماتها.

3 ـ جعلتها العاطفة القوية أقل تحسباً للآلام والمصائب.

إن العواطف تلعب دوراً رئيساً في الصورة العامة لنماذج دوافعنا. والحياة الحالية من العاطفة تكون بالتالي خالية من الحركة. ومثل الغرائز، قد تثير العواطف الفرد وتواظب على توجيه النشاط فيه. وعليه فإنها تلعب دور شحن الإنسان بالطاقة للهجوم والقيام بعمل ما. . إن هذا الأمر كله تمت دراسته بوضوح حتى وصل بول إلى بغيته عن طريق علاقته بسويسا العاطفية إلى إحداث تغيرات عضوية فيها يمكن إجمالها بما يلي:

1 ـ أصبحت العاطفة رد فعل لديها لرمز أو مثير خارجي، بينما كانت الغريزة البيولوجية استجابة لمثيرات مرتبطة ببعض حاجات الأنسجة لديها.

2 ـ اعتمدت إثارة العاطفة على أن تكون للظروف أهمية خاصة لها. كما حين يتأثر شخصان بطريقتين مختلفتين من نفس الظروف الخارجية، ويعتمد ذلك على المعنى العاطفي الذي يجلبه الموقف لكل

منهما. ويفسر كل شخص الأوضاع المعينة على ضوء خبراته السابقة وقيمه وهواياته وصورته عن نفسه.

3 ـ بينما تتبع إثارة وإشباع الغرائز البيولوجية ترتيباً معيناً، تبرز العواطف عادة في حالات لا تكون الاستجابة لها جاهزة أو متأصلة في الإنسان. فالأوضاع التي تثير العواطف ومكنوناتها، تكون في الغالب أحوالاً اضطرارية، ويصبح الوعي المقرون بالعواطف والإحساس بالخطر الشخصي وخسارة الممتلكات من العوامل التي تحرك المرء لكي يتصرف بسرعة أثناء الحادث، وهذا ما حدث تماماً لسويسا.

إن العواطف قد تنشط ـ مثل الدوافع ـ في توجيه السلوك إما نحو هدف معين يعود بالحبور والفرح والمتعة على الفرد، وإما بعيداً عن موطن الخطر أو الموضوع الذي يجلب المنغصات له، وفي كلتا الحالتين نقول بأن سلوك الفرد موجه بدافع ذاتي غير معروف.

لقد دفعت سويسا ثمن عواطفها فقتلت، فيما دفع بول ثمن عقيدته فاستشهد هو أيضاً، وفي الحالتين كان نشدان الفعل ورد الفعل هو المحرك لقضيتنا.

سيبيل ديلكورت(*)
(Sibell Delcort)
(1915 -)

هي إحدى جاسوسات الاستخبارات الألمانية النازية التي أرهقت استخبارات الحلفاء مجتمعة، حيث كان يطلق عليها لقب «فتاة الراين»، كما ادّعت في الاستجواب أن اسمها هو «هيلويز بوكونفيل».

كيف عبرت «سيبيل» نهر الرين؟ ولماذا؟

الراين، هذا النهر الدامي الذي لم يعرف السلم أبداً، لا في أيام حكم «شارلمان» ولا في الأيام التي كانت صخور الضفة اليمنى للراين تجتذب البحارة ليضربوا فوق الأمواج الذهبية ولا حتى أيضاً في أيام «التوتون» الشعب الألماني القديم الذي كان يرقب فتيات الراين وهن يغطسن فيه بحثاً عن الذهب الكامن في الأعماق.

لم يشهد «الراين» السلم، لا في حكم بلوفر أو نابليون أو بسمارك أو فوش أو هتلر أو مونتغمري أو باتون أو غيرهم ممن

(*) المرجع: كيرت سنجر «أعلام الجاسوسية العالمية». ترجمة بسّام العسلي. دار اليقظة العربية. بيروت 1965، ص 105 - 124.
وصلاح نصر «الحرب الخفية...». ص 179 - 180.

اجتازوا أمواجه العظيمة. هذا النهر الذي يعتبر مفتاح النضال للحركات التوسعية التي اهتزت لها أوروبا. وقد شهد هذا النهر بالذات قصة من أعظم قصص الجاسوسية في عصرنا الحاضر.

في مطلع شهر آذار (مارس) عام 1945، والحرب العالمية الثانية تقترب من نهايتها، كانت «كولونيا» عبارة عن مجموعة من الأنقاض بعد أن قام الأميركيون بالانقضاض على جسر «ماجون» واستولوا على المدينة بينما كانت أرتال القوات النازية تتراجع تراجعاً غير منتظم.

وكان الراين يجري باستمرار وهو يفصل بين الجيشين الملتحمين مكوناً الحاجز الأخير في وجه النصر. وفي هذه الفترة من الزمن كانت تعبر باستمرار فوق أمواجه الخالدة مجموعات من الجواسيس والعملاء واللاجئين، بالإضافة للطائرات ومراكب الصيد الصغيرة.

وكانت مصنفات وأضابير المنظمات السرية البريطانية، وم 5010 للمكتب الثاني الفرنسي في باريس، ومنظمات مكافحة الجاسوسية الأميركية في واشنطن والوثائق التي عثر عليها في مكاتب مكافحة الجاسوسية النازية في «كالتن بونر» تروي التاريخ الطويل لفتاة الراين الحديثة، تلك المرأة الشابة التي عاشت حياة تحفّها الأخطار بعد أن كرّست جسدها وحريتها لخوض هذه المعركة الدامية، معركة الجواسيس.

كان اسمها سيبيل ديلكورت، وكان البحث عنها منذ عدد من السنين هدف كافة المنظمات السرية لقوات الحلفاء، وكانوا جميعاً يحتفظون بصورها. إنها فتاة شابة جميلة، تقارب الثلاثين من عمرها، وتدل دراسة مصنفاتها على أنها مزدوجة الشخصية، كما هي حالة

أغلب الجواسيس، تتمتع بأعصاب متينة، ودقة كاملة في تقديرها للمواقف الحرجة، وفي نفس الوقت كانت عاطفية مرهفة الإحساس، ولكنها كانت تعرف كيف تخفي عواطفها وتتحكم فيها مع استعدادها التام لارتكاب جريمة القتل إذا ما لزم الأمر.

ولقد اعتقلتها إحدى وحدات القتال لمنظمات الاستعلامات الأميركية مصادفة في «كولونيا» في ليل الثالث عشر من آذار (مارس) عام 1945، عندما كانت تجتاز الراين سباحة من «ميلهيلم» لتلتحق بالجبهة الأميركية. وكانت ترتدي لباس السباحة ذو اللون الأصفر، كما كانت المياه لا تزال ترشح من بنطالها عندما أدخلت إلى مبنى القيادة العامة لمنظمة مكافحة الجاسوسية والواقع في «لوتيشر ستراس» فأعطوها الملابس الجافة عوضاً عن ملابسها المبللة قبل أن يبدأوا باستجوابها في مكاتب مكافحة الجاسوسية. وكان أول ما تم معها إجراء الاستجواب الأولي ذو الأسئلة الروتينية المعروفة، ولا شيء غير ذلك.

لقد كان معروفاً لدى الأميركيين بأن الألمان يقومون بمحاولات يائسة لإنقاذ الموقف وذلك بإرسال عدد كبير من العملاء للتسرب من بين خطوط القوات الحليفة بهدف جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن أوضاع الوحدات المقاتلة.

ولقد صرحت بأن اسمها هيلوييز بوكونفيل ورددت قصتها هذه أكثر من ألف مرة على مسمع من الضباط الأميركيين.

لقد اعتقلت هيلوييز من «بريتانيا» في فرنسا وحملت إلى ألمانيا منذ عام 1942 في زمن العمل الإجباري، وبذلت كل ما استطاعت حتى تمكنت من الالتحاق بالجبهة الأميركية. ولقد فكرت في سرقة

أحد المراكب الصغيرة في بادىء الأمر في محاولة لاجتياز الراين، ولكنها أدركت بأن الدوريات الألمانية والتي تتجول باستمرار وحتى في الليل ستجعل نجاح هذه المحاولة متعذراً، فقررت عندئذٍ بأن أسلم وأأمن طريقة لاجتياز النهر هي عبوره سباحة، ولما لم تكن المسافة بعيدة جداً، فقد أدركت بأنها تستطيع النجاح رغم درجة برودة الماء المتدفقة، ومتى تقارب في برودتها درجة حرارة تجلد المياه. ولقد تحملت أعباء هذه المجازفة على أمل مساعدتها وذلك بإرسالها إلى عائلتها، في فرنسا.

وتفحصها رجال التحقيق للمفرزة 207 من مفارز مكافحة الجاسوسية بانتباه. ذلك أنهم لم يقتنعوا بقصتها التي بدت لهم بأنها وضعت بعناية فائقة لمثل هذا الاستجواب...

لقد كان الراين لا يزال يحمل معه قطع الجليد الضخمة، فمن المؤكد بأن وجود هيلوييز في وسط المياه لم يكن إلا تظاهرة أدركها ضباط الاستخبارات بما لديهم من الثقافة والتجارب والشعور الخاص بتحليل المواقف، وقرروا بأنها تجاوزت النهر على ظهر أحد المراكب وأنها ألقت بنفسها إلى الماء على بعد أمتار فقط من الشاطىء.

وكانت شاحبة الوجه، متعبة، ترتعد من البرد، عندما أعطيت القهوة الساخنة. وكانت على وشك تناولها قهوتها هذه عندما دخلت إلى الصالة إحدى سيدات المنظمة النسائية في الجيش ممن اهتموا بأمر هذه اللاجئة منذ البداية، حاملة بين يديها الملابس المبللة للفتاة ومصباحاً صغيراً للجيب يعطي ضوءاً أحمر وآخر أبيض.

ولم تضطرب هيلوييز إطلاقاً بل تساءلت:

ـ نعم. وهل في هذا ما هو غير طبيعي؟... لقد اشتريته من

الناحية الأخرى ذلك أنني ـ بديهياً ـ كنت بحاجة إلى الضوء في اجتياز «الراين». لقد كان الظلام دامساً وكانت الساعة تقارب الثانية صباحاً.

وكان التصرف المنطقي هو إعادة تفتيشها من جديد...

ولقد قاومت بضراوة عملية التفتيش التي قام بها ضباط مكافحة الجاسوسية بمساعدة ضابطة برتبة ملازم حيث أمكن اكتشاف مسدس صغير قد أحيط بقماش غير قابل للنفاذ، نجحت هيلوييز بإخفائه وذلك بإلصاقه على جسمها. ولقد كان لديها التفسير الجاهز لذلك: إنني وحيدة، ودون حماية، أفلا ترون بأنني أحتاج لوسيلة من أجل حماية نفسي حتى من الأميركيين؟...

وعند ذلك، قرر المحققون، بعد نقاش قصير فيما بينهم، رفع الموضوع إلى رؤسائهم فلربما كانت قصة هيلوييز بوكونفيل تخفي وراءها أكثر مما صرحت به.

وتساءلوا فيما بينهم ترى هل من المحتمل أن يكون لهذه، الأسيرة الجميلة أهمية خاصة؟..

ورغم أن الوقت كان مبكراً جداً، وكانت هيلوييز متعبة جداً، فقد تم نقلها في سيارة جيب إلى القيادة حيث كان يقيم فانتون موران وهو ديبلوماسي قديم. يتكلم ثماني لغات ويعرف عقلية وأحاييل النازية أكثر من كل ما عداه من أفراد المفرزة «207» لمكافحة الجاسوسية. وعندما سحبوه من فراشه دونما شفقة كانت هلوييز نصف نائمة وهم يحضرونها لمقابلته، وعلى الرغم من كل ذلك، فقد بدأ الاستجواب فوراً وبعد أن أعطي مقداراً من القهوة مع الكونياك، ولقد صرحت له بلهجتها الفرنسية:

ـ ألا يكفيني ما تحملته من الآلام؟... صدقني بأنني لست

جاسوسة، وماذا تبغون مني؟. . . في البداية حملني الألمان من فرنسا إلى ألمانيا، لكي أعمل في إحدى مزارع بروسيا الشرقية. ثم أتى الروس لكي ينقذوا حياتنا، وكان عليّ أن أكون رفيقة معهم، وعندما وصلت إلى «كولونيا» حاول النازيون استخدامي. إن الجنود دائماً يبحثون عن النساء، وها أنتم أيها الأميركيون، لا تريدون أن تتركوني لأعيش بهدوء، وتمنعون النوم عني فماذا أستطيع أن أفعل لكي أجد الأمن؟. . إن كل ما أريده هو أن أعود إلى عائلتي، وشرعت بالبكاء بعد أن أنهكها ماء النهر المتجلد.

وكانت تبدو على وشك الانهيار التام.

ولم يجبها موران بشيء، بل أصدر أمره بالاحتفاظ بها خلال الليل، وطلب من زملائه الانسحاب من مكتبه.

استيقظت شكوك «موران» فبدأ التفتيش بين مصنفاته الخاصة، ووجد بسرعة ما يبحث عنه، إنها إضبارة عنوانها «سيبيل ديلكورت» وكانت إضبارة رائعة باستكمالها للمعلومات تحتوي على كافة الأدلة اللازمة للحكم على هذه الجاسوسة الألمانية الخطرة للغاية والتي عرفتها ميادين القتال في «الراين» والالزاس واللوكسمبورغ، والأردين، كما كان هناك صورة «لسيبيل» ولكنها صورة قديمة جداً، ولا تصلح تماماً لكي تسمح بتحقيق الشخصية. كما كان من المعروف بأن سيبيل ديلكورت هي عشيقة دورز كرامر أحد رؤساء منظمات الاستخبارات «س.س» والحامل للوسام التي قلده إياه هتلر بمناسبة نجاح عمليات الاختطاف التي كان يقوم بتنظيمها. كما كان رئيساً لشبكة من وحدات الانقضاض وزمر قتل الجواسيس الأعداء.

لقد كان كرامر منذ فترة طويلة الشوكة التي تدمي أقدام الحلفاء

حيثما اتجهوا، ذلك أنه أرسل «القناصة» من الطرف الآخر للراين، كما نظم عمليات إنزال المظليين ونجح بنسف منشآت قوات الحلفاء، وعلى الرغم من انهيار الجبهة الألمانية فإن شبكة كرامر استمرت بتوجيه ضرباتها على أمل القيام بهجوم جديد في اتجاه الغرب، لذا فقد كانت رغبة الأميركيين قوية لوضع أيديهم عليه بأي ثمن، وعندما أعلن فانتون موران إلى زملائه في فرع مكافحة الجاسوسية بأن المدعوة هلوييز بوكانفيل ليست في الواقع إلا سيبيل ديلكورت حسب الجميع حسابهم بأنه بفضل مساعدتها يمكن شل كرامر عن نشاطه ووضع حد لشروره، ولكن الحوادث برهنت أنه ليس الأمر بتلك البساطة التي يتصورونها. فقد كان من الصعب الاستفادة من «سيبيل» لا سيما وهي مصممة بألا تخدع عشيقها.

استمر المحققون في فرع مكافحة الجاسوسية الأميركية باستجوابها خلال اليومين التاليين واستمرت الفتاة وهي متمسكة بقصتها التي ذكرتها منذ البداية.

لقد أحضرت في فترة العمل الإجباري إلى ألمانيا، وكانت تكره النازيين وهي لاجئة عندهم، وبإمكانهم التأكد من وجود عائلتها في «بريتانيا» إذا كانوا لا زالوا على قيد الحياة. كما أن ولادتها مسجلة في كنيسة القرية، وأنها على مقربة من الأميركيين، فلماذا تقوم بخداعهم؟..

وأدرك المحققون بأن أية محاولة للضغط لا يمكن أن تجبر هذه الفتاة المصممة على تغيير تاريخها فحاولوا اتباع أسلوب آخر، هو أسلوب الإغراء، فعرضوا عليها الطعام والملابس، والخمور، والسجائر، مع تقديم كافة الوعود، ولكن سيبيل بقيت محافظة على

عنادها. وصرحت بأن جعبتها قد فرغت وليس عندها من مزيد: لقد كانت منهكة وكانت فعلاً جميلة ذات عينين تلتمعان، ووجنتان بارزتان مع شعر أسود، بالإضافة لمسحة الجمال التي ترتسم عليها عندما تغضب فتعطيها مظهر الوحشية.

ولكن وبمحض الصدفة تقريباً، أوقعت نفسها بفخ قديم معروف نصبوه لها بشكل روتيني عندما تحدث أحد العملاء الأخصائيين جوزيف روزن ومن رجال مكافحة الجاسوسية الأميركيين يجيدون اتقان اللغة الألمانية، فقال لها بعد أن ظهرت عليه إمارات الضيق من هذا الاستجواب الذي خيل إليه أنه لن ينتهي.

ـ وإذا، فأنت لا تعرفين أشياء كثيرة، كما أنك لا تعرفين ما هي الحياة؟.. ولكنني أستطيع أن أقول لك فإنك لست أكثر من عميلة تافهة من عملاء دورز كرامر وأحد جواسيسه الذين لا قيمة لهم ممن يدفع لهم المرتبات الضئيلة.

وكانت هذه المرة الأولى التي يذكر فيها اسم كرامر. فما كان من سيبيل إلا أن صرخت بمرارة، بعد أن شعرت بأن التجريح ينال عشيقها:

ـ إنه كذب، إن دورز كرامر يحبني... إنه... وكأغلب حالات الجاسوسية بقيت سيبيل رغم كل شيء وقبل كل شيء امرأة لا سيما فيما يتعلق بعواطفها.

وعند ذلك، قال لها موران بعد أن بقي صامتاً طوال التحقيق، إذاً فأنت سيبيل ديلكورت. ونهض من مكانه ليتناول المصنف الضخم الذي كان موضوعاً على أحد الأرف.

ـ إليك هذا المصنف، فهو يحتوي على كل ما نعرفه عنك.

وفتح المصنف ثم شرع يقرأ على مسامعها كل ما يعرفونه عنها وعن عشيقها، وعند ذلك قالت: سيبيل ديلكورت بهدوء وبعد أن عادت للسيطرة على أعصابها.

ـ حسناً لقد أضعت حياتي، فمتى ستستدعون فصيلة الإعدام؟ إنني مستعدة لاستقبال الموت. لقد كنت أعرف دائماً بأنني أخاطر بحياتي لو وقعت في الأسر.

وأجابها موران بهدوء، وهو أحسن الشروط النفسية:

ـ كلا... كلا... إننا لن ننفذ فيك حكم الإعدام، إلا إذا أقدمت على ما يجبرنا على ذلك، ثم... إنك جميلة جداً ولا يجوز أن تموتي وأنت في ريعان الشباب..

وعند ذلك ابتسمت سيبيل ابتسامة خفيفة، وقالت: إنني أعرف لماذا تريدون الاحتفاظ بي حالياً، إنكم ترغبون بمحاكمتي، فهل ستصدرون حكمكم عليّ لتعاوني مع النازية، ثم تحلقون شعر رأسي لتطوفوا بي بعد ذلك في شوارع باريس، أو في شوارع قريتي؟...

كان موران يعرف بأن سيبيل ديلكورت قد قدمت من بلجيكا وليس من «بريتانيا».

وكانت تملك مع أمها مقهى صغيراً في «بورج» وكانت عواطفهم مع النازية منذ أن احتل هؤلاء بلجيكا، وقد تحسن وضع المقهى وبدأت أرباحه ترتفع منذ اليوم الذي شعر فيه رجال الغستابو بأن النساء الشابات يستقبلونهم بترحاب في هذا المقهى. ولقد أصبح مقهى «ديلكورت» الخاص بالغستابو، مكاناً بغيضاً بحيث لم يعد يرتاده أحد من البلجيكيين أو المواطنين الشرفاء.

تمَّ التعارف بين دورز كرامر الجلاد الفخور بملابسه العسكرية النازية، وسيبيل في هذا المقهى. فقام باستخدامها كمترجمة في بادىء الأمر، ثم في أعمال البريد، وأخيراً كعميلة من عملاء المخابرات السريين. كما كانت سيبيل تصبح عشيقة له من وقت إلى وقت آخر. . .

وكانت إضبارة سيبيل تتضمن المعلومات عن تجسسها على عدد من رجال المقاومة البلجيكيين الشجعان، بالإضافة إلى عدد من ضباط الاستخبارات لقوات الحلفاء والوشاية بهم مما أدى إلى اعتقالهم، ومنهم من أعدم بفضل المعلومات التي كانت تضعها سيبيل بين يدي عشيقها. وتابع موران بحثه في إضبارة كرامر فأعلن أمام الفتاة بأن كافة أعماله وتصرفاته معروفة تماماً لديه، ثم تابع حديثه:

ـ لقد كنت أنت متعلقة به تماماً، ولكننا نعرف بأن كرامر ليس ذلك الرجل الذي تظنينه، فنحن نعرف بالتأكيد أن له عدداً من العشيقات. ولقد شوهد الآن بعد مغادرتك له بصحبة الأخريات من النساء، ثم ألم يبعث بك لأداء هذه المهمة الخطرة ليبعدك عن طريقه فيخلو له الجو مع عشيقته الجديدة؟. . . وإننا نعرف اسمها. . . إنها تسمى ماري. .

ولم تكن كافة الاتهامات لتقع في نفس هذه المرأة الشابة كوقع هذه التهمة، وهي أن كرامر يغرر بها، وكانت تعرف بأن موران لا يخدعها في أقوالها.

إذ كان كرامر في الواقع يعرف فتاة اسمها ماري وعندئذٍ قالت سيبيل بصوت منخفض (إنني أكرهه) وقد بقيت عيناها جافتين، على الرغم من أنها كانت تبدو وبوضوح على وشك الانخراط في البكاء، واستمرت تقول له:

ـ لديك كل شيء في إضباراتك، وليس عندي من جديد أضيفه إليها، فإنك تعرف الكثير عن موضوعنا. نعم ـ إنه يعيش الآن مع الإفرنسية، ومن المحتمل تماماً بأنه قد بعث بي إلى هنا كي يتخلص مني، لقد خيل إليَّ بأنني قمت بعمل كبير واشتغلت كثيراً من أجله لكي أحمل له معلومات هامة فسيعود إليَّ، ولكنني الآن، أريد أن أنتقم لنفسي منه، قل لي ماذا أعمل وسأفعل ما تريد.

وبقي موران صامتاً، وتساءل: ترى هل بإمكانه الوثوق بها؟..

واستعطفته مرة ثانية: قل لي ماذا أستطيع أن أفعل من أجلكم؟...

وأجابها أخيراً: باستطاعتك أن تقولي لنا لماذا بعث بك إلى (كولونيا)، وما هو العمل الذي طلب منك أداؤه خلف الخطوط الأميركية؟..

وابتدأت سيبيل اعترافها الطويل:

كان كرامر قد ترك، خلف القوات النازية أثناء تراجعها، شبكة كاملة من العملاء، تتضمن عدداً كبيراً من الألمان وفيهم عدد من الإفرنسيين والبلجيكيين والهولنديين.

وجميعهم مزود بأوراق تحقيق للشخصية مزورة (هويات) وهم ينتظرون في كولونيا أوامر كرامر للقيام بأعمال النسف والتدمير، وكانت مهمة سيبيل هي توجيه هذه الشبكة السرية. ولم يصدق الضابط الأميركي ما ذكرته سيبيل، فقد كان ذلك شيئاً خارقاً للطبيعة، ولكن باستطاعتهم التأكد الآن مما إذا كان صحيحاً، ثم أضافت:

ولدينا الآن مستودعات من الأسلحة والذخائر ومتفجرات

ت.ن.ت. التي تم إخفاؤها في (كولونيا) وعلى أهبة استخدامها.

سألها (موران):

ـ متى.. وكيف؟...

ـ معي عنوان في (ليبمارج ـ ستراس) حيث تم إخفاء الأسلحة السرية، وإن المسؤول عن هذا المستودع ينتظر مني كلمة السر وهي: ليل وضباب.

ـ ولماذا يجب أن تذهبي إلى هذا المكان سراً؟...

ـ لأن المسؤول قد أصبح اسمه فرانز ماتياس وهو في نفس الوقت أحد رؤساء مجموعات الانقضاض، وسيقوم بمرافقتي إلى (اينغلهارد).

وسألها موران الذي كان يبذل جهده ليستطيع إخفاء انفعالاته: ومن هو اينغلهارد هذا؟..

ـ إن اينغلهارد هو أحد الهولنديين المتعاونين مع النازية والذي دفعه خوفه من الموت للتعاون معكم، وهو الآن يعمل لمصلحة منظمة مكافحة الجاسوسية الأميركية، ولقد تلقيت الأمر بالعثور عليه ثم قتله، قبل أن يتمكن من تسليم لائحة تتضمن جميع أسماء الرجال..

ـ وكيف تفكرين بأنك ستتمكنين من قتله، قبل أن يتمكن هو بدوره من اعتقالك؟..

ـ لنعد إلى بداية الخطة. لقد كانت رغبتي في أن أطلب منه مساعدتي للتعاون مع منظمة مكافحة الجاسوسية الأميركية، وبإمكاني تحقيق ذلك عاجلاً أو آجلاً، ثم عليَّ أن أتعرف عليكم بأي شكل من الأشكال، قالت ذلك وهي تضحك، ولكنكم كنتم أسرع مني في أسلوب عملكم..

وردد موران بلهجة جافة: بما أن كلاً منا قد وجد الآخر فإن الأمور على ما يرام. استمري..

واستمرت سيبيل فشرحت كيف أنها ستحصل من (اينغلهارد) على المعلومات اللازمة عن مراكز القيادة العامة الأميركية لمكافحة الجاسوسية في الميدان، ثم تقوم بعد ذلك بقتله بطلقة من المسدس، ويتم استخدام الأسلحة والمتفجرات على أثر ذلك لنسف وتدمير القيادة الأميركية، وفي ذات الوقت الذي تكون فيه كافة شبكات العملاء قد نجحت بجمع كافة المعلومات الهامة المتعلقة بتمركز الوحدات المقاتلة وشخصيات القوات الحليفة، عندئذٍ يتم توجيه الضربة التي سيقوم على أثرها هجوم جديد قد تم تنظيمه لاستعادة القطاع. ويجب عليَّ فور تمكني من قتل اينغلهارد وحصولي على المعلومات اللازمة، أن أذهب إلى كوخ صغير يقع على ضفة الراين لإرسال تقريري إلى الضفة الأخرى بواسطة الإشارات المضيئة من المصباح اليدوي.

لقد كانت القصة منطقية، ويمكن تقبلها، ولكن رجال مكافحة الجاسوسية لم يظهروا ارتياحهم على الرغم من كافة الظروف المحيطة، لأنه كان من غير الممكن الوثوق بسيبيل لا سيما وأن البرهان لا يزال ينقصهم للتحقق من أقوالها أولاً. كما أنهم لم يسمعوا قبلاً أي حديث عن هذا الذي اسمه اينغلهارد والذي يعمل ظاهرياً في خدمتهم.

لذا قرروا وضعها تحت التجربة، وذلك في استخدامها للتحقق من الشارات الضوئية التي يجب أن تعلم بواسطتها السلطات النازية عن أمكنة الإنزال الأمينة.

وفي الليلة التالية، قاموا باقتياد المرأة الشابة إلى الكوخ الذي سترسل منه الشارات الضوئية الحمراء باتجاه الطرف المعاكس من النهر، وكانت الشارة تتألف من ضيائين طويلين يتبعهما آخران قصيران، واستمرت سيبيل بالإرسال لمدة ساعة من الزمن كان الأميركيون خلالها يكمنون بانتظار الإنزال المحتمل، وأخيراً استقبلت سيبيل إجابة على شاراتها، ولما لم يحدث أي شيء غير ذلك، فقد عاد الجميع بعد قليل إلى القيادة العامة. ولم يتمكن موران من الوصول إلى قرار نهائي في موضوع هذه الفتاة، وتساءل: ترى هل تحاول هذه البلجيكية كسب الوقت فقط، وهي تلعب مع رجال مكافحة الجاسوسية الأميركية لعبة القط والفئران؟...

وللتأكد كان عليها في اليوم التالي أن تقوم بمرافقة ضباط المخابرات إلى العنوان الذي أعطتهم إياه قبلاً، ووصلوا إلى هناك.

وفتح لهم باب المنزل في (ليمبرج ـ ستراس) رجل ألماني، طويل القامة، وظهر عليه ذهول المفاجأة وهو يرى هذا العدد الضخم من الزائرين، ولكن سحنته تغيرت ما أن همس في أذنه أحد الوسطاء (ليل وضباب). وعندها قام بمرافقتهم إلى مكان اينغلهارد. وبذلك أمكن اعتقال هذين الرجلين وإحضارهما إلى القيادة العامة في (لوتيشر ـ ستراس)، ولكن مستودعات الأسلحة بقيت بعيدة عن الاكتشاف، وأجريت المقابلة بين اينغلهارد ـ و ـ سيبيل ديلكورت فما كان من اينغلهارد إلا أن أغمي عليه، ولكنه تمكن من نطق بعض الكلمات قبل أن يقع مغمياً عليه: «هذه الشيطانة، هذه المخلوقة الرهيبة».

وعندما عاد إليه صوابه، اعترف بأنه كان واحداً من عملاء الغستابو.

وأنه كان يعرف منذ وقت طويل السيدة سيبيل التي تحتل مكانة مرموقة. وطلب من الأميركيين تأمين الحماية له لأنه كان متأكداً بأنهم سيحاولون قتله.

وبعد أربع ساعات فقط، حاول اينغلهارد الانتحار، عندما عمد إلى قطع شرايين يده، بواسطة مدية، ولكنه لم يتمكن من تنفيذ محاولته بالسرعة الكافية، فأمكن حمله إلى الطبيب في الوقت الملائم، وعندما انتهى من وضع الأربطة والضمادات، كان على استعداد للاعتراف بكل شيء.

وتساءلت سيبيل بعد أن أدلى اينغلهارد باعترافاته:

والآن! ألا زلتم غير مصدقين لما أقول؟... ترى ماذا أستطيع أن أفعل كي أكتسب ثقتكم بي؟..

وابتسم موران مسروراً.

وفي اليوم التالي، أحضر السجينة إلى مكتبه، وقال لها:

بما أنك تعرفين كافة العملاء العاملين مع الغستابو في (كولونيا)، فسوف أعطيك الفرصة لتبرهني لنا بأنك فعلاً تعملين من أجلنا، وذلك بتوجيهنا إلى الأماكن التي نستطيع أن نجدهم فيها.

وأسندت مهمة توجيه زمرة مطاردي الجواسيس والتي تقودها سيبيل إلى المباحثي الخاص هاري ـ كينغ، حيث تم توزيع الرجال على ثلاث عربات نقل كبيرة سوداء.

وابتدأت العربات تجوب شوارع المدينة التي أصبحت مجموعة من الأنقاض جيئة وذهاباً، بينما كانت سيبيل تشير إلى (كينغ) باعتقال بعض العملاء الذين يرتدون لباس الشرطة الرسمي والذين كانت

تعرفهم بأنهم من العملاء السريين، حيث تم اعتقالهم فوراً. ثم قامت (سيبيل) بقيادة رجال المخابرات إلى محطة البضائع حيث تم العثور في إحدى المستودعات الكبيرة على عامل متقدم في السن، من عمال الخطوط الحديدية، وهو يقوم برسم مخطط لخطوط السكك الحديدية الألمانية بعد أن تم إصلاحها من قبل رجال الهندسة في الجيش الأميركي، وقد تم اعتقاله فوراً.

كما تم إلقاء القبض على عدد آخر من العملاء، بعضهم في أثر بعضهم الآخر. لقد كانت في الواقع شبكة ضخمة من شبكات الجاسوسية، أمكن (لكرامر) تنظيمها بشكل لا يصدقه عقل. فلقد كان من بينها مثلاً، هذا الرجل الذي يمتلك هذه الدكان والذي كانت مهمته تنحصر بتنظيم لائحة بكافة العربات العسكرية التي تمر من أمام دكانه، وبذلك يستطيع إعطاء سلطات النازي فكرة صحيحة تماماً عن أهمية وحجم الإمدادات التي كانت تصل باستمرار إلى القوات الحليفة. وكنموذج آخر هذا الصبي الذي يعمل في المطعم (إنه يقوم بتسجيل الشارات والرسوم التي يحملها كافة العسكريين ممن يترددون على مطعمه). كما أمكن اكتشاف خادم إحدى كنائس الضواحي، والذي كانت لديه المعرفة التامة بحجم القوات وتكوين الوحدات المحتلة وتسليحها.

لقد كانت (لائحة الصيد) لليوم الأول مثيرة جداً، ولكن كان مما يسترعي النظر إنهم جميعاً من صغار عملاء الغستابو، ولذا قال موران لـ سيبيل بأن عليها أن تقوم بأداء واجبها بشكل أفضل بكثير مما قامت به في هذا اليوم.

في اليوم التالي، كان كل من سيبيل والمباحثي الأخصائي

(هاري كينغ) يسيران في طريقهما بصفتهما اثنين من الهولنديين اليائسين، يسألان الناس العون تحت اسم السيد (هنيك ـ كيمب) وزوجته، واتجها إلى معسكر يقيم فيه الأشخاص اللاجئون ممن دمرت منازلهم، ولقد قاما بدورهما خير قيام. وساعد على إثبات مظاهرهما الملابس الرثة والقذرة التي كانا يرتديانها، وقد تمكنا من التسلل إلى قلب المعسكر قبل أن يتمكن أحد من توجيه أي سؤال لهما، وعندئذٍ بدأت (سيبيل) عملها، بالإشارة إلى النازيين الذين كانوا يختبئون هناك. وعلى الرغم من أن مساعدتها قد مكنت من إلقاء القبض على ستة من النازيين، فإن (موران) و (كينغ) اعتبرا بأن كل تصرفاتها ليست إلا محاولة لكسب الوقت، وأنها قامت بتسليم كل العناصر من الذين لا قيمة لهم دون أن تخدع (كرامر) ذلك الرجل الذي كان في اعتقاله الأفضلية الأولى عن كل ما عداه من الآخرين. إذ أنه طالما كان ينعم بحريته فإنه يشكل تهديداً للقوات الحليفة لأن رجاله وعملاءه كانوا يتسربون باستمرار من كل حدب وصوب.

واستدعيت (سيبيل) من جديد إلى مكتب (موران) الذي قال لها وهو متجهم الوجه بأن فصيلة الإعدام تنتظرها، إذا لم تساهم في إلقاء القبض على عشيقها وقال لها:

ـ إننا لا نفتش عن ساقي الحانة، ولا عن عامل الطرق الحديدية، إننا نبحث عن (كرامر) بالذات، أين هو؟.. أعطينا الاسم الذي يختفي وراءه، عنوان إقامته، أو أشيري إلينا بتعيين أي شخص نستطيع بواسطته الوصول إلى «كرامر». أما إذا. . .

وكان موران قد تخلى عن كل رقته وتهذيبه معها، ولكن سيبيل رددت بأنها لا تعرف شيئاً عنه ولا أين يختبىء منذ أن تركته يذهب مع ماري.

ـ إنني لا أتساهل إطلاقاً مع من يسخر مني، فإما أن تسلمينا (كرامر) وإما أنك ستضطرينا إلى إصدار الحكم عليك بصفتك جاسوسة.

قدرت سيبيل بأن قوة الحزب قد تلاشت، أو على الأقل، هذا ما خيل إليها، لذا طلبت إعطاءها ورقة وقلماً وكتبت عليها ما يلي:

(بولس، كل شيء على ما يرام، رافق حامل هذه الرسالة، فبإمكاننا الانسحاب دون خطر وإنني أغفر لك تصرفك مع ماري، وأحبك دائماً، عد إلى قرب. محبوبتك).

وفسرت رسالتها بأن كرامر يختفي تحت اسم (بولس) ثم طلبت سيبيل خريطة من خرائط الإقليم، وأشارت عليها عند أحد منعطفات النهر، وقالت:

ـ إنه يختبىء هنا، فإذا ما اجتزتم النهر من هذا المكان، فستجدونه. وسألها موران: ولماذا لم تقولي لنا ذلك قبلاً؟... وعند ذلك أجابته:

ـ إننا لا نبعث برجل إلى الموت، إذا ما أحببناه. ترى ستفعل ذلك مع المرأة التي تحبها؟..

ولم يجب موران بشي، وتساءل إلى أي حد ستتصور سيبيل الأميركيين كأغبياء، إذ كان بديهياً، بأن أي مراسل سيقوم بنقل هذه الرسالة سيتعرض إلى استجواب وثيق وطويل من قبل كرامر هذا إذا لم يكن في الأمر شراك منصوب. أو أن ما يحتويه نص الرسالة يتضمن تحذيراً قد أتقن إعداده وإخراجه.

وصرح موران وكينغ بأنهما لا يثقان بكلمة من كل ما قالته،

وأنهما سيبعثان بها إلى زنزانتها في سجن ريشنباك لإعطائها فرصة للتفكير بمصيرها.

بعد ذلك بأيام، طلبت سيبيل أن ترى موران من جديد، وقالت له بأنها لا تعرف فعلاً أين يختبىء كرامر، وأن المكان الذي أشارت إليه على ضفة النهر هو أحد الملاجىء القديمة التي يحتمل أن يعود إليها، وقالت له بأنها إذا لم تتمكن من مساعدة الأميركيين للعثور على كرامر فإن باستطاعتها إرشادهم إلى المكان الذي أخفى فيه رجال الغستابو كافة وثائقهم وإضباراتهم السرية. وعلى الرغم من فقدان الثقة بموران بها، فإنه رأى من الأفضل اتباع هذا الأثر الجديد. وقام رجال المباحث، بعد أن ألبسوا سيبيل لباس ممرضة أميركية، فرافقوها إلى أحد المصانع المهجورة والتي تقع على مقربة من الراين. وفي هذه المرة كانت تقول الحقيقة فعلاً، إذ أمكن استخراج كافة الإضبارات والوثائق الرسمية للغستابو من مرافقتها وكانت تتضمن أسماء كافة العملاء في الأقاليم، كما عثر أيضاً على لائحة للعملاء الذين يعملون خلف الخطوط الأميركية وهم يستخدمون في لباس جنود قوات الحلفاء اتقاناً للتمويه والخداع. ولقد مكنت هذه المعلومات من اعتقال حوالي مئة وخمسين شخصاً من الذين كان البحث عنهم هدفاً من أهداف مخابرات الحلفاء.

وعندئذٍ عادت ملامح الفخار لترتسم من جديد على وجه «سيبيل» لنجاح خطتها. لقد تمكنت من الإيقاع بكافة عملاء الغستابو الذين يختفون على ضفاف الراين، بينما بقي عشيقها «كرامر» بعيداً عن كل خطر يقلقه.

وأسند أمر الاهتمام «بسيبيل» إلى مباحثي جديد هو «شارلز كيز»

الذي عرف كيف يقوم باستجواب السجينة العنيدة والتي لا تقول إلا ما تريد قوله.

فصرحت له أخيراً بأنها تظن أن «كرامر» يجب أن يكون موجوداً في «كولونيا» للبحث عنها أو عن «ماري»، ثم قالت له:

ـ إنني أعرف مكاناً يحتمل أن يختبى فيه «كرامر»، ولم يخطر هذا المكان بذاكرتي قبلاً، فلنجرب..

وقامت بمرافقته على طول طريق ضيق إلى أن توقفت أمام منزل متهدم، محطم الأبواب والنوافذ ولكنهم لم يعثروا فيه على أحد، وكل ما وجدوه من المخلفات ثوباً أحمر وحذاء قديماً. ودمدمت «سيبيل» عندما شاهدت ذلك، هذه المرأة.. «ماري».

إنه يعيش معها إذاً باستمرار.. هذا الأحمق.. وفجأة، أصابتها نوبة جنونية فالتفتت إلى الرجال الذين كانوا يقومون على حراستها فصرخت:

ـ ويقال بأنني قمت على حمايتهم أثناء هذا الوقت كله: لو أتينا إلى هنا قبل أسبوع لوجدناهما هنا وعثرنا عليهما، وإنني أذكر هذا الثوب الأحمر.. الثوب الأحمر.. وصرخ شارلز كيز: قيدوها، وقال لها وهو يهزها: انظري ماذا يحدث بسبب كذبك وخداعك.

وبكت بحرقة وهي تغادر المنزل.

ـ لقد كنت حمقاء عندما أرسلت له رسالة لأنقذ حياته بينما هو يعيش هنا مع هذه الفرنسية الساقطة. وسألها «كيز» بلهجة حادة: وأية رسالة في الواقع تلك التي بعثتيها له؟... وأجابته: الإشارات الضوئية التي قلت له بواسطتها إنني أسيرة في أيدي الأعداء. ترى ماذا يستطيع

المحقق أن يفعل مع فتاة من طراز «سيبيل»؟.. لقد ساهمت في إلقاء القبض على مائة وخمسين عميلاً من أجل حماية عشيقها «كرامر»، وأعيدت السجينة إلى زنزانتها.

وتتابعت الأحداث التي أدت إلى سقوط هتلر بعد ذلك بتسارع كبير، وأمكن للأمريكيين الاستيلاء على مدينة ميليهايم، المقابلة «لكولونيا». وهنا تمكن رجال مكافحة الجاسوسية الأمريكية من اعتقال رجلين وامرأة من مخبأ في أحد الأقبية، كما عثر على مستودعات من الأسلحة والمتفجرات والسجائر المسمّمة وجوازات سفر مزورة، وبطاقات تعارف «هويات» للغستابو.

ولم يتفوه أي من الرجلين بكملة واحدة، ولكن السرور ظهر على المرأة وهي ترى الأمريكيين عندما استقبلتهم بإشارة النصر «7 ف» وفكر رجال مكافحة الجاسوسية أنها ساقطة أخرى، إنها «سيبيل» ثانية. ولقد قالت الفتاة عندما أحضرت إلى القيادة، إنني فرنسية، واسمي «لوسي» مارفوازيه وأعمل لمصلحة المكتب الثاني الفرنسي، وكانت تتكلم بسرعة كبيرة، وبصوت لاهث، ولهجة مضطربة...

لقد اكتشفوا بأنني أعمل للمخابرات الفرنسية، فقاموا بتعذيبي، إلى أن أجبروني أخيراً على العمل معهم. وهذان الرجلان هما «كيرت ـ نييمان» و «لوتر ـ دينزل» وهذا الأخير من رؤساء المخابرات «س. س» وأحد أعوان هتلر الرئيسيين ـ ورئيس من رؤساء الغستابو المخلصين. وسألها الأميركيون، وأين هو «كرامر»؟..

وأجابت المرأة بأنها لا تعرف إطلاقاً أي شيء عنه، فلقد ذهب مع عشيقته الأخيرة. إحدى عاملات الهاتف في الغستابو، واتجها إلى غابة «ميلهيم» حيث يقطن أهل الفتاة في منزل يقع في هذا القطاع،

وكان هذا الوصف كافياً لإجراء التفتيش في عدد من المنازل الواقعة خارج «ميلهيم». وعندئذٍ أنذرت «سيبيل» بأنها إذا أرادت أن تعود إليها حريتها فليس عليها إلا أن تتحقق من شخص «كرامر»، أما إذا حاولت من جديد خداع وتضليل رجال المخابرات الأميركية في فرع مكافحة الجاسوسية، فسيتم تسليمها إلى السلطات البلجيكية لمحاكمتها بتهم الجاسوسية والخيانة، ولها الحق في اتخاذ قرارها الذي تريده.

بعد عدد من الساعات، وصل الأميركيون إلى المنزل الذي وجدوا فيه امرأة ورجلاً أشقر طويل القامة عليه ملامح العرق الجرماني الأصل، وكان الرجل يرتدي الملابس المدنية. أما شارباه الصغيران فكانا مماثلين لشاربي هتلر، وكانت هذه الأوصاف تنطبق على الأوصاف الموجودة لدى المخابرات الأميركية عن شخص «كرامر» ولكنه أنكر ذلك فأدخل رجال مكافحة الجاسوسية «سيبيل» إلى الغرفة، وكانت شاحبة الوجه ترتجف من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، وسألها «كينغ»:

ـ من هو هذا الرجل؟..

واقتربت «سيبيل» من الرجل ونظرت إليه ثم قالت وهي تبتسم:

إنني لا أعرفه إطلاقاً، هذه المرة الأولى في حياتي التي أراه بها.

ولكن لم يمض على ذلك أربع وعشرين ساعة حتى أمكن العثور على ستة من الشهود الذين أمكنهم التعرف على شخص كرامر وعرف الأميركيون بأن «سيبيل» رفضت أن تخدع عشيقها حتى عندما شاهدته وهو في صحبة امرأة أخرى.

وكان حبها «لكرامر» أخيراً أقوى من غربتها في الحرية، وبذلك قررت مصيرها بنفسها.

ولم يعد باستطاعة الجيش الأميركي إلا أن يقوم بتسليمها إلى الحكومة البلجيكية. وبعد أن انتهت الحرب، قام مكتب مكافحة الجاسوسية الأميركية بإرسال كتاب إلى السلطات البلجيكية يشهد فيه بأنه تم إلقاء القبض على عدد كبير من عملاء الغستابو، بفضل مساعدة «سيبيل» لهم، وإنهم يطلبون لها شيئاً من التساهل والرأفة.

وكان قد اجتمع مجلس عسكري بلجيكي، فحكم على «سيبيل» بالموت. والآن وقد انقضت سنوات الحرب، تقدمت «سيبيل» فطلبت العفو عما ارتكبته من الجرائم. ودرس طلبها، فتقرر العفو عنها وإطلاق سراحها، مع اعتبار المدة التي قضتها في السجن، ولقاء الخدمات التي قدمتها لقوات الحلفاء.

ولعل السبب الأهم هو أن المجلس العسكري، والمكون من الرجال فقط، قد أصابه الذهول لتصرفات هذه المرأة التي استطاعت أن تحب ذلك الرجل مع أنها كانت تعرف بأنه لم يكن وفياً لها، وأنها لم تقدم على تضليله وخداعه حتى وهي تقابل الموت وجهاً لوجه.

وبذلك، أتيحت الفرصة للسيدة «سيبيل ديلكورت» فتاة الراين، مرة ثانية، لإعادة بناء حياتها من جديد.

سيغمولر(*)
(Sigmoler)
(-   )

كانت سيغمولر جاسوسة ألمانية كبيرة. وقد اشتغلت في سويسرا وبدلت هويتها أكثر من عشر مرات. ولكنها لم تجمع الأخبار وتفضح الأسرار، بل انحصر عملها في تنظيم شبكات التجسس للألمان في فرنسا والوصل بين الجواسيس وأعوانهم في سويسرا، ونقل الأخبار والوثائق التي تصلها منهم إلى إلمانيا بطريق سويسرا بمهارة وأساليب تجنّبها الاصطدام بالسلطات السويسرية المحايدة.

كانت الجاسوسة سيغمولر التي أطلق عليها اسم إيرما براون وإيرما شتراوب، والتي تنكّرت باسم مدام اسبريمونت ثم بالكونتسة تيرلند، مطمح أنظار فون بيسمارك وأمله ورجاء دائرة التجسس الألمانية في برن. وهي التي أسست مركز التجسس الألماني في جنيف وعينت على رأسه امرأة تدعى ريبيكا سومر الملقبة بالروكين.

(*) المرجع: جان بردان «جاسوسات ألمانيات»... ص 135 ـ 136.

حرف الشين

1 ـ شارلوت ولبروخ.

2 ـ شارون سكرانج.

3 ـ شولا كوهين.

شارلوت ولبروخ(*)

(Charlott Wilbrokh)

(1887 -   )

هي إحدى جاسوسات ألمانيا الشرقية برئاسة «أرنست فولفيير» رئيس خدمة الجاسوسية فيها. كانت تتولى إدارة فندق «همز» في بون...

وقد نجح فولفيير في أن ينشىء مركز تنصّت للشرطة السرية لألمانيا الشرقية في فندق «همز» ببون، وكان يدير هذا الفندق تابعة له تدعى «شارلوت ولبروخ»، وهي أرملة في الخامسة والستين من عمرها، وكان يرتاد الفندق سفراء ومبعوثون سياسيون من أمم مختلفة.

ولمدة ثلاثة أسابيع في أوائل عام 1952، كان العملاء يشعرون بالضيق لأن فندقهم المفضل كان مغلقاً للإصلاحات والتجديد. وفي هذه الأسابيع الثلاثة بتوجيه من فولفيير انتزع عملاء من ألمانيا الشرقية أرضيات كل الغرف، ووضعت أرضيات جديدة بها ميكروفونات حساسة، لأن فولفيير لا يغامر بوضع هذه المعدات في جدران أو في أثاث الغرف، وكانت الأسلاك تتجمع كلها في غرفة تحت سقف

(*) **المرجع**: صلاح نصر «الحرب الخفية ـ فلسفة الجاسوسية ومقاومتها». منشورات الوطن العربي، الطبعة الثانية 1982، ص 190 ـ 191.

المنزل حيث توجد أجهزة تسجيل متصلة بهذه المكيروفونات لتسجيل أي محادثة حال وقوعها.

وفي أثناء النهار ينصت عملاء البوليس السري لألمانيا الشرقية، ولكن أثناء الليل يحدث التسجيل طبقاً لنظام آخر، ذلك أن العمل ليلاً يكون وقفاً على الإنصات لما يجري في غرفة خاصة معينة.

ولم يكن فولفيير يجازف بأن يرسل إلى بون بأكثر من عميلة واحدة من فتياته الحسان وهو يبعثها بأوراق مزورة كسائحة، وتذهب الحسناء للإقامة في فندق همز، ثم تبدأ محاولاتها لاصطياد الضحية كما حددها فولفيير.

وكان على الحسناء أن تقتاد الرجل إلى غرفتها، أو أن تذهب معه إلى غرفته، فالأمر سيان، إذ إن كل الغرف تتصل بأجهزة الإنصات.

والعميلة لا ترسل أي رسائل إلى فولفيير، فإن ذلك يقوم به العملاء الذين يقيمون في غرفة التسجيل، والذين يرسلون بكل أشرطة التسجيل إلى مكتبه ببرلين الشرقية.

ولقد استطاعت منظمة جيلين في ألمانيا الغربية أن تقضي على عملاء فولفيير، واكتشفت سر فندق همز مما جعل فولفيير يثور ويعلن أنه وضع 250 ألف دولار ثمناً لرأس الليفتنانت جنرال جيلين رئيس مخابرات ألمانيا الغربية.

ورد جيلين على ذلك متحدياً بأنه وضع مليون دولار ثمناً لرأس فولفيير.

إن الطابع البارز في أعمال أرنست فولفيير هو أن «الغاية تبرر

الوسيلة»، وأنه يجب العمل بكل وسيلة للحصول على المعلومات ولو بالانتفاع بالضعف البشري إزاء الحسناوات من فتيات الهوى، كذا تدريب أولئك الفتيات على استخدام العلاقات الجنسية كوسيلة لحل عقدة الألسنة التي يعقلها أصحابها في حياتهم العادية، ولكنهم لا يملكون أي سيطرة على ألسنتهم في الضوء الخافت بإزاء الفراش الوثير الذي يحوي جسد امرأة لعوب.

شارون سكراناج(*)
(Charon Skranag)
(-   )

هي إحدى جاسوسات المخابرات المركزية الأميركية في غانا الأفريقية ضد «مجلس الخلاص الثوري» برئاسة الملازم «جيري رولنغز».

ما المهمة التي كانت قد كلّفت فيها سكراناج؟ وما النتائج التي تمخضت عن ذلك؟

على هذا الأساس، واستناداً إلى هذه المسألة، نستطيع القول أنه، عندما يضرب الغرور رأس أحد من الناس في أي عصر من العصور، يشعر وكأن الأرض كلها أصبحت في متناول يده. هذا هو الحال بالنسبة لشخص، فكيف إذا كان ملازماً لقوة عظمى نخر الغرور رأسها، وتغلغلت العنصرية في شرايينها ودمها ولازمت العظم؟.

(*) **المرجع**: مجلة «العالم». العدد 77. السبت 3/ 8/ 1985. ص 24 ـ 25. وأيضاً:
ـ جريدة «السفير». العدد 4136. الأربعاء 27 تشرين الثاني/ نوفمبر 1985. ص 9.
ـ د. صالح زهر الدين «الاستخبارات الأميركية»، الجزء الأول من موسوعة الأمن والاستخبارات في العالم. المركز الثقافي اللبناني. بيروت. الطبعة الأولى 2003.
ـ ود. صالح زهر الدين «موسوعة أسرار من التاريخ» الجزء الثاني. مؤسسة الرحاب الحديثة. بيروت 1995، ص 185 ـ 193.

تلك هي حقيقة الولايات المتحدة الأميركية التي احترفت «التمييز العنصري» حيث كان الزنوج الأميركيون من أكبر ضحاياها، في الوقت الذي عمل فيه الرئيس إبراهام لنكولن كل جهده ونجح في تحرير العبيد من كل المظالم التي كانوا يرزحون تحتها، ولقب بعدها بـ «محرّر العبيد». إلا أن ذلك لم يرق لرؤساء أميركا ونظامها الرأسمالي، الذي تتوالد فيه الأزمات يومياً، وبعد أن تسلطن على دول هذا المعسكر بأجمعه، واحتل مرتبة «عدو الشعوب رقم واحد». ولم يكتف بتمييزه العنصري داخل حدوده، بل عمل ـ وما زال يعمل جاهداً ـ على تعميم هذه الظاهرة، وعلى الصعيد الكوني، وبصورة خاصة في القارة الأفريقية. وعندما أصبح نظام «غانا» نظاماً آمن فيه الشعب والتف حول «مجلس الخلاص الثوري» برئاسة الملازم «جيري رولنغز» بدأت المخابرات الأميركية، بالتعاون مع المخابرات الصهيونية ومخابرات جنوب أفريقيا تنشط للإطاحة بالنظام الجديد، بعد أن وضعته وزارة الخارجية الأميركية أثناء فترة الجنرال الكسندر هيغ على قائمة «الأنظمة غير الصديقة»..

على هذا الأساس تفجرت الأزمة بين الولايات المتحدة الأميركية وحكومة غانا الأفريقية في شهر تموز/يوليو 1985، كنموذج جديد على الأزمات المتعددة التي وقعت فيها الدبلوماسية الأميركية نتيجة لتورط وكالة المخابرات المركزية في أعمال معادية للحكومات المختلفة. والملاحظ أن الإعلان الغربي قد فرض نوعاً من التعتيم على أخبار هذه الأزمة وتطوراتها. ومنذ أن بدأت بوادر الأزمة تنعكس داخل غانا نفسها بدأ في الهرب عدد من قادة الجيش والبحرية في غانا نتيجة تورطهم في عمليات تجسس يعاقب عليها قانون البلاد...

وفي الوقت الذي اتجهت فيه أجهزة الإعلام نحو مستشفى

«بانيسدا» البحري حيث كان يرقد الرئيس الأميركي (رونالد) ريغان في أواخر شهر تموز/ يوليو 1985 بعد استئصال ورم سرطاني من أمعائه، دارت في واشنطن محاكمة قررت الصحافة الأميركية والأوروبية تجاهلها . .

وتطرقت مجلة «العالم» إلى هذا الموضوع مؤكدة أن المحاكمة تتعلق بمتهمة واحدة هي الآنسة «شارون سكراناج» بدأت بعد القبض عليها بعشرة أيام. والتهمة الموجهة إليها هي «التجسس لصالح جهات أخرى أثناء دفع أجرها كعميلة لوكالة المخابرات المركزية في غانا». كما تساءل المراقبون حول التعتيم الإعلامي، وهل هو مسألة مقصودة هدفها التستر على بقية أفراد الشبكة التجسسية التي كونتها وكالة المخابرات المركزية الأميركية في غانا؟.

افتتحت المحاكمة يوم الأربعاء في العاشر من تموز/ يوليو 1985. وقد نقلت إذاعة أكرا (عاصمة غانا) أخبارها في عدد من النشرات الإخبارية ليومين متتاليين. وتبع ذلك عدد من التعليقات التحليلية تعيد إلى الأذهان تلك الاتهامات التي وجهتها غانا إلى واشنطن طوال الأعوام الثلاثة الماضية. .

ومنذ نهاية العام 1982، وحكومة أكرا تتهم وكالة المخابرات المركزية الأميركية والموساد الصهيونية بتدبير محاولات الانقلاب والتجسس. ومنذ إلقاء القبض على الآنسة «شارون سكراناج» لاحظت حكومة غانا إسراع عدد من كبار شخصيات الحكومة وقادة الجيش والبحرية والطيران وعدد من كبار موظفي وزارة الدفاع، بالهرب من البلاد، وترك كل ممتلكاتهم وراءهم. كما لاحظ الدبلوماسيون الأجانب أن عدداً من موظفي وزارة الخارجية في أكرا، لم يتواجدوا

في مكاتبهم منذ بدء المحاكمة في واشنطن، مما يدل دلالة واضحة على انكشاف أطراف شبكة المخابرات المركزية ونشاطها في غانا.

وأشارت جريدة السفير «البيروتية» إلى القول على لسان مسؤول في وزارة العدل الأميركية أنه تقرر إطلاق سراح أحد الغانيين المتهمين بالتجسس على الولايات المتحدة ويدعى «ميكائيل سوسودي»، مقابل إطلاق السلطات الغانية سراح (10) غانيين متهمين بالعمل لحساب وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية. وذكر المسؤول أن «سوسودي» البالغ من العمر (39) عاماً كان قد اعتقل في 10 تموز/يوليو 1985 أيضاً، وصدر بحقه حكم بالسجن لمدة (20) عاماً.

من ناحية أخرى يتساءل المراقبون عما إذا كانت الآنسة سكراناج هي نفسها المرأة الأميركية التي اتهمت حكومة غانا السفارة الأميركية بتهريبها سراً من أكرا في 27 شباط/فبراير من العام 1983.

وكان شهر شباط/فبراير 1983 قد شهد محاولة انقلاب فاشلة اتهمت غانا وقتها وكالة المخابرات المركزية الأميركية بتدبيرها. وأشارت وكالة الأنباء الرسمية وعدد من صحف غانا إلى أن تورط السفارة الأميركية في غانا في محاولة الانقلاب كان مكشوفاً. كما لوحظ وقتها أيضاً أن كلاً من السفارة الأميركية ووزارة الخارجية الأميركية التزمتا الصمت ولم تكذّبا الاتهامات..

وكانت صحف غانا قد نشرت وقتها أن الشرطة وجدت امرأة أميركية في المنزل الذي ألقي القبض فيه على مدبّري محاولة الانقلاب. وفي الغرفة نفسها التي وجدت المرأة مختبئة فيها، تمّ العثور على أسلحة وبيان إذاعي باللغة الإنكليزية يتضمن أسماء أعضاء حكومة الانقلاب..

وحتى الآن ليس هناك ما يؤكد ما إذا كانت المرأة الأميركية التي اختفت بطريقة غامضة عقب لجوئها إلى السفارة الأميركية في شباط/ فبراير 1983، هي نفسها الآنسة شارون سكراناج...

وإن ما يدعو إلى التساؤل أيضاً هو ما إذا كان لمحاكمة الآنسة سكراناج علاقة بالأزمة الدبلوماسية السابقة التي تفجرت بين أكرا وواشنطن في شهر أيار/مايو 1985، حيث شهد ذلك الشهر استدعاء واشنطن لرئيس عمليات وكالة المخابرات المركزية في أكرا، وإعادته على وجه السرعة إلى أميركا. وكان قد تردد في الأوساط الدبلوماسية أن استدعاء واشنطن لرجل المخابرات جاء بناء على طلب حكومة غانا بترحيله، بعد أن انكشف نشاطه في التجسس. ويأخذ المراقبون من هذه الظواهر والملابسات إلى جانب العدد الكبير نسبياً من المسؤولين الغانيين الذين هربوا من البلاد أو ألقي القبض عليهم دليلاً على مدى تغلغل وكالة المخابرات المركزية في غانا. ويبدو أن الشبكة التي نجحت مخابرات أميركا وإسرائيل في تكوينها داخل غانا كانت مترامية الأطراف ومتغلغلة في كل أجهزة الدولة تقريباً.

ومنذ مجيء النظام الجديد إلى الحكم بقيادة الملازم «جيري رولنغز» في آخر ليلة من العام 1981، وقوى كثيرة تتربص به وتريد القضاء عليه..

وانقلاب ليلة العام الجديد 1981 ـ 1982 هو الانقلاب الثاني الذي جاء برولنغز. الانقلاب الأول كان في أيار/مايو 1979 ولم يمكث رولنغز في الحكم إلا بضعة أشهر ليعود الجيش بعد ذلك إلى الثكنات، ويفسح المجال أمام حكومة مدنيّة منتخبة من الشعب..

ولكن الحكومة المدنية جاءت لتكرس الفساد والرشوة وتزداد نسبة البطالة ويتعفن محصول الكاكاو (المصدر الأساسي لاقتصاد غانا) بسبب عدم وجود جهاز نقل ينظمه. وفي النهاية قرر الملازم طيار «جيري رولنغز» العودة بانقلاب ثان أحسن الشعب استقباله. وأثبتت الأشهر التالية إخلاص رولنغز ورفاقه (مجلس الخلاص الثوري) في العمل، والتف حولهم الشعب، وقد كان ينزل بنفسه ليقود حملات تعبئة المحاصيل ونقلها. واتجه رولنغز لضرب الفئات الطفيلية والسماسرة وإعادة صياغة الأنماط الاقتصادية في البلاد لتحقيق العدالة الاجتماعية..

وبدأت ـ بالطبع ـ مصالح الفئات المرتبطة بالشركات الأجنبية ـ وأغلبها أميركي وبريطاني يهودي ـ تتضرر من تشريعات النظام الجديد. وبدأت غانا تنهج خطاً جديداً في السياسة الخارجية يذكر بأيام الزعيم الراحل «كوامي نكروما»، فأخذت تؤيد حركات الاستقلال الوطني، وتتخذ خطوات فعالة في منظمة الوحدة الأفريقية لتأكيد عزل اتحاد جنوب أفريقيا العنصري. واستضافت ودعمت أجنحة مختلفة من منظمة المؤتمر الوطني الأفريقي. وكانت المواجهة الدبلوماسية الأولى التي يخوضها النظام الجديد في منظمة الوحدة الأفريقية هي شجب التدخل الفرنسي في تشاد. وبالنسبة لقضية الشرق الأوسط اتخذت غانا ـ خاصة بالنسبة للتصويت في الأمم المتحدة ـ موقفاً مؤيداً للعرب وضد «إسرائيل» في جميع القرارات الصادرة.

وبالطبع لم تكن مواقف النظام الجديد بلا ثمن. فتواجد مكاتب لحركات التحرير وخاصة عناصر من المؤتمر الوطني الأفريقي في غانا، جعل مخابرات جنوب أفريقيا والموساد الإسرائيلية ينشطان في مدنها. ونتيجة تنسيق الجهازين مع المخابرات المركزية التي تشرف

عليها، بدأت المخابرات الأميركية تنشط للإطاحة بالنظام الجديد المدرج على قائمة «الأنظمة غير الصديقة».

ومنذ ربيع العام 1982 بدأت المعارضة للنظام الجديد ـ وكلها من رموز النظام السابق الذي لم يأسف الشعب على ذهابه ـ تشكل خلايا من مواطني غانا الهاربين منها بعد أن طلب النظام الجديد محاكمتهم. . .

واشترك موظفو الشركات السابقة ـ خاصة شركة التجارة العالمية التي طردها رولنغز عام 1982 بعد أن ثبت أنها واجهة للمخابرات الإسرائيلية «الموساد» ـ اشتركوا في الخلايا التي بدأت تتشكل في لندن ولاغوس ونيروبي والخرطوم. كما تم تجنيد عدد من المرتزقة البريطانيين والبلجيكيين لها. . واختير قائد مخابرات غانا السابق الجنرال «جوشوا هاميدو» الذي طرد من منصبه لارتباطه بواشنطن، قائداً لجبهة المعارضة الجديدة للنظام. وكانت المخابرات الأميركية تتولى دفع الأجور وتمويل محطة إذاعة المعارضة من لاغوس. .

وفي مطلع العام 1983، اتهم سفراء غانا في واشنطن وباريس والمندوب السامي لغانا في بريطانيا، مخابرات أميركا وإسرائيل بتمويل حركات معارضة، وإعداد انقلاب، وتكوين خلايا معادية للنظام في لندن وكينيا ونيجيريا وتوغو وليبيريا وساحل العاج وأميركا. وقد عقد هؤلاء السفراء مؤتمرات صحفية لتوجيه هذه الاتهامات. .

وشهد آذار/مارس 1983 عراكاً دبلوماسياً بين واشنطن وأكرا، بعد أن كشفت حكومة غانا بطريق الصدفة تورط السفارة الأميركية والسفير الأميركي في محاولة الانقلاب في 27 شباط/فبراير 1983.

فقد وقع في أيدي مصادر من غانا تقرير سري، كانت سفارة

ألمانيا الغربية قد أرسلته من أكرا إلى بون، وكان التقرير يخوض في تفاصيل علاقات المستر «توماس سميث» ـ سفير أميركا وقتها في غانا ـ مع جبهة المعارضة التي تعد لإنقلاب بقيادة الجنرال «جوشوا هاميدو» في لاغوس. ومضى التقرير ليصف استراتيجية المخابرات الأميركية لاختراق القوات المسلحة والنقابات العمالية في غانا. وتطورت الأزمة الدبلوماسية خلال الأشهر الثلاثة التي تلت ذلك لتنتهي برحيل «توماس سميث» من البلاد وتأزم العلاقة بين غانا وأميركا...

وقضت وزارة الخارجية الأميركية بقية العام 1983 ومعظم العام 1984 في محاولة تكذيب تقرير السفارة الألمانية في أكرا. بل وقادت المخابرات الأميركية حملة منظمة لتلطيخ سمعة الكابتن «كوجو تسيكاتا» المستشار الخاص لمجلس الدفاع الغاني، الذي كان قد أذاع في أكرا محتويات التقرير في مؤتمر صحفي عقد في آذار/ مارس عام 1983...

وخلال الشهرين الثامن والتاسع عام 1983 سافر مساعد وزير الخارجية الأميركي لشؤون أوروبا الشرقية، «دينيس كاكس» المتخصص في شؤون إعلام الحرب الباردة في جولة في أوروبا، وزار كاكس عدداً من العواصم الأوروبية. وفي كل منها كان يحرص على أن تكون النقطة الأولى في جدول أعماله هي اتهام الاتحاد السوفياتي بتدبير حكاية تقرير السفارة الألمانية في غانا. وادّعى أن تقرير السفارة الألمانية مزوّر. وأن حكومة غانا اعترفت له بهذا في لقاء سري. ولاحظ المراقبون أن السفارة الألمانية في أكرا إلتزمت الصمت، ولم تؤكد أو تنفي وجود التقرير، ولم يصدر عنها ما يشير إلى أنه مزوّر أو حقيقي. وبالطبع لو كان الدبلوماسي الأميركي كاكس صادقاً فيما

يدّعيه، لكانت واشنطن قد طلبت من حكومة غانا تكذيباً رسمياً لما صدر عنها من اتهام السفير الأميركي بالتجسس والتورط في محاولة انقلاب. ولكن الكابتن «تسيكاتا» لم يكذب أبداً البيان السابق الذي نشر فيه محتويات التقرير. كما أن الملازم رولنغز نفسه كرر في أكثر من مناسبة الاتهام، ووجه المزيد من الاتهامات دون أن يصدر من واشنطن أي تكذيب رسمي أو تحدٍّ لاتهامات غانا لها..

وفي اليوم الرابع من المحاكمة في واشنطن، صدر مرسوم رسمي في غانا ووزعته سفاراتها في العالم، جاء فيه أن محاكمة الآنسة «شارون سكراناج» يقدم أدلّة جديدة تثبت أن معظم ما ورد في تقرير السفارة الألمانية العام 1983 كان صادقاً. ويقول المرسوم أن اعترافات الشهود واعترافات سكراناج نفسها أثناء المحاكمة تضيف أدلة جديدة للاتهامات التي ذكرها الكابتن تسيكاتا في مؤتمره الصحفي الشهير في آذار/ مارس 1983..

وأعاد المرسوم للأذهان مرة أخرى الاتهامات التي وجهتها حكومة غانا للسفارة الأميركية بتورطها في محاولة الانقلاب الفاشلة في شباط/ فبراير 1983، وحكاية المرأة الأميركية التي ضبطت في منزل مدبّري الانقلاب. وقامت السفارة الأميركية بتهريبها خارج غانا..

وهكذا منيت المخابرات الأميركية بخسارة كبرى في هذه العملية. إذْ أنها فقدت قاعدة للعمل ولنشاطها في غانا. وكذلك الحال بالنسبة لكل من المخابرات الصهيونية ومخابرات جنوب أفريقيا في أكرا. ومخابرات إسرائيل تنشط هناك بسبب وجود قطاع مسلم كبير من السكان، ووجود رأسمال يهودي إلى جانب وجود مكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية...

ومخابرات جنوب أفريقيا تنشط هناك أيضاً بسبب مواقف غانا المناهضة للعنصرية، ودعمها للمؤتمر الوطني الأفريقي الذي توجد له هناك مكاتب وهيئة سياسية. وبسبب ارتباط الجهازين بالمخابرات الأميركية، إن الضرر سيلحق بنشاطهما بدون شك..

أما الذي تلقى الضربة بعد تقطيع أوصال شبكة المخابرات المركزية الأميركية فهو الجنرال «جوشوا هاميدو» وجبهته، لأن ضرب الشبكة سيؤثر كثيراً على نشاط جبهته التي تتلقى دعماً مالياً كبيراً من المخابرات الأميركية، وهي نشطة جدا في لندن، وتحاول الحصول على دعم عدد من العواصم الأفريقية للإطاحة بنظام جيري رولنغز الذي يبدو أن سياساته خارجياً وداخلياً أصبحت عسيرة الهضم على المعدة الأميركية.

شولا كوهين(*)

(Chola Kohen)

(- 1920)

هي من أشهر وأخطر جاسوسات الموساد في لبنان وسوريا قبل قيام إسرائيل وبعدها.

وقد اعتقلت المخابرات اللبنانية الجاسوسة اليهودية (شولا كوهين) على رأس شبكة تجسس لصالح المخابرات الإسرائيلية (الموساد). وبعد اعتقالها هددت بتأديب معتقليها (أي عناصر المخابرات اللبنانية). مما دفع أحد هذه العناصر بعد الاستفزاز إلى أن يجعلها (تخسر) أربعاً من أسنانها؟

وقد أحدث انكشاف أمر الجاسوسة الإسرائيلية شولا كوهين وشبكتها وقعاً كالزلزال في الأوساط اللبنانية الرسمية والحزبية والشعبية الخارجة حديثاً من عواقب حرب الـ 58 الأهلية.

(*) **المرجع**: حاتم خوري «شولا كوهين أخطر جاسوسة إسرائيلية عرفها الشرق الأوسط». دار اليقظة للنشر والتوزيع. مطابع الأهرام بكورنيش النيل، 1993. وسعيد الجزائري «حرب المخابرات في العالم». دار الجيل 1995، ص 292 ـ 319.
ود. صالح زهر الدين «الموساد بين الإخفاق والإختراق»، الجزء الثامن من «موسوعة الأمن والاستخبارات في العالم». المركز الثقافي اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى 2003، ص 69 ـ 81.

وإلى جانب انشغالها بمسلسل الفضائح والوقائع المثيرة التي كانت تكشفها تباعاً اعترافات أعضاء شبكة شولا، وجدت المراجع اللبنانية العليا نفسها في مأزق جديد أحدثه تسريب المعلومات المتعلقة بتلك القضية إلى الصحف اللبنانية والسورية والعربية، وبات من أولوليات هموم تلك المراجع معرفة من يقف وراء عملية التسريب.

وفي حي اليهود في وادي أبو جميل كان مأزق من نوع آخر، فقد انتصب جدار جليدي حديدي من أبناء شولا ويهود الحي الذين راحوا يتحاشون مجرد تبادل التحية معهم خوفاً من اتهامهم بالضلوع في نشاطات شبكة الوالدة.

إسحاق الابن تخلت عنه صديقته المسيحية اللبنانية ورحلت دون كلمة وداع.. زملاء دوديك وكارميلا في المدرسة اتفقوا على مقاطعة جماعية لأولاد الجاسوسة. وكذلك فعل التجار والزبائن بالنسبة للمتجر الذي يديره أشقاء جوزف كيشاك زوج الجاسوسة..

أما جوزف نفسه فلم يعد يفتح متجره سوى لساعات قبل الظهر فقط ودون أن يحظى بأي زبون طبعاً.

ولكن بوسع شولا بالطبع أن تتصور مدى الآلام التي يعانيها أولادها الذين هجرتهم إلى إسرائيل بسبب أخبار توقيفها..

كانت شولا تدرك جيداً مدى الأذى الذي ألحقته بزوجها وبأولادها لكنها قررت أن تواصل الصمود.

بقي المحققون يستجوبون شولا. كل صباح يطرحون عليها نفس الأسئلة وتصرّ هي على تكرار نفس الأجوبة وعلى القول:

أنا بريئة من جرم التجسس. كل ما فعلته هو أنني ساعدت بعض

اليهود الفقراء على الذهاب للعيش في بلد آخر لأنهم كانوا يشكلون عالة على يهود وادي أبو جميل المحدودي القدرة على مساعدتهم واستيعابهم في قلب مجتمعهم المحدود الضيق جغرافياً واقتصادياً.

وإزاء إصرار شولا على عدم الاعتراف، اعتمد المحققون معها أسلوباً آخر لعب فيه المفتش جوزف فريحة دوراً أساسياً. فكان ينهال المحققون عليها بالشتائم والتهديدات والكلمات النابية بحيث تنهار معنوياتها وتبدأ بالبكاء، وعند ذاك يتركونها وحدها فيأتي جوزف فريحة لكي يواسيها مظهراً لها مشاعر الصداقة والتعاطف ولينصحها بعد ذلك بأن تعترف بالحقيقة إنقاذاً لنفسها من ذلك الموقف الصعب.

غير أن لعبة جوزف لم تنطل على شولا، فعمد المحققون إلى أسلوب آخر فصاروا يحضرون الجرائد إلى الزنزانة ويتناوبون على قراءة العناوين بأصوات صاخبة. جريدة الدفاع الأردنية: لأنه رجل شريف جوزف كيشاك يعلن تخليه عن زوجته الجاسوسة... شولا كوهين تخون أعضاء شبكتها وتكشفهم واحداً واحداً... وغيرها وغيرها من العناوين والأخبار المشوهة لشخصية شولا.

ثم قال لها المفتش جوزف بارودي:

ـ إذا اعترفت فإننا سوف نقوم بنشر تكذيب لكل هذه الأخبار. اعترفي...

ولكن شولا ظلت مصرّة على عدم الاعتراف وعلى أنها بريئة ومظلومة.. وهكذا لم يجد المفتش جوزف بارودي وجوزف فريحة بداً من وضع شولا كوهين وجهاً لوجه مع محمد عوض..

لطالما كانت شولا تكره محمد عوض وتنفر منه، حتى عندما كان يؤدي لها الخدمات كعضو مخلص في شبكتها. الآن وعندما

أدخلوه إلى زنزانتها، شعرت نحوه لأول مرة بشيء من الحنان والشفقة كان في حالة مزرية شاحباً خائر القوى منهاراً.

روى محمد عوض أمام شولا وبحضور المحققين كيف أنها أرسلته إلى اسطنبول للاجتماع بالعميل الإسرائيلي جورج أبستيان الذي أرسله إلى تل أبيب. وروى أيضاً كيف أنه ساعد شولا بناء لتعليماتها في عملية شراء الكولونيل في الجيش اللبناني «ط. عيد» غير أن شولا المرأة الفولاذية، ظلت تقاطع عوض صارخة: كاذب. كاذب.

الواقع أن صمود شولا طيلة هذا الوقت كان له ما يبرره. فهي كانت تأمل في أن أصدقاءها من ذوي النفوذ في الساحة اللبنانية لا بد أن يتدخلوا لتخليصها مما هي فيه، لكن مرت ستة أسابيع والصديق المنقذ لم يظهر له أثر، فبدأت شولا تقترب من حافة الانهيار، طلبت شولا من المفتش العام جوزف بارودي أن يجمعها بمحاميها، لكن فوجئت به يخبرها أنه ليس من حقها مقابلة المحامي إلا بعد انتهاء التحقيق.

وأكثر ما كان يحز في نفسها أن صديقها المخلص أبو سعيد لم يتدخل بعد لمساعدتها، وعندما جاء ابنها إسحاق لزيارتها سألته أن يتصل به، فأخبرها أنه لطالما حاول ذلك دون جدوى لأن مساعدي أبي سعيد كانوا يقولون له دائماً إن الزعيم مشغول.

ذات مساء أحضروا زائراً غريباً إلى زنزانة شولا. كان رجلاً خمسينياً بادي الأناقة لم تعرفه وإن كانت أحست بأنها سبق ورأت هذا الوجه قال لها:

ـ لقد أرسلوني لمساعدتك. أعرف مَنْ أنت، وماذا فعلت. أنا هنا لمساعدتك. أنا محامٍ. وإزاء عدم اكتراثها قال:

ـ أعرف أنك تعتقدين بأنني من رجال الشرطة، وبأنني مكلف بانتزاع الاعتراف منك، لكن هذا غير صحيح. كل ما في الأمر أنني أريد مساعدتك، ولا أطلب منك سوى أن تصغي إليّ بانتباه. طلبت منه سيجارة فقدم لها علبة سجائره مبتسماً وقال:

ـ أعرف أنها من صنف سجائرك المفضل وقد أحضرت لك كمية منها وسلمتها للحراس، ثم قال بصوت هامس:

ـ إن الواشي الذي وضعك في هذا المأزق يدعى ميلاد الكورة، لقد أخبر البوليس بكل شيء وبالأحرى بكل ما يعرف.. قالت:

ـ ميلاد ليس وحده، لقد فعل محمد عوض الشيء نفسه. أما آل موسى فليس لديهم ما يخشونه لأن نفوذ عائلتهم الكبير يحميهم من كل المخاطر.

قال لها المحامي:

ـ لا داعي لإضاعة الوقت. إن إدلاءك بأسماء الذين تعاملوا معك لا يعتبره البوليس سوى اعتراف جزئي. وهذا لا يفيدك بشيء. ومن جهة أخرى فإذا أدليت بأسماء جميع الذين كنت على اتصال معهم فإن البوليس لن يصدقك وسيتهمك بالجنون أو بالكذب في أحسن الحالات. أفضل شيء هو أن تصرّي على إفادتك الأولى التي قلت فيها إن نشاطاتك اقتصرت على مساعدتك لعدد من النازحين اليهود بالتسلل إلى إسرائيل.

ثم غادر المحامي المزعوم زنزانة شولا رافضاً الإفصاح لها عن اسمه وعن الجهة التي أرسلته. وراحت شولا تفكر في شخصية هذا الزائر الغريب، ولم تكن شولا بحاجة إلى كثير من الذكاء لتدرك أن الذين أرسلوه إنما يهدفون إلى حماية رؤوسهم بالدرجة الأولى.

وقالت شولا لنفسها: مساكين هؤلاء. أيعتقدون بأنني سأضحي بهم أو أشي بهم وأنا أُدرك أهمية أن وجودهم السياسي القوي هو لصالح إسرائيل؟.. ربما تخيّل لهم أنني قد أنهار وأعترف، ولكن هذا لن يحدث أبداً.

لكن بعد مرور حوالي شهر من التحقيقات اليومية المرهقة، بدأت شولا تقترب فعلاً من حافة الانهيار، سيما بعد أن بدأ المحققون المحترفون الذين حلوا مكان المحققين السابقين المبتدئين، يستعملون معها أساليب في منتهى الحدة والقسوة.

فقد بدأوا يعرضونها لتحقيق يدوم اثنتي عشرة ساعة متواصلة. كانت تعليمات المحققين الجدد واضحة وصارمة: عليكم الانتهاء من قضية شولا بأسرع وقت. انتزعوا منها جميع المعلومات في أسرع وقت.

كانت هذه أوامر المراجع العليا في لبنان التي عملت بتوجيهات الرئيس اللبناني فؤاد شهاب.

ـ لماذا تصرّين على الكذب أيتها الجاسوسة العنيدة..؟

صرخ بها أحد المحققين..

وزعق آخر..

ـ الجميع اعترفوا. لدينا خمسمائة صفحة من الاعترافات التي تدينك. فإلى متى عنادك..؟

قالت ببرود:

ـ ليعترفوا كما يشاؤون. هذه قذارات لا قيمة لها..

وعند ذلك ثار المحقق وأهانها بعبارة قاسية.. لكن ما كاد

المحقق ينهي عبارته حتى فتح الزنزانة ودخل المحقق جوزف بارودي. . أدركت شولا فوراً أن الخطة مرسومة هكذا. ثم طلب من المحقق أن يترك الزنزانة وقال لها:

- لا بأس إنه معتاد على استجواب المجرمين. .

قالت وهي تمسح دموعها:

- لكن لماذا ترسلون لي هذا النوع من المحققين. أنا لست مجرمة. .

قال لها:

- سيدتي إنك تتجاهلين خطورة قضيتك وتصرّين على عدم الاعتراف، مع أننا نملك من الإدانات ضدك ما يكفي للحكم عليك بمئتي عام. فلماذا ترفضين الاعتراف؟

قالت بسخرية:

- حسناً جداً، تريدونني إذن أن أعترف بما لم أرتكبه لكي تخفضوا عقوبتي إلى مائة عام فقط.

قال بارودي متنهداً. .

- إنني أتساءل لماذا نطيل صبرنا معك؟ لماذا لا نسلمك للمخابرات السورية؟ وقد طلبوا منا بإلحاح لكي نتخلّى عنك لهم. ثقي جيداً يا سيدتي أن السوريين لا يملكون أبداً هذا المزاج المرح الذي تتمتعين به هنا. .

لقد عرف جوزف بارودي كيف ينقر الوتر الحساس في اللحظة المناسبة. لم يكن شيء يخيف شولا كذكر أي علاقة لها بالسوريين. وبالفعل فقد خانتها شجاعتها المصطنعة وبدأت يداها ترتعشان. كانت

تدرك جيداً أن رجال المخابرات السورية لا يملكون مطلقاً الروحية التي يتمتع بها رجال المخابرات اللبنانية.

غير أن رهان شولا على «تهذيب» رجال المخابرات اللبنانية لم يكن في مكانه تماماً. ففيما كان موعد جلسة المحاكمة يقترب، كانت شولا قد خسرت على أيديهم أربعة من أسنانها بالإضافة إلى كسر أحد فكيها خلال ثلاثة أشهر من التحقيق استمرت شولا فيها على عنادها ورفضها الاعتراف.

نقلوا شولا من زنزانتها الانفرادية إلى زنزانة عامة مخصصة للمسجونات اللواتي قيد المحاكمة. كان عددهن ثلاثين: مهربات ومدمنات حشيش، سارقات، بائعات هوى، متهمات بجرائم قتل الخ.. كنّ من جميع الطوائف: مسلمات ومسيحيات ودرزيات، ووجدتهن شولا جميعاً تافهات ساذجات ومنحطات الأخلاق. وبسرعة احتلت شولا مكانة مميزة بينهن.

كانت فوزية خورشيد زعيمة الزنزانة في الخامسة والثلاثين من عمرها، جميلة عندما لا تقلص ملامح الشرّ والغضب تقاسيم وجهها. كان لفوزية نفوذ قوي ومباشر على كافة السجينات فكانت تحدث الخلافات بينهن لكي يبقين جميعاً تحت سيطرتها.

رفضت شولا الانصياع لنفوذ فوزية، فراحت هذه تضايقها، فاشتكت شولا إلى المفتش العام جوزف بارودي الذي أمر «الريسة» بالكف عن مضايقة شولا لكن ذلك جعلها تناكدها أكثر.

وبما أنه صار لشولا الحق في تعيين محام بعد أن انتهى التحقيق، فقد ذهب زوجها جوزف لاستشارة سكرتير عام الطائفة اليهودية ألبرت إيليا الذي كان قد أطلق سراحه بعد أسبوع فقط من

التوقيف، لكنه ما يزال مجهول المصير، بانتظار مطالعة المحكمة.

نصح ألبرت إيليا شولا باللجوء إلى نصري المعلوف، ألمع محامي بيروت وأغلاهم ثمناً. قابل نصري المعلوف جوزف كيشاك بكثير من البرود وأخبره أنه لن يعطيه جواباً قبل ثلاثة أشهر يدرس خلالها ملف القضية ويقرر ما إذا كانت شولا تستحق أن يدافع عنها أم لا.

وبعد انتهاء المهلة قال المحامي المعلوف لجوزف:

ـ أوافق على تسلم قضية شولا، لكن بشرط أن يكون إلى جانبي محام مسلم لأن رئيس المحكمة لم يسم بعد، وقد يكون قاضياً مسلماً وبالتالي...

سأله جوزف:

ـ أي محام مسلم تقترح؟

قال:

ـ فريد أبو زيد..

الوقت يمر ببطء وشولا تحترق في زنزانتها بانتظار حلول موعد المحاكمة. زيارات أولادها وزوجها كانت عزاءها الوحيد، وكان هؤلاء يقلقون كثيراً إزاء التردي الواضح في صحة شولا.

قال إسحاق، ابن شولا، لأخته أرليت:

ـ لماذا لا يسمحون لنا بإحضار الطعام لها؟ ما دامت لم تحاكم بعد، فلماذا يعاملونها بهذه القسوة؟ يجب أن نفعل شيئاً. أفكر بالذهاب إلى رئيس الجمهورية لطلب العفو لوالدتنا...

أجابته أرليت:

ـ أرجوك، كفّ عن هذه السخافات..

صرخ غاضباً..

ـ يجب أن نفعل شيئاً..

وذهب لمقابلة الدكتور عطية الرئيس العام للطائفة في وادي أبو جميل الذي قال لإسحاق:

ـ إنني أقدر مشاعرك يا ولدي، لكننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً سوى انتظار نتائج المحاكمة، لكن إسحاق لم يقتنع. حاول مجدداً الاتصال بأبي سعيد لكن دون جدوى. وذات مساء قرع مجهول باب منزل شولا، قام إسحاق لفتح الباب متسائلاً مَنْ يكون هذا المغامر بالمجيء إلى المنزل المشبوه...

كان رجلاً ثلاثينياً أنيقاً قدم نفسه إلى إسحاق قائلاً:

ـ أنا أبو مصطفى، جئت للاطمئنان إلى أخبار السيدة أم إبراهيم شولا.. كان إسحاق في سن المراهقة وكانت صورة أبي مصطفى مرتسمة في ذهنه كبطل من أبطال أفلام الكاوبوي والمافيا.

أدخله إسحاق إلى الصالون بحذر وفضول، أرليت أيقظت والدها ثم أعدت الشاي وجلسوا جميعاً يخبرون أبا مصطفى عما تعانيه شولا في السجن.

سألهم أبو مصطفى:

ـ ألم تستشيروا محامياً بعد؟

تحفظ جوزف في الجواب فيما صرخ إسحاق..

ـ المحامي، إنه ما يزال يفكر، المسكينة على الأقل لو يسمحون لنا بأخذ الطعام لها.

قال أبو مصطفى:

ـ الطعام؟ من يمنعكم من ذلك؟

قالت أرليت:

ـ إنها الريسة فوزية..

قال أبو مصطفى:

ـ فوزية. فوزية خورشيد. إنني أعرف زوجها السوري السكير الذي يدير كاراجاً للسيارات على طريق بيروت ـ دمشق. أعرف جيداً كيف أضغط عليه ليضغط بدوره على زوجته.

ثم توجه أبو مصطفى إلى أرليت قائلاً:

ـ أعذريني يا آنسة، إن ما سأقوله الآن لا يجب أن تسمعه فتاة في سنّك. أعذريني. وبعد أن انسحبت أرليت إلى المطبخ قال أبو مصطفى.

ـ إن لفوزية عشيقاً ملقباً بونابرت سوف أتصل به غداً.

بالفعل، فبعد يومين من زيارة أبي مصطفى انقلبت معاملة فوزية مع شولا رأساً على عقب.

أخيراً قرر المحامي نصري المعلوف أن يتسلم القضية ويبدأ بالتحرك، خاصة بعد أن نجح إسحاق في الحصول على نسخة من إفادة محمد عوض العميل المزدوج الذي استطاع الإيقاع بشولا وبشبكتها بعد أن توصل إلى امتلاك جميع أسرارها.

قرأ المحامي ما جاء في إفادة عوض:

«لقد تعرفت على المدعوة شولا ميت كيشاك ـ كوهين بواسطة درويش بيضون. لشولا علاقات سرية مع العديد من كبار الشخصيات اللبنانية. منهم الأمير فريد شهاب الرئيس السابق لدائرة الأمن العام اللبناني والسفير الحالي للبنان في تونس، الموظف في وزارة الداخلية محمود الحاج ـ درويش بيضون ـ وأبو سعيد ورئيسا الحكومة السابقين رياض الصلح وسامي الصلح.. وكانت شولا تعقد لقاءاتها السرية مع هؤلاء في مقهى ومطعم برج الحمام (لاغروت أوبيجون) القائم على شاطىء الروشة في بيروت.

عندما علمت أن شولا لا تعمل لحساب المخابرات الإسرائيلية ذهبت إلى دمشق حيث اجتمعت مع هشام ميداني رئيس المخابرات السورية أخبرته بكل ما أعرف عن شولا ونشاطات أعضاء شبكتها.

لقد فضلت التعاون مع المخابرات السورية في هذه القضية لأنني كنت أعرف أن لشولا علاقات وطيدة مع كبار المسؤولين في المخابرات اللبنانية.

أخبرني هشام ميداني أن لديه ملفاً مفتوحاً لشولا، واقترحت عليه أن يساعدني على الدخول في شبكة شولا، فوافق وخصص لي راتباً شهرياً بالإضافة إلى مكافآت مالية أخرى حسب نوعية المعلومات التي أحصل عليها.

بعد أن صرت عضواً في الشبكة، أمرتني شولا بالذهاب إلى داخل إسرائيل. فذهبت إلى بلدة مرجعيون حيث استقبلني شكري موسى وساعدني في عبور الحدود. أخذوني إلى صفد ومنها إلى تل أبيب حيث استجوبني العميد ديفيد رومانو..

بعد عودتي إلى بيروت تلقيت أوامر بالسفر إلى اسطنبول حيث اجتمعت بالعميل الإسرائيلي جورج أبستيان الذي طلب مني تدبير موعد بين الضابط اللبناني طلال عبود ومسؤولي المخابرات الإسرائيلية.

بعد ذلك عدت إلى تل أبيب حيث دربوني على استعمال الحبر السري، ولدى عودتي إلى بيروت مجدداً كانوا قد سجلوا باسمي صندوقاً بريدياً رقمه (3486)، وكنت أتلقى منهم شهرياً حوالة مالية مرسلة من أحد مصارف سويسرا.

ثم اجتمعت بالكولونيل «ط. . . عيد» الذي وافق على الاجتماع بالإسرائيليين وسافرنا كلٌّ على طائرة إلى روما. . هناك حاولت عشيقته الضغط عليه للحؤول دون اجتماعه بهم، لكن الكولونيل عبود اجتمع أخيراً بهم واتفقوا على أن يدفعوا له مبلغ خمسين ألف دولار على ثلاث دفعات مقابل خدماته.

بعد عودتي من روما اتصلت بالمدعو ألفريد بيطار، الرقيب المتقاعد في الجيش اللبناني ـ سلاح الإشارة. . . كان بيطار ينوي إنشاء إذاعة سرية في لبنان وقد قدم له الإسرائيليون أجهزة البث اللازمة، وكان يطمح إلى إقامة علاقة مع المخابرات المصرية.

أعطاني ألفريد بيطار رقم هاتف الملحق العسكري في السفارة المصرية في بيروت الكابتن حسن علي خليل، اتصلت به والتقينا في منزله في شارع كليمنصو بحضور ضابط مصري آخر هو الكولونيل محمد. ومن هناك انتقلنا ثلاثتنا إلى مطعم رياليني حيث أخبرتهم بكل ما أعرفه عن الضابط اللبناني طلال عبود وعن لقاءات روما واسطنبول

وعن أبستيان وشولا كوهين، وأخبرتهم أيضاً عن علاقاتي الوطيدة مع رئيس الوزراء.

واتفقت مع الضابطين المصريين الكولونيل محمد الكابتن حسن علي خليل على أن يدفعوا لي راتباً شهرياً مقداره ألف ليرة لبنانية ووعداني بإعطائي أمراً خطياً من المخابرات المصرية يفيد بأنني أعمل في شبكة شولا كوهين بناء على معرفتهما بذلك لكي أستعمل هذه الوثيقة الخطية في حال تعرضت للاعتقال.

بعد ذلك تفاوضت مع شركة الطيران الألمانية لوفتهانزا لكي تؤسس لها فرعاً في بيروت، وزوَّدني الكابتن حسن علي خليل بجوازات سفر لبنانية بيضاء حصل عليها من السفارة اللبنانية بمصر.

لوفتهانزا لم توافق على المشروع، لكنني استفدت مالياً بأن بعت لشولا الجوازات اللبنانية البيضاء.

لكن سرعان ما بدأت أوضاعي المالية تتأزم، لأن الإسرائيليين والمصريين توقفوا عن الدفع لي. وفيما أنا أتخبط في ضائقتي المالية تعرفت على الفلسطيني خميس بامية الذي كان على معرفة بعلاقتي مع الكابتن المصري.

عرض علي خميس أن أعمل لحساب المخابرات الأردنية فوافقت، ثم جمعني بالملحق العسكري في السفارة الأردنية في بيروت الكولونيل راضي عبد الله.

أخبرت الكولونيل عبد الله بكل اتصالاتي السابقة. وعندما ذهبت للاجتماع به ثانية جمعني بالضابط الأردني غازي عربيات رئيس الشعبة الإسرائيلية في المخابرات الأردنية.

استقبلني عربيات بحرارة بالغة وطلب مني السفر إلى عمان للاجتماع بالعاهل الأردني الملك حسين، فعدت إلى منزلي وبدأت بإعداد حقيبة السفر.

هل سافر العميل المزدوج محمد عوض إلى عمان؟ هل اجتمع فعلاً بالعاهل الأردني الملك حسين؟ وماذا دار في ذلك اللقاء؟ وما هي الرؤوس الكبيرة الأخرى التي طالتها شبكة شولا..؟

يقول العميل محمد عوض:

توجهت إلى عمان، ولدى وصولي أقمت في فندق فيلادلفيا حيث قيل لي أن أنتظر ريثما يسمح الديوان الملكي بترتيب مقابلتي مع الملك حسين. كان جلالته مشغولاً بمعالجة سلسلة الحوادث الحدودية التي تصاعدت في ذلك الحين.

وفي النهاية عدت إلى بيروت صفر اليدين دون أن أحقق شيئاً من زيارتي لعمان.

لكن بعد أسابيع استدعيت إلى عمان فذهبت إليها مجدداً. وهناك اجتمعت برئيس الأركان الأردني علي أبو نوار، التقينا في بار فندق فيلادلفيا بحضور غازي عربيات رئيس الشعبة الإسرائيلية في المخابرات الأردنية. وقد لفتني عربيات إلى أنني أفرط في الشرب مما يجعلني عرضة لخطر الانكشاف. فأجبته بأنني أسمح لنفسي بالشرب لأنني قادر دائماً على السيطرة على نفسي.

أما رئيس الأركان فقد عرض علي صوراً طبق الأصل (فوتوكوبي) لرسائل قال إنها متبادلة بين رئيس الوزراء الإسرائيلي ديفيد بن جوريون والرئيس المصري جمال عبد الناصر، لكنني رفضت تصديقه، فأكد لي أنها رسائل حقيقية وأن بوسعي الاحتفاظ بهذه الصور كعربون صداقة بمناسبة لقائنا الأول.

لقاء الملك حسين مع محمد عوض

وفي اليوم التالي استقبلني الملك حسين في القصر الملكي. وخلال اللقاء الذي دام عشرين دقيقة لمست أن الملك شديد الاهتمام بشؤون المخابرات اللبنانية.

بعد عمان انتقلت فوراً إلى دمشق حيث أطلعت المخابرات السورية على كل ما حصل معي في الأردن. ولدى عودتي إلى بيروت أطلعت المخابرات المصرية بشخص الكابتن حسن علي خليل على ما حصل معي في عمان وفي دمشق، كما قمت بتسليم الكابتن خليل صور الرسائل التي أهداني إياها رئيس الأركان الأردني. وقد أكد لي الكابتن أن الرسائل مزورة بقصد النيل من الرئيس عبد الناصر، وقد أخذها مني لكي يرسلها إلى القاهرة للاطلاع عليها».

انتهى المحامي نصري المعلوف من قراءة المقتطفات قائلاً لإسحاق كيشاك بن شولا، إنه سيتابع قراءة هذه القصة المثيرة في منزله، وعلق ساخراً: يا له من مغامر مجنون، محمد عوض هذا لقد كان يلعب بالنار ولا شك أنه سينال عقوبة الإعدام.

موت عوض بالقلب

غير أن محمد عوض نجا من الإعدام وإن بطريقة ما، ففي صباح السادس من تموز (يوليو) 1962 وجده حرس السجن جثة هامدة في زنزانته حيث قضى بنوبة قلبية حادة.

لقد مات عوض قبل المثول أمام المحكمة التي كان مقدراً لها أن تنعقد في أواخر صيف ذلك العام للنظر في قضية شولا كوهين وأعضاء شبكتها.

ومن جهة أخرى فقد تبين للنيابة العسكرية العامة أن أحد عشر شخصاً من المتهمين لم يكونوا متورطين فعلاً في عضوية شبكة التجسس، وبالتالي فقد طلبت تأجيل النظر في القضية إلى موعد آخر يحدد لاحقاً.

المحكمة

وأخيراً انعقدت هيئة المحكمة للنظر في قضية شولا كوهين وشبكتها في الخامس من تشرين الثاني/نوفمبر 1962.. لم يكن وراء القضبان سوى أربعة متهمين شولا وفتحي موسى ونبيل موسى وسليمان موسى.

المتهم محمد عوض كان قد مات كما رأينا، والمتهم محمود الحاج كان قد فرّ إلى غانا. أما ألبرت إيليا فكان نزيل المستشفى، هذا بخلاف أعضاء الشبكة الذين لم تظهر أسماؤهم في التحقيقات.

كان الرأي العام اللبناني يتابع قضية شولا ببالغ الاهتمام. وفي موعد الجلسة تجمع عدد كبير من المواطنين لحضور المحاكمة، غير أن القاضي لم يسمح سوى لعدد قليل بالدخول، أما الصحافيين فقد استبعدوا تماماً عن قاعة المحكمة.

لدى دخولها إلى قاعة المحكمة كانت معنويات شولا عالية، كانت واثقة من أن صديقها أبا سعيد وزوجها جوزف قد أغرقا القاضي بالمال وهو بالتالي لن يقسو عليها.

ماتا هاري الشرق الأوسط

بدأ وكيل النيابة مرافعته واصفاً شولا بأنها ماتا هاري الشرق الأوسط، فما كان من شولا إلا أن صرخت: «هذا افتراء» كيف تسمح

لنفسك بمقارنة امرأة لا تعرفها بامرأة لم ترها في حياتك؟

غضب القاضي وصرخ بها أن تسكت. وبعد دقائق عاود وكيل النيابة تسميتها بماتا هاري، وبأنها خانت لبنان البلد الذي أعطاها الملاذ الآمن وشرف عضوية المواطنية. وهنا قاطعته شولا مجدداً زاعقة: «لماذا يصرّ على تشبيهي بماتا هاري؟ لماذا لا يشبهني بمدام كوري؟»

صرخ بها القاضي مجدداً في حين أسرع محامي الدفاع نصري المعلوف نحوها لحثّها على التزام الصمت، لأن هذه الثرثرة ستنعكس سلبياً على مصلحتها، لكن شولا تابعت الزعيق: «من حق وكيل النيابة أن يتهمني بما يريد لكن ليس من حقه أبداً أن يكبر سني. لأن التهم التي تحدث عنها تفترض أن يكون عمري تجاوز الأربعين».

ثم نادى وكيل النيابة الشاهد الأول. أما الشهود الذي لا يستطيعون المثول شخصياً أمام المحكمة فقد بعثوا بإفادات مكتوبة. تولى وكيل النيابة قراءتها فريد شهاب، أكد أنه علم منذ عشر سنوات بأن شولا كوهين جاسوسة، فهو كان يرأس سابقاً مديرية الأمن العام اللبناني قبل أن يشغل منصب سفير لبنان لدى تونس في الستينات.

يقول شهاب في إفادته المكتوبة، لقد أمرت بفتح تحقيق سري حول شولا، لكن المعلومات التي توفرت لدي لم تكن كافية لإدانة السيدة كوهين، وبعد سنوات تعرفت إلى محمد عوض في منزل رئيس الحكومة في حينه سامي الصلح، وقد علمت أنه كان على صلة بجهازنا الأمني في نهاية العام 1957. جاءني عوض ليخبرني أن شولا ميت كيشاك كوهين هي جاسوسة إسرائيلية واقترح علي مراقبة نشاطاتها. فكلفته قانونياً بأن يتولى هو نفسه عملية المراقبة.

وبالإضافة إلى ذلك فقد خصصت له مبلغاً من المال لقاء تنفيذه لتلك المهمة، لكن منذ ذلك الحين لم أعد أعرف شيئاً عن محمد عوض الذي انقطع نهائياً عن الاتصال بي.

ثم انتقل وكيل النيابة إلى تلاوة إفادة الضابط المصري الكابتن حسن علي خليل التي أخذت رسمياً منه في السفارة اللبنانية في القاهرة، ويؤكد الكابتن فيها أن عوض قد اقترح عليه تكليفه بمراقبة شولا كوهين التي وصفها بأنها جاسوسة إسرائيلية.

بعد ذلك انتقل وكيل النيابة إلى تلاوة إفادة الكولونيل السوري برهان أدهم التي أخذت رسمياً منه في سجن المزة في دمشق الذي أدخل إليه منذ اشتراكه بالمحاولة الانقلابية الفاشلة في حينه.

اختفاء الأسماء الكبيرة

وبعد ذلك رفعت الجلسة، ثم انتقل وكيل النيابة إلى تلاوة الإفادة الضخمة التي أدلى بها محمد عوض والواقعة في / 319 صفحة فولسكاب وقد استغرقت تلاوتها ثلاثة أيام، كان خلالها القاضي والمحلفون والمحامون يصغون بانتباه كلي ويدونون الملاحظات فيما شولا تصغي وصورة الغضب والانفعال تفضح وجهها.

وقد استغربت شولا، في سرها، إغفال عوض التام لذكر «ناجي أصلان» الملقب بالبلاي ـ بوي، والذي كان له دور أساسي في القضية، وكذلك إغفاله ذكر أسماء كبار السياسيين اللبنانيين الذين ساعدوها وتعاونوا معها.

بعد ذلك استمعت المحكمة إلى باقي الإفادات المكتوبة والشفوية المباشرة، وإلى التسجيلات الخاصة التي حصلت عليها

أجهزة التنصت السرية التي كانت تراقب هاتف منزل شولا.

وباستغراب كلي أيضاً، لاحظت شولا كوهين أن اسم الكولونيل جورج لم يرد مطلقاً على لسان أي شاهد، وراحت تتساءل: «هل ما يزال أنطون قوي النفوذ بحيث سعى إلى استبعاد اسمه من هذه القضية، أم أن أصدقاءه ما زالوا مخلصين له بعكس أصدقائها هي؟»، وتنهدت بحرقة: آه لو كان هنا...؟

بعد ذلك استمعت المحكمة إلى إفادة المتهمة شولا: «كنت أجهل أن لدي كل هذا الحشد من الأصدقاء اللامعين الذين أوردت النيابة العامة أسماءهم. أنا مذنبة هذا صحيح، لكنني لم أقترف سوى ذنب واحد فقط هو أنني ساعدت بعض اليهود الفقراء على الهجرة إلى إسرائيل عبر الحدود اللبنانية بطريقة غير مشروعة».

دام استجواب شولا ثلاث ساعات أنكرت فيه كل التهم مصرة على أنها لم تقترف سوى ذلك الذنب الوحيد فقط. ولدى انتهاء الاستجواب أسرع المحامي نصري المعلوف نحوها وقبَّل يدها هاتفاً: «أنت مدهشة»..

بعد استجواب شولا رفعت الجلسة وأعلن القاضي انتهاء المرافعات على أن تكون الجلسة التالية مخصصة للفظ الأحكام النهائية، وأعيدت شولا إلى السجن.

المحكمة والحكم

التاسع عشر من آذار/مارس 1963 كان اليوم الحاسم في حياة شولا. اليوم تحدد المحكمة مصيرها. استيقظت شولا كالعادة فجراً، كانت الزنزانة معتمة والمطر ينهمر في الخارج. تمنت لو كانت طليقة

لكانت مشت تحت المطر. جلست في سريرها تراقب السجينات النائمات وسط أوركسترا اعتادت عليها من الشخير والأنفاس المتقطعة.. ترى ما سيكون مصيرها؟ بماذا ستحكم المحكمة؟ المحامي نصري المعلوف أكد لها أن عقوبتها لن تتجاوز الثلاث سنوات حبساً وربما أقل، وبالطبع فإن مدة التسعة عشر شهراً التي انقضت حتى الآن سوف تحسم من مدة العقوبة، وبالإضافة إلى ذلك فإنها سوف تعفى من ثلث المدة بسبب حسن سلوكها في السجن وبالتالي لن يبقى لها سوى عدة أشهر.

وفيما شولا غارقة في أحلامها سمعت صليل باب الزنزانة الحديدي وصوت فوزية يلعلع بتحية الصباح المألوفة: «انهضن أيتها الكلبات».

نهضت السجينات على عجل ووقفن بانتظام يغالبهن النعاس والتثاؤب، أحضرت لها فوزية ثوباً خاصاً يليق بيوم صدور الحكم: تنورة سوداء وقميصاً أبيض مقفلاً حتى العنق. كان المحامي قد اختار لها هذه الثياب بنفسه: «بهذه الثياب تبدين زوجة محتشمة وأنيقة، مما يترك أثره الإيجابي في نفوس القضاة والمحلفين ويساعد على إزالة صورتك السلبية من أذهانهم، صورة المرأة الشريرة الجاسوسة، زعيمة العصابات ومديرة العمليات الإجرامية، الصورة السوداء التي رسمك بها وكيل النيابة وإفادات الشهود».

بعد وجبة الإفطار ودعتها السجينات مشجعات، ثم مشت وفوزية عبر الممر الطويل. في الطريق قالت لها فوزية: «عليك أن تكوني شجاعة، عقوبتك لن تقل عن اثنتي عشرة سنة». لكن شولا لم تجب بشيء».

كانت عربة السجن المصفحة بانتظارها بإمرة ملازم في الجيش. صعدت شولا فتحركت العربة باتجاه قصر العدل، إلى حيث تنتظر شولا مصيرها.

توقفت العربة المصفحة في باحة قصر العدل. تحلق الجنود والمحامون وموظفو الوزارة حولها يراقبون بفضول بالغ الجاسوسة التي حولتها أخبار الصحف إلى نجمة الموسم. مشت شولا محاطة بالحراس إلى قاعة المحكمة. كان زوجها جوزف جالساً في الصف الثالث بصلعته المميزة الغارقة بين الكتفين محاطاً بولديهما إسحاق وأرليت. ورأت أيضاً في القاعة أولغا وفورتينانا جارتيها في حي اليهود، وفوجئت شولا برؤية أبي جاك.. كانت أول مرة تراه منذ توقيفها، ولطالما كانت تستغرب انقطاعه عن المجيء لحضور الجلسات وعن زيارتها في السجن. ابتسمت لمحاميها نصري المعلوف الجالس إلى يسارها، وكذلك لوكيل النيابة ميشال طعمة. وفيما شولا غارقة في أفكارها وهي تتأمل صورة رئيس الجمهورية اللواء فؤاد شهاب المعلقة على الحائط وراء هيئة المحكمة، ارتفع صوت الكاتب «محكمة»...

الحكم بإعدام شولا

وساد صمت رهيب قطعته إيماءة من رئيس المحكمة الكولونيل عادل شهاب ابن شقيق رئيس الجمهورية، لكاتب المحكمة الذي سأل شولا بصوت عال: المتهمة شولا ميت كيشاك.. كوهين، ابنة مائير كوهين، هل لديك ما تقولينه لهيئة المحكمة قبل البدء بلفظ الأحكام؟

كانت شولا قد أعدت نفسها جيداً لهذه اللحظة وكان محاميها قد أملى عليها ما يجب أن تقوله. قالت:

«أنا متهمة بأنني عملت على تمرير بعض اليهود إلى إسرائيل عبر الحدود اللبنانية. أعترف بذلك. لكن هذا كل ما فعلت من ذنوب. الله يشهد على ذلك، ورئيس المحكمة يعرف ذلك، أنا بريئة من كل باقي التهم التي ألصقت بي. إنني أستعين بالله وبضمائر هيئة المحكمة الذين سوف يقررون مصيري».

عندما انتهت شولا من كلامها، راح المحلفون يتهامسون. ثم همس الكولونيل حسامي، عضو هيئة المحكمة، في أذن كاتب المحكمة الذي أعلن بصوت عال:

«سوف يصدر الحكم خلال نصف ساعة»..

خرج القضاة من القاعة وراح الحضور ينتظرون، فيما أعصاب شولا تحترق والعرق يتصبب من جبهتها. بعد فترة اقترب منها أحد الحراس وهمس في أذنها: لقد كلفني ابنك أن أقول لك إنهم لم يستطيعوا تنفيذ ما وعدوا به.

ارتفعت نبضات قلبها وشعرت أنها على وشك الإغماء، ثم عاد القضاة إلى مقاعدهم، وبدأ الكاتب بتلاوة الحكم:

«حكمت المحكمة بأن جميع التهم الموجهة إلى السيدة شولا ميت كيشاك ـ كوهين هي تهم صحيحة».

ارتعشت شولا وشعرت أن ساقيها لن تقدرا على حملها، فاتكأت لتحاذر السقوط. لكن سرعان ما استعادت شجاعتها وانتصبت واقفة لمتابعة تلاوة قرار الحكم:

«تعتبر المحكمة أن ممارسات شولا كوهين قد ألحقت الأذى بالشعوب العربية. لقد قامت المتهمة بتوريط عدد كبير من الناس لتنفيذ

مآربها الخاصة. شولا كوهين هي جاسوسة باعت الكثير من الأسرار العليا للدولة اللبنانية، وقد بذلت مبالغ طائلة لتحقيق هذه الغاية. بفضل تصريحات المتهمة نفسها، وعلى قاعدة الإفادات التي أدلى بها المتهمون والشهود أمام هذه المحكمة، نجح وكيل النيابة في إظهار فداحة الخطر الذي ألحقته، وكانت ستلحقه، هذه العميلة بحق لبنان.

انطلاقاً من كل ما تقدم حكمت المحكمة العسكرية في لبنان على المتهمة شولا كوهين بعقوبة الإعدام..».

تخفيض العقوبة

أحدثت تلاوة الحكم عاصفة في القاعة. أرليت، ابنة شولا، سقطت مغمياً عليها. وفيما ارتفعت أصوات استنكار، ارتفعت أصوات تأييد هاتفة: يحيا العدل، يحيا العدل. الصحافيون الذين كانوا جالسين في الصف الأمامي تسارعوا في مغادرة القاعة للاتصال بجرائدهم لإبلاغ القرار المثير.

وفي أقل من ساعة كانت صحف المساء وملحقات الصحف العادية تخرج من المطابع بعناوينها البارزة، وباعة الصحف يملأون شوارع بيروت بصباحهم: «الجاسوسة الصهيونية حكمت بالإعدام».

أما شولا فقد تلقت القرار كالصاعقة في لحظة واحدة: توقفت كل حواسها عن العمل. لم تعد تسمع شيئاً. لم تعد ترى شيئاً.. صار كل شيء أسود. حملها شرطيان إلى إحدى الزنزانات القريبة من قاعة المحكمة التي أوقفت طرقات مدقة القاضي على الطاولة الصخب الذي ساد فيها. وخيم الصمت من جديد ليتابع كاتب المحكمة قراءة الحكم:

«عطفاً على قرار عقوبة الإعدام فإن المحكمة العسكرية قد أخذت بعين الاعتبار ما أثبته وكلاء الدفاع. ولذلك فقد قررت المحكمة أخذ الوضع الشخصي للمتهمة بعين الاعتبار. فالسيدة كوهين هي أم لثمانية أولاد، ولذلك فإن المحكمة قررت خفض عقوبة الإعدام إلى عشرين عاماً مع الأشغال الشاقة».

أسرع أحد الحراس ليزف النبأ إلى شولا التي سرعان ما استعادت معنوياتها وقالت: «ليس معقولاً أن تذهب جهود جميع أصدقائي سدى». ثم ابتسمت للحارس وقالت له أن يمهلها دقيقتين حيث مسحت آثار الدموع عن وجهها واستعارت مشطه لإعادة تمشيط شعرها. ثم عادت بصحبة الحارس إلى قاعة المحكمة.

كان الكاتب مستمراً في تلاوة باقي الأحكام بحق بقية المتهمين ولحظة دخولها كان دور زوجها جوزف:

«..حكمت المحكمة على المتهم جوزف كيشاك بالسجن لمدة عشر سنوات لكن نظراً إلى تقدمه في السن وإلى وضعه الصحي فقد قررت المحكمة خفض العقوبة إلى سنتين فقط.

وعادت الدنيا تسود في عيون شولا من جديد: إذا كانت هي وزوجها سوف يدخلان السجن فمن سيهتم بالأولاد إذن..؟

أغمي عليها من جديد وحملها الحراس خارج القاعة.

عندما استعادت وعيها وجدت نفسها في العربة المصفحة في الطريق إلى سجن النساء في محلة الصنائع. كان أحد ضباط الجيش جالساً قبالتها في العربة، قال لها عندما فتحت عينيها: «شولا.. لقد غابت الشمس».

قالت: أرجوك لا تضيء النور..

وحملتها هذه الجملة إلى بعيد، إلى أهلها في القدس. في الليل كانت شولا تسمع والدتها دائماً تقول لوالدها:

ـ أرجوك لا تضيء النور..

بعد عودتها إلى السجن أدركت الحارسة فوزية أن هذه العقوبة تعني أن ذوي النفوذ عجزوا عن حماية شولا، وبالتالي فإنها عادت إلى سابق عهدها في معاملتها بكل قوة وإذلال.

عندما عادت شولا إلى زنزانتها شعرت بالإعياء الشديد، ولكنها كانت تُعزّي نفسها بالنجاح الذي حققته في إخفاء أسرار شبكتها وفي إبعاد الشبهات عن العملاء الحقيقيين، وكانت تأسف للمصير الذي انتهى إليه محمد عوض لأنه ساهم في تحويل التحقيق معه بعيداً عن بعض كبار المسؤولين أملاً في النجاة فيما بعد، ولكن الموت المريب داهمه في السجن وطوى معه أسراره وآماله.

وكانت شولا على ثقة بأن أخبار محاكمتها تصل ساعة بعد ساعة إلى رؤسائها في تل أبيب. ولهذا تماسكت بقوة أمام المحققين حتى تبدو كجان دارك إسرائيل، وحتى اللحظة الأخيرة استطاعت شولا حماية الرؤوس الكبيرة التي تتعاون مع إسرائيل، وأبقت علاقتها بالمخابرات الإسرائيلية وعملائها الكبار طي الكتمان.

وكان ما يؤرق ضميرها أنها ضحت بالعملاء الصغار من أجل حماية الكبار. وأنها ضحت بمستقبل أسرتها من أجل إسرائيل.

تخفيض الحكم من الإعدام إلى سبع سنوات

بدخول شولا وزوجها السجن، تفرق شمل العائلة: العم شاييم

شقيق جوزف أخذ الصغيرين كارميلا ودوديك للإقامة في منزل عمتهما. أرليت انتقلت للإقامة مع عمتها الثانية المسنّة العانس. أما إسحاق فقد فضل الإقامة في منزل عمه شاييم.

لكن أحداً من الأربعة لم يشعر بالارتياح، ووجدوا من الأفضل لهم أن يبقوا معاً في منزلهم. كاشف إسحاق عمَّه بالأمر، فاعترض قائلاً:

ـ لكن من سيدير شؤونكم أنتم لا تزالون أطفالاً.

قال إسحاق:

ـ أنا لست طفلاً، سوف أوقف دراستي وأتفرغ لإدارة متجر والدي، وأرليت ستهتم بشؤون البيت.

كان إسحاق عنيداً وقد نفذ قراره بالفعل رغم اعتراضات العم شاييم وباقي الأقارب..

غداة صدور الحكم قام المحامي نصري المعلوف بزيارة شولا في السجن. قال لها:

ـ لقد كلفني زوجك أن أقول لك عن لسانه إنه يحبك كثيراً ويفكر بك كثيراً. لقد وضعوه في سجن دير القمر، لا تقلقي عليه فإنه في وضع جيد خاصة وأن شريكه في الزنزانة يهودي مثله.

ثم قدم لها ورقة مطبوعة طالباً توقيعها..

سألته: ما هذا؟

ـ قال: هذا طلب استئناف. هل تعتقدين أن المسألة انتهت؟ سوف أريهم مَنْ هو المحامي نصري المعلوف..

تحددت جلسة الاستئناف في الثالث والعشرين من تموز/ يوليو. حضرت شولا وزوجها وإن كانا غير ملزمين بالإدلاء بأية إفادة. كانت رئاسة وأعضاء المحكمة مختلفة تماماً عن السابقة، ونوعية المداولات بين المحامي والاتهام والقضاء كانت مختلفة. كانوا يتناقشون في أمور قانونية لم تستطع شولا استيعابها، وانشغلت عن ذلك بتأمل زوجها الحزين. هذا البائس ما ذنبه..؟

بعد أسبوعين من جلسة الاستئناف أسرع المحامي المعلوف إلى السجن ليزف إلى شولا البشرى المفاجئة.

ـ لقد نجحنا، لقد أنزلوا عقوبتك إلى سبع سنوات فقط، سأذهب الآن إلى سجن دير القمر. عاد الأمل إلى شولا وقضت يومها في حفر روزنامة على حائط الزنزانة بواسطة دبوس شعرها لتبدأ بِعَدِّ الأيام بعدما صارت المسألة معقولة وممكنة.

وبدأت الأيام تمر، وجاءت وزارة حسين العويني الذي تولى، بالإضافة إلى منصبه كرئيس للوزراء، وزارتي الدفاع والداخلية قبل انتهاء ولاية الرئيس شهاب بأشهر قليلة.

وذات يوم جاءها المحامي نصري المعلوف وقال لها:

ـ السوريون يطالبون الحكومة اللبنانية بتسليمك لهم. وقد عمل أصدقاؤك الذين نشطوا مؤخراً كل ما يلزم لمنع ذلك. وقد أرسلت لهم الحكومة جواباً قانونياً وإن كان مغلفاً بلهجة الصداقة، ومفاده أن شولا كوهين هي مواطنة لبنانية وبالتالي فإن لبنان وحده هو المسؤول عن معالجة قضيتها.

وهكذا بقيت شولا في سجنها في لبنان، لكن من جهة أخرى فقد اختلفت فوزية حارسة السجن مع عشيقها الملقب «بونابرت»

وقطعت علاقتها نهائياً معه، وبالتالي فإن أصدقاء شولا فقدوا ورقة الضغط التي كانوا يمارسونها على فوزية لإجبارها على تليين معاملتها لشولا. وهكذا راحت فوزية تعوض ما فات وتسوم شولا أنواع العذاب في السجن دون أن تملك هذه سوى الصبر والجلد.

امتيازات للجاسوسة اليهودية في السجن

عام 1964 ومع حلول عيد الفصح اليهودي غضب إسحاق ابن شولا لأن إدارة السجن لم تسمح له بتقديم حلوى القربان اليهودي المقدس، إلى والدته. وقد أجرى اتصالات عديدة أوصلته إلى الذراع الأيمن، لرئيس الحكومة وزير الداخلية والدفاع الذي استصدر له تصريحاً خاصاً يسمح لشولا بممارسة حقها في ذلك الطقس الديني.. وبالإضافة إلى ذلك فقد صار مسموحاً لشولا أن تتعطر وتتبرج وأن ترتدي ما تشاء من الملابس الخاصة شرط أن تكون قريبة من لون وموديل ملابس السجينات.

بعد حين جرى تعيين طبيب جديد للسجن. وسرعان ما استاء الطبيب الجديد من معاملة فوزية للسجينات وقال لهن: إذا تجرأت إحداكن على كتابة شكوى خطية ضد ممارسات فوزية فأنا كفيل بوضع حدّ لتعنتها، غير أن واحدة منهن لم تجرؤ على ذلك سوى شولا، وبنتيجة ذلك أقصيت فوزية من وظيفتها وحكم عليها بالسجن مدة عامين.

ومن خلال زيارات أولادها والعائلة والأصدقاء، علمت شولا أن الحدود اللبنانية ـ الإسرائيلية تحولت مسرحاً للمناوشات الدائمة، وأن الفلسطينيين بدأوا يبرزون في الساحة اللبنانية كقوة مسلحة لا يستهان بها. وبالفعل سرعان ما بدأت هجماتهم ضد إسرائيل.

بعد انتخاب الرئيس شارل حلو

وفي ذلك العام 1964 انتخب شارل حلو رئيساً جديداً للجمهورية اللبنانية 18 آب (أغسطس) خلفاً للرئيس اللواء فؤاد شهاب.

حاول الرئيس شارل حلو، منذ بداية عهده احتواء الطاقة العسكرية التي بات يملكها الفلسطينيون، لكن محاولته باءت بالفشل.

وفي إحدى الزيارات قال لها إسحاق:

ـ يبدو أن نزاعاً مسلحاً على وشك النشوب هنا..

وكان إسحاق قد ترك إدارة المتجر، بعد خروج والده من السجن، وهو الآن يعمل مندوباً لإحدى الشركات التجارية الأميركية في بيروت.

وكان يقول لوالدته وأخته:

ـ عندما تخرج ماما من السجن سوف نذهب جميعاً إلى إسرائيل، هناك سوف نبدأ حياتنا من جديد، من الصفر..

واستعداداً لذلك، فقد تسجل إسحاق في الأكاديمية البلجيكية في بيروت لدراسة المحاسبة، وانقطع فترة عن زيارة والدته استعداداً لتقديم امتحاناته النهائية في الخامس من حزيران/ يونيو 1967. لكن إسحاق لم يتقدم إلى تلك الامتحانات، ففي صباح ذلك اليوم المشهود الخامس من حزيران/ يونيو 1967، أذاع راديو القاهرة أن الحرب قد بدأت بين مصر وإسرائيل.

ومع بيانات الإذاعات العسكرية، نزل المتظاهرون إلى الشارع وكاد إسحاق وقريبه ألبرت يقعان في قبضة فريق من المتظاهرين تعرفوا

على اليهوديين عند سوق سرسق، لكنهما نجحا في الإفلات، وأسرعا إلى حي اليهود في وادي أبو جميل الذي كانت قوات الأمن اللبنانية قد أحاطته بطوق أمني محكم منعاً لأية «اعتداءات» قد يتعرض لها.

وبالطبع فقد وصلت أخبار الحرب إلى داخل السجن إلى شولا التي بدأت جميع السجينات يعاملنها بحذر واشمئزاز، وقد عمدت إدارة السجن إلى وضع شولا في زنزانة انفرادية مستقلة لحمايتها من نقمة السجينات.

انتهت حرب الأيام الستة مفرزة واقعاً سياسياً جديداً في الشرق الأوسط. وبعد حوالي شهر توقف المتظاهرون عن الهتافات في الشوارع، وبدأت بيروت تستعيد حالتها الطبيعية.

إسرائيل تفرج عن شولا بالمقايضة

قبيل اندلاع الحرب كان المحامي نصري المعلوف قد رفع كتاب استرحام إلى الرئيس شارل حلو طالباً فيه الإفراج عن شولا كوهين التي تكون في الحادي عشر من آب/أغسطس 1967 قد أنهت عامها السادس في السجن، ولم يبق لها سوى عام واحد. وقد أدركت شولا أن الرئيس حلو سيكون محرجاً جداً في بت طلب الاسترحام وبالتالي ليس عليها إلا أن تنتظر آب/أغسطس 1968 القادم.

ذات صباح جاءتها حارسة السجن قائلة: لديك زائر، إنه مسؤول من الصليب الأحمر.. كان شخصاً غريباً قدم نفسه باسم مودوكس وبصفته ممثلاً للصليب الأحمر الدولي في بيروت. وما إن اختليا حتى قال لشولا:

- سيدتي، إسرائيل تريدك هناك.. أنا هنا لأحاول إقناع

السلطات اللبنانية بإعفائك من بقية مدة عقوبتك، لكن قبل ذلك عليك إجابتي على بعض الأسئلة بناء على أوامر تل أبيب. هل أنت راغبة بالذهاب للعيش في إسرائيل؟ إذا لم ترغبي في ذلك فبوسعنا تأمين إقامتك في أي بلد تختارين.

بعد ذهابه، تساءلت شولا: ما الذي جعل سادة تل أبيب يتذكرونني الآن؟ فيما بعد عندما ذهبت شولا إلى إسرائيل عرفت الجواب...

عندما سقطت مدينة القدس في أيدي القوات الإسرائيلية خلال حرب الأيام الستة كان عدد كبير من المواطنين اللبنانيين لا يزالون يقيمون فيها بمن فيهم القنصل اللبناني هناك، ثم عندما احتل الإسرائيليون مرتفعات الجولان صادروا كمية من المعدات الثقيلة التي كان السوريون ينوون استخدامها لشق قناة انحرافية لمياه نهر الأردن، وكانت تلك المعدات الباهظة الثمن تعود ملكيتها إلى أحد المتعهدين اللبنانيين.

الإسرائيليون عرضوا صفقة مبادلة مع لبنان مؤداها أن تعيد إسرائيل تلك المعدات التي بلغ ثمنها مئات الملايين مقابل أن يعيد لبنان إليها الطيار الذي أسقط السوريون طائرته وهبط بالمظلة في الأراضي اللبنانية خلال الحرب، حيث اعتقله الجيش اللبناني، بالإضافة إلى الجندي الإسرائيلي الذي كان قد اعتقله الجيش اللبناني أيضاً لدى اجتيازه للحدود اللبنانية بطريق الخطأ قبل الحرب.

وفي اللحظة الأخيرة أضاف الإسرائيليون اسم شولا كوهين إلى لائحة المقايضة.

آلان مودوكس مندوب الصليب الأحمر الدولي نقل العرض

الإسرائيلي إلى السلطات اللبنانية، وكان الجواب اللبناني رفضاً قاطعاً. لقد أصرّت السلطات على أن شولا مواطنة لبنانية، وبالتالي لا مجال لإدخالها في أية صفقة تبادل.

نقل مودوكس الجواب اللبناني إلى السلطات الإسرائيلية وأفهمهم أن الرفض اللبناني يستند إلى موقف مبدئي يتعلق بجنسية شولا كمواطنة، وبالتالي فإذا استطاعوا تدبير أمر جنسيتها بطريقة ما لأمكن إقناع اللبنانيين. وكان جواب الإسرائيليين أن شولا قد اكتسبت الجنسية اللبنانية عند زواجها من اليهودي اللبناني جوزف كيشاك، لكنها في الأساس مولودة في القدس أي أن جنسيتها الأساسية هي إسرائيلية، وأصروا على أن جنسية الولادة أقوى وأرسخ من الجنسية التي تكتسب بالزواج.

شولا تختار إسرائيل للإقامة بعد الإفراج عنها:

وهكذا عاد مودوكس إلى بيروت حيث ارتأى أن يعرف موقف شولا قبل أن يتباحث في مسألة جنسيتها مع السلطات اللبنانية.

ومن جهتها فقد وافقت شولا على الانتقال إلى إسرائيل بحماس بالغ وإن كان مشوباً بالقلق. قالت لمودوكس: أنا أتحرق طبعاً للعيش في إسرائيل، لكن المشكلة أني اعتدت على الحياة اللبنانية. وقبل كل شيء فالمسألة تتعلق بموقف أولادي من هذا الأمر.

بعد أسبوعين اتصل مودوكس بإسحاق وأرليت كيشاك أولاد شولا، واتفق معهما على اللقاء في بار فندق ريفييرا القائم في منطقة المنارة على شاطىء بيروت الغربية.

قال لهما: منذ أكثر من شهر ونحن نتفاوض مع السلطات

اللبنانية والآن لقد سوي الأمر. سوف يفرجون عن والدتكما في غضون عشرة أيام... إن والدتكما مستعدة للذهاب إلى إسرائيل بشرط أن تذهبا معها. بوسعنا نقلكم جميعاً عبر الحدود، وإلا فإنها تنتقل عبر رأس الناقورة وتذهبون أنتم بالطائرة إلى نيقوسيا ومنها إلى إسرائيل. القرار لكما.

فقال إسحاق إنه يجب أن يستشير والده في الأمر.. وفي الغد اتصل بمودوكس ليقول: «نفضل أن نرحل معاً عبر الحدود».

وبعد يومين اتصل مودوكس به مجدداً ليقول له: سيكون الرحيل يوم الأربعاء 23 آب (أغسطس) 1967، لكن السلطات اللبنانية ترفض انتقالكم جميعاً عبر الحدود. وبدأ الجميع يستعدون للسفر، لكن سرعان ما اكتشف جوزف أن جواز سفره غير صالح بسبب انقضاء مدته وعبثاً حاول إسحاق عبر اتصالات عديدة التعجيل في إصدار جواز جديد لوالده.

شولا تبلغت القرار المفاجىء قبل ثلاثة أيام من الموعد. وصباح الأربعاء جاء أحد رجال الأمن وفتح باب زنزانة شولا التي وجدت بانتظارها المفتش العام جوزف بارودي الذي طالما كان أرهقها خلال التحقيقات المضنية التي أُخضعت لها.

قال لها.. لقد قام الصليب الأحمر بترتيب المسألة بحيث نكون في رأس الناقورة في الرابعة والنصف من بعد ظهر هذا اليوم. بعد ذلك سينتقل زوجك وأولادك بالطائرة إلى قبرص. لكن قبل الفراق لدينا هدية لك: جولة وداع تذكارية في أنحاء بيروت، وبالطبع سيكون هذا آخر يوم لك في بيروت، وسنسعى لجعله يوماً جيداً. يشرفني أن

أكون اخترت لأرافقك في هذا اليوم، وقبل أن أنسى لقد بعثت لك ابنتك أرليت هذه الرسالة.

فتحت شولا الرسالة، كان فيها خمسمائة ليرة لبنانية وثلاث كلمات: حظاً سعيداً، أرليت..

وها هي شولا أخيراً خارج بوابة السجن، طليقة. حمل جوزف بارودي حقيبة أغراض شولا وأصعدها إلى السيارة وقال لها:

ـ حسناً سيدتي، أين تودين أن نتنزه؟ هل ترغبين بزيارة الحي اليهودي..؟

قالت: أي مكان إلا الحي اليهودي. فبعد رحيل زوجي وأولادي لم يبق لي شيء هناك. لا أعرف أحداً، أفضل القيام بجولة حول المدينة.

كان الوقت لا يزال مبكراً وبيروت لم تستيقظ بعد، توقف بارودي أمام أحد المطاعم وطلب لها مائدة للفطور ثم تابع بها التجول عبر شوارع معظم أنحاء المدينة.

حوالي الظهر قالت شولا لجوزف بارودي: لقد دعوتني للفطور، فهل تسمح لي بدعوتك للغداء. إني راغبة في وجبة سمك عند أبو قمر.

أجابها المفتش: كوني عاقلة لا مصلحة لك في مقابلة أبو قمر ولا أي واحد من أصدقائك القدامى. وتوجه بها إلى مقهى ومطعم «برج الحمام» «لاغروت أوبيجون» في الروشة. إنه مقهى الذكريات بالنسبة إلى شولا التي كانت تعقد هناك معظم لقاءاتها السرية وتدير عملياتها التجسسية.

في المقهى بدا لشولا أن ترتيبات زيارتها معدّة سلفاً. فالعاملون تصرفوا معها وكأنها غير موجودة، ثم عندما طلبت فاتورة الحساب قالوا لها: لا يا سيدتي هذا تقدمة على حساب المحل. بعد الغداء قاما بجولة أخرى في شوارع بيروت الجولة الأخيرة. وبناء على رغبة شولا قاد المفتش بارودي السيارة بمحاذاة مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا. ومن هناك اتجه نحو صيدا، نحو رأس الناقورة. قالت شولا لجوزف:

ـ تعرف بماذا أشعر الآن؟ أنا لا أعرف تماماً. أنا لست حزينة، لكنني لست سعيدة. كل ما في الأمر أنني أشعر بأن مرحلة تاريخية من حياتي، هي الأخطر والأغرب قد انتهت الآن.

قبيل الرابعة وصلت السيارة إلى مقربة من نقطة الحدود اللبنانية ـ الإسرائيلية في رأس الناقورة، نظر جوزف إلى ساعته ثم أوقف السيارة على جانب الطريق قائلاً لشولا.. الأفضل أن نصل في الوقت المحدد تماماً، بوسعنا أن ننتظر قليلاً هنا..

ثم سألها:

ـ سيدة كوهين، أود أن أطرح عليك هذا السؤال: الآن وأنت على وشك مغادرة لبنان نهائياً، حبذاً لو تقولين لي الحقيقة هل كنت بالفعل جاسوسة إسرائيلية أم أنك كنت مجرد ضحية لظروف وإشكالات معينة..؟

أطرقت شولا قليلاً ثم ابتسمت قائلة:

ـ إذا كان دافع سؤالك هذا هو مجرد إرضاء لفضولك الشخصي فسوف أقول لك إنني أعلنت أمام المحكمة أنني لم أكن أبداً عميلة إسرائيلية، لكن إذا كنت راغباً فعلاً في التعاون مع الإسرائيليين

فسأقول لك إنني سأكون سعيدة جداً بتأمين الاتصال بينك وبينهم. .

انفجر المفتش جوزف بارودي ضاحكاً. .

ـ يا إلهي حتى وأنت في اللحظة الأخيرة تريدين تجنيد عميل آخر. .؟ ثم أدار محرك السيارة وتوقفا عند النقطة الحدودية. تقدم أحد مفتشي الجمارك وحمل حقيبة شولا إلى أمام الحدود الإسرائيلية، ثم عاد فيما اقترب ضابط إسرائيلي من شولا وقدم لها التحية العسكرية. نظرت شولا إلى شاراته، كان ليوتنانت كولونيل من سلاح الجو الإسرائيلي، ثم قال لها بالعبرية:

ـ أهلاً بك في إسرائيل، مدام كوهين. .

قالت:

ـ شالوم، أشكركم لما بذلتموه من أجل تحريري.

ثم أصعدها في سيارة ومشى بها. .

قال لها:

ـ سنكون في حيفا في غضون نصف ساعة. .

قالت:

ـ ألن نمر في نهاريا؟ أرجوك سيدي الكولونيل أن تمر بنا في نهاريا، يجب أن أدخل إلى صالون التزيين، أنتم بالطبع لا تقبلون أن أدخل إلى حيفا وأنا في هذه الحالة المزرية.

ابتسم الكولونيل الطيار لشولا وقال:

حسناً سيدتي كما تشائين، مع أنك تبدين جميلة جداً الآن. .

ومضت شولا مع مرافقها إلى داخل إسرائيل لتعيش باقي عمرها مع الذكريات.

الفهرس